فكر علمي ... ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

451
آذار 2025

مقالات

حميد الخاقاني
معاذ محمد رمضان
هاشم نعمة
كاظم المقدادي
طالب عبد الأمير
سناء عبد القادر مصطفى

نصوص قديمة

زهير الجزائري

نصوص مترجمة

ماثيو كارب

ادب وفن

حسب الله يحيى
نادية هناوي
أحمد فضل شبلول
جبار خماط حسن
منار غالب حسين
عالية خليل إبراهيم
خالد خضير الصالحي
ريسان الخزعلي
علاء حمد
حسن النواب
محمد العزوي
عبد الرحيم التوراني
عباس لطيف
أوس حسن
لورون برتيوم
أحمد يحيى علي
هوارد فاست

الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية

تأسست عام 1953

رئيس التحرير : صالح ياسر

مجلس التحرير

ابراهيم اسماعيل — جـــــواد الزيدي

رضـــــا الظاهر — علي إبـراهيـــم

كـــــاوة محمود — مظهر محمد صالح

هـــــادي عزيـــز علي

هيئة التحرير

زهيـر الجـزائـري

هـــاشـم نعمـة

سوران قحطـان

حسب الله يحيى

محرر "أدب وفن"

العدد 451

آذار 2025

المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:	بالدولار:
مجلة الثقافة الجديدة	Althakafa Aljadida Magazine
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد	Mansour Bank for Investment– Baghdad
رقم الحساب: 11153	Account No:30721
سويفت كود: MBIVIQBA	SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير: althakafaaljadeda@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير: thakafajadida4u@gmail.com
يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي: althakafaaljadeda@yahoo.com
عنوان الموقع على شبكة الانترنت: althakafaaljadeda.net

عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.

رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

شروط النشر

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي فيما يرسلون للنشر:

• أن تكون المقالة أو الدراسة أو الشعر... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
• ان لا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة، وبالنسبة لباب قراءة في كتاب، ألا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500 - 3000 كلمة.
• ان لا يزيد عدد كلمات باب ترجمات عن 4000 كلمة ويمكن لهيئة التحرير أن تنشر أكثر من ذلك إذا رأت ان هناك ضرورة.
• باب نصوص قديمة، تعتمد كلماته على النص المختار.
• وبالنسبة لباب أدب وفن، لا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500 كلمة.
• ان تكون المادة معدة اصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن اخرى أو على صفحات المواقع الالكترونية.
• ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج. وارتباطا بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير فيما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو ان ترسل مع المقال او الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود سطر ونصف الى سطرين إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال او الدراسة.
• لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة اعلام صاحبها بذلك.
• بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الالكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
• للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
• يجوز للباحث/الباحثة اعادة نشر بحثه/بحثها المنشور في المجلة شريطة ان يشير/تشير الى المصدر عند اعادة النشر.
• بالنسبة لتوثيق المصادر خصوصا في المقالات يفترض أن يكون موحدا وهو يتوافق مع شخصية وأسلوب المجلة، وهنا يكون في الهامش وليس في داخل المتن بدون قوس، وهناك عدة طرق للتوثيق ولكن الأكثر استخداما ما يأتي، راجين من الباحثين والكتاب اعتماد ذلك:
• بالنسبة للكتب: اسم المؤلف أو المترجم أو المحرر، رقم الطبعة، مكان النشر، الناشر، تاريخ النشر، رقم الصفحة.
(لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور...)
• بالنسبة للدوريات أو المجلات: اسم الكاتب، «عنوان الدراسة أو المقالة»، اسم المجلة، المجلد و/أو رقم العدد، سنة النشر، رقم الصفحة.
(لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور...)

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5 - كلمة العدد

مقالات

8 - في جدل الهُـوِيَّـة الوطـنية والهُـوِيّات الفـرعـية: العراق نموذجاً..... حميد الخاقاني
15 - موقف الحزب الشيوعي العراقي من الزعيم عبد الكريم قاسم.....معاذ محمد رمضان
25 - الفاشية الجديدة وصعود اليمين المتطرف.....هاشم نعمة
37 - التغيرات المناخية والتضليل الإعلامي المنسق.....كاظم المقدادي
49 - هل اندماج الانسان بالآلة حتمي أم خيال علمي؟.....طالب عبد الأمير
59 - قراءة في كتاب "محنة الوعي في عالم مضطرب".....سناء عبد القادر مصطفى

نصوص قديمة

66 - الثقافة والقمع والديمقراطية .....زهير الجزائري

نصوص مترجمة

73 - عودة ترامب من 2016 إلى 2024 لـ ماثيو كارب..... ترجمة : سوران قحطان

87 - حول منحة الادباء والفنانين والصحفيين.....حسب الله يحيى
88 -إبراهيم الكوني والسرد البيئي.....نادية هناوي
93 - حبيب الروح والحرب في الشرق.....أحمد فضل شبلول
100 - النقد المسرحي بين الموضوعي والعشوائي.....جبار خماط حسن
106 - القاتل المتسلسل في السينما.....منار غالب حسين
109 - اللارواية في "المدعو إلى مساء السيدة" لعلي بدر.....عالية خليل إبراهيم
112 - هاشم تايه نحاتا - الفائض عن الحاجة من المادة..... خالد خضير الصالحي
116 - هكذا كان الوقوف أمام الواجهات الزجاجيّة في الشارع الأوّل.....ريسان الخزعلي
117 - اللغة والتموضع الدلالي في نصوص الشاعر العراقي ريسان الخزعلي.....علاء حمد
123 - أحزانهُ صادحةٌ ونثرهُ يستغيثْ.....حسن النواب
128 - كأرض يباب..... محمد العزوي
130 - قصة قصيرة:نُباحٌ ليْسَ مِنَ الكِلاَب..... عبد الرحيم التوراني
138 - الفوضى واشتغالاتها في أداء الممثل المسرحي العراقي.....عباس لطيف
143 - خمسون عاماً من الرحيل بين المنافي:
كيف نقرأ كاظم السماوي مفكراً وإنساناً.....أوس حسن
148 - قصصٌ قصيرةٌ جدًا.. لـ لورون برتيوم..... ترجمة وتقديم: سيدي مُحمَّد بن مالك
150 - الذات ومعضلة التعبير.....أحمد يحيى علي
153 - وردة الصيف الأولى لـ هوارد فاست .....ترجمة: جودت جالي

لوحتا غلافي العدد للفنان: علي الموسوي

التدقيق اللغوي: مصطفـــى عبـــاده
التصميم والاخراج الفني: علي العـتابي

كلمة العدد

صعود اليمين المتطرف يهدد السلم العالمي

يمثّلُ صعودُ الأحزاب والشخصيات المتطرفة في الانتخابات، سواء على مستوى أوروبا أو الولايات المتحدة، وبدرجة أقل على مستوى بقية العالم تهديدا حقيقيا للسلم العالمي. هذا التهديد يتفاعل عبر المستويات السياسية والأمنية والاقتصادية والتجارية. يعكس هذا الصعود أزمة بنيوية عميقة اجتماعية - اقتصادية تعيشها الأنظمة الرأسمالية، وخيبة أمل شرائح واسعة من المواطنين من تراجع دولة الرفاه الاجتماعي وارتفاع معدلات البطالة والتضخم وضبابية المستقبل. هذه الظروف تُهيئ التربة الخصبة لنمو هذه الأحزاب والقوى ذات التوجهات القومية الفاشية التي توظف شعاراتها الشعبوية عبر اساليبها الديماغوجية لكسب الشرائح الاجتماعية اليائسة.

جاء فوز دونالد ترامب للمرة الثانية في الانتخابات الرئاسية الأمريكية عام 2024 ضمن هذا السياق، إضافة إلى تراجع دور الولايات المتحدة على المستوى العالمي اقتصاديا وسياسيا بعد صعود أقطاب دولية قوية خصوصا الصين. هذا الفوز يعكس في الواقع في جانب منه محاولة لوقف هذا التراجع ولـ "استعادة أمريكا عظيمة"! كما يردد ترامب، خدمة للشركات الاحتكارية الكبرى. والملاحظ، تميزت الفترة الثانية من حكمه مقارنة بالفترة الأولى بزيادة حدة التوجهات العدوانية الشوفينية، متمثلة بتهديده بضم بلدان ذات سيادة إلى الولايات المتحدة مثل كندا، وأقاليم مثل غرينلاند التي هي جزء من الدنمارك والسيطرة على قناة بنما واحتلال غزة وتهجير سكانها. هذه التهديدات المستفزة بقوة للمشاعر الوطنية، والتي تتسم بالغرور وبالبلطجة وغير المسبوقة في العلاقات الدولية حتى في حالة عدم تنفيذها فإنها ستُسهم في خلق بيئة عالمية غير آمنة وستشيع عدم الثقة بين الدول حتى في أوساط الحلفاء الغربيين. ويمكن أن تُستخدم للمساومة وعقد الصفقات على غرار طريقة ترامب في عقد الصفقات التجارية. كذلك محاولة الإدارة الأمريكية فرض تسوية للحرب الروسية - الأوكرانية دون إشراك أوكرانيا والدول الأوروبية والأمم المتحدة في المفاوضات التي جرت بينها وبين روسيا. هذا النهج بحد ذاته وسّع الانقسام الأمريكي - الأوروبي، وجعل الاتحاد الأوروبي يخطط لزيادة إنفاقه العسكري. وهو لا يُسهم في النهاية في تحقيق سلام عادل بين طرفي الحرب على المدى البعيد.

وهناك جبهة أخرى تنعكس على السلم العالمي متمثلة بالحرب التجارية التي يخوضها ترامب ضد بعض الدول، من خلال فرض رسوم جمركية بنسبة 25 في المئة على الواردات

القادمة من كندا والمكسيك، ورفع هذه الرسوم بنسبة 20 في المئة على السلع الصينية. وقد ردت كندا والصين بفرض رسوم جمركية مضادة على عدد من السلع الأمريكية. كذلك التهديد بفرض هذه الرسوم على الاتحاد الأوروبي. كل ذلك سيُسهم في تراجع نمو الاقتصاد العالمي، ويرفع الأسعار التي يدفع ثمنها المستهلك سواء في الولايات المتحدة أو في البلدان المستهدفة بفرض هذه الرسوم. وسيُسهم ذلك في ارتفاع وتيرة التوترات الأمنية على المستوى العالمي. ولأهمية هذا الموضوع وخطورته خصصنا في هذا العدد مقالتين تعالجان هذا الصعود المقلق لليمين المتطرف.

المطلوب جبهة عالمية تضم الأحزاب والقوى والمنظمات اليسارية والديمقراطية في مختلف البلدان، للتصدي لهذا النهج العدواني لليمين المتطرف، والضغط على الحكومات كي يكون موقفها مستقلا وقويا، وأن لا تقدم التنازلات للإدارة الأمريكية.

على مستوى الداخل الأمريكي، فإن نهج ترامب يعزز نزعة الاستبداد في الحكم ويُضعف من الديمقراطية، ومن صلاحيات الكونغرس الأمريكي، ما يسهل عليه الانخراط في مغامرات عسكرية ضد هذا البلد أو ذاك، تحت ذرائع مختلفة منها الدفاع عن مصالح الولايات المتحدة الحيوية .

انعكاس هذا الصعود على العراق

أما على صعيد منطقتنا والعراق خصوصا، فقد أشرنا في كلمة سابقة إلى أن هناك محاولات لتغيير موازين القوى في الشرق الأوسط لصالح الولايات المتحدة وإسرائيل خصوصا. وها قد سقط النظام السوري بسرعة وأضعف حزب الله اللبناني، ودمرت غزة على نطاق واسع وتراجع النفوذ الإيراني كثيرا. وعدّ كثير من المراقبين أن الوجهة القادمة ستكون العراق، وذلك من خلال طلب الإدارة الأمريكية من العراق دمج الفصائل المسلحة في الجيش وقوى الأمن. وقد أعلن السيد رئيس مجلس الوزراء أن الحكومة سائرة على هذا النهج، لكن يبدو أن هذه العملية لم تحقق نجاحا يُذكر حتى هذه اللحظة. وهذا ما يشكل خطرا بأن يفرض الحل عسكريا من الخارج، مما ينتج عنه تداعيات تمس أمن بلدنا وشعبنا.

إن عقلية مؤسسات الدولة البعيدة عن نهج المحاصصة الطائفية ـ الإثنية يفترض هي التي تسود، وأن يترك خيار الحرب والسلم للدولة لا أن يقرره هذا الفصيل العسكري أو ذاك، بناءً على توجهات تخدم مصالح أطراف خارجية وتضحي بمصلحة الوطن والشعب. ولعل هذا الوضع الحرج يكون حافزا للشروع بتبني مشروع وطني جامع لبناء الدولة والذي غاب عن أهداف الكتل والقوى المتنفذة طيلة أكثر من عشرين سنة، لأنه لا يخدم مصالحها الفئوية الضيقة، قائم على مفهوم المواطنة لا على فكرة المكونات التي تمزق نسيج المجتمع، وتحوله إلى كانتونات تخدم المصالح السياسية والاقتصادية والاجتماعية لأمراء ما يدعون تمثيل هذا المكون أو ذاك .

مقالات

في جدل الهـوِية الوطـنية والهـوِيات الفـرعـية: العراق نموذجاً

د. حميد الخاقاني
أكاديمي وباحث

مفهوم الهوية

يردُ في أكثر من قاموس فلسفي أنَّ "الهوية مفهوم فلسفي أساسي، وقد ظهر استخدامه، أول مرة، في علم المنطق. ولفظ الهوية في اللغات الأوربية مأخوذٌ من اللاتينية idem، ويأتي بمعنى هُوَ هُوَ، أو هيَ هيَ.

وينُصُّ مبدأ الهُوية على تماثُلِ الإنسان مع ذاته، وكذلك "تطابق شيئين أو مفهومَين لا يكونا مُتطابقَين إلاّ إذا، وفقط إذا كانت خواصُ أحدِهما مُماثلةً لخواص الآخر"[1].

ويمكن العثور على مفهوم الهُوِية في فلسفة ما وراء الطبيعة، وعلم النفس وعلم الاجتماع، والسياسة كذلك.

ومن أوائل من أشار إلى إشكالية الهوية في اليونان القديمة هيراقليطس (540-480 قبل الميلاد)، فيلسوف مرحلة ما قبل السقراطية. كان من أوائل من مارسَ النقد العقلاني الحي لأسلوب حياة البشر في زمانه، وإدراكهم السطحي لواقعهم وذواتهم كذلك، مع أنه كان يرى أنَّ البشر لـدَيهم القدرة على معرفة أنفسِهم بأنفسهم والتفكير بعقلانية.

رؤيتـهُ لمفهوم الهُوية، وهي رؤيـةٌ مُبَكِّرة جِدّاً تقوم على قاعدة الجَريان والحركة/ قاعدة التغَيُّر الدائم. وتتَجَسَّدُ رؤيتُـهُ هذه في مقولتِـهِ الشهيرة: "نحن ننـزِل في نفس النهر، ولكنـه ليس هو نفسـه في كلِّ مرة، ونحنُ لسنا نحن كذلك"[2]. للهوية إذن صيرورتُها التي تتشكل معها هُوية أحدِنا ونضوجُها وتطورها ألأخلاقي عِبْرَ تجاربه الإجتماعية والثقافية بوصفها مسؤولية ذاتية. هذه التجارب هي ما تُحَقِّقُ لأحدنا أن يكون هو نفسه، أن يكونَ ذاتاً حرة. ومسألة الهوية الذاتية لم تكتسب أهميةً أكبر في الفلسفة، وحقول المعرفة الأخرى، إلاّ في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ومع انطلاق حركة التنوير الفكري في أوربا.

سردية الهوية

لكلِّ هوُية، فردية كانت أو جماعية، لها سرديتها الخاصة بها. سرديةٌ لها لغتها ورؤاها، تاريخها وتجاربها وذاكرتها. وبهذا المعنى فإنَّ هُوية الإنسان الذاتية هي سرديته التاريخية عن

نفسه، عن ذاته. عن رؤيته للأشياء، للمكان ـ الوطن وللمجتمع اللذَين ينتمي إليهما ولثقافتهما التي أسهمت في صُنع ذاكرته، وللعالم الذي يتقاسم العيش فيه مع الآخرين. حتى الأديان، وما يخرج منها أو عليها من مذاهب وطوائف، لها سردياتها التاريخية وتصوراتها ونصوصها المقدسة، وطقوسها وثقافتها، حتى تلك الفولكلورية منها. وكذلك رؤيتها للعالم والإنسان والحياة الدنيا وما وراءها. وهي، في الغالبِ، رؤىً يختلطُ فيها الواقعي بالمُتَخَيَّل، والدُنيَوي بالميتافيزقي. هذا كُلُّه هو جوهرُ ما تتأسسُ عليه هُويةُ هذا الدين أو ذاك، وهذا المذهب أو ذلك. وجميعها تتلاقحُ مع بعضها البعض، وتأخذ من بعضها البعض فكرياً وثقافيا. السابقُ منها يؤثِّرُ، بهذا القَدْرِ أوذاك، في اللاحق، وهذا فيمن يظهرُ بعده، مثلما هو الحالُ في حضارات الإنسان جميعها.

واللقاء بالآخر المختلف معي وعني، سواء تشاركنا في الوطن أم لم نتشارك، هو أحد المحطات الهامة في سردية الهوية وصيرورتِها غيرِ الساكنة. وهو ما يأخذني، عبر وعيي بأنَّ هذا الآخر مختلف عني ثقافياً، إلى إعادة قراءة ذاتي وذاتِهِ، ثقافتي وثقافته، ومعهما هُويته وهُوِيَّتي بالضرورة. مثلُ هذه القراءات لن تكونَ سوى مصدرِ غِنىً ومعرفةٍ جديدة له ولي أيضا، ننقلُها لغيرنا حيثما نكون.

الهوية والحداثة

ويرى علماء من مختلف الاختصاصات، في عصرنا هذا، أنَّ الهوية مُتَطَلَّبٌ حديث يحتاجه الأفراد والجماعات. ولهذا يذهب بعض فلاسفة علم الاجتماع إلى أنَّ الهوية أحد اختراعات الحداثة. ولذلك تمضي دراسات موضوعة الهوية إلى البحث في الخصائص والسمات الفريدة التي تُحدد شخصية فردٍ ما، أو مجموعة ما، وتميزهما عن الآخرين. وفي حقل العلوم الاجتماعية يشير مفهوم الهوية إلى الأشخاص القادرين على الابتعاد عن أنفسِهم، من حين لحين، والتفكير بذواتِهم من خارجها، وإخضاع هوياتهم للنقد والتساؤل. وهؤلاء الأشخاص هُمْ من يذهبون للتفكير في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم، كما يتأملون نقدياً، في الوقت نفسه، ماضيَ مجتمعاتهم وحاضرها ومستقبلها. وقد رأى الألماني ماكس فيبر (1864 - 1920)، وهو من أهَمِّ ممثلي علم الاجتماع، والنظرية الاجتماعية في زمانه، في مثل هؤلاء الأشخاص نموذجاً مثالياً لتلك الأداةِ المفاهيمية في علم الاجتماع، والتي تتولى تحليل الظواهر الاجتماعية المعقدة وفهمها[3].

ولكن وبحسبَ رؤية فيبر، فإنَّ روح العقلانية التي كانت قادرة على التطور، بشكل خاص في أوربا، أدَّتْ إلى ظهور الرأسمالية كمجتمع متفوق، ولكنها أفضَتْ، في نهاية المطاف، إلى إصابة الذوات الفردية الإنسانية بالذعر من هذا "الصندوق الحديدي"، كما يقول، حيث يصبح الناس تابعين للسوق وحركته، وخاضعين لسطوة عقلانيات قوية، أيْ آليات إدارية بيروقراطية حديثة[4].

امتلاك الإنسان لهويته الذاتية يعكس حالةَ تصالُحٍ مع نفسه وذاته، وما يؤمن به من أفكار يهديه إليها عقلُه وتجاربُهُ الثقافية، وتفاعلُهُ مع الثقافات الأخرى كذلك. وهذه الهُوية هي من تُمَثِّلُ الوجود والحضورَ الحقيقيين لصاحبها في الحياة وفي المجتمع. ذاتيةُ الهُوية هنا لا تعني الإنكفاءَ، كما قد يتصور بعضُنا في البداية، والعيشَ في عزلة عن المجموع والمحيط الإجتماعي الذي نعيش فيه، فأنا والآخر نظلُّ بحاجة لبعضنا البعض. نتفاعل

ونتناقضُ، تتطابق رؤانا في هذا الأمر وتختلف في الآخر، ولكننا نحيا عبرَ جدلية التطابُقِ والاختلاف هذه، تحولاتٍ وتطورات معرفية واعية ودائمة، خاصة إذا ما أحسنا الحوارَ والجدلَ بالتي هي أحسن. وهكذا فالآخر وأنا نظل حاضرَيْن ببعضنا البعض إنسانياً وثقافياً ومعرفيا في ميادين مختلفة لايُمكننا تجاهلها، أو إغماض عقولنا عنها، لأنها مؤثرة في تشكيل صورتنا، وصورة حياتنا وتطَوُّر مجتمعنا في النهاية.

هل تكون جذورِ الهُوية سابقة لوَعينا بها؟ أم العكس؟ هُويةُ كلِّ واحدٍ منا لا تبدأ بالتشكل معَ مجيئنا إلى هذا العالم. بعض جذورِها الأوليّة نرثها جينياً من الوالدين، ولعلهما قد وَرِثاها من الأجداد والأسلاف، ثم أورثانا إيّاها: لون البشرة ربما، سِمات الوجه، بعض الطبائع، وحتى بعض الأمراض التي قد تستيقظُ فينا مُبَكِّراً أو فيما بعد. وما أنْ نهبطَ من أرحام أمّهاتنا، مأوانا الدافئ القديم، إلى هذا العالم، تكون بانتظارنا أقفاصٌ هُوِيّاتيّة أخرى: الهُويّات الدينية والمذهبية، الهويات العرقية، الهويات القبلية، وحتى الهوية الوطنية أيضاً. أسَمِّيها أقفاصاً لأننا لم يكن لنا رأيٌ فيها، ولم نختَرها كذلك، ومنها تلك الأسماء التي اختارها لنا الآباء لتصبح، في النهاية، جزءاً من هويتنا، خاصة تلك التي تبدأ بكلمة "عبد" مُلحقٌ بها اسم من يؤمنُ الأهلُ بأنه أحد القديسين.

إضافةً إلى الهُوية الاجتماعية الفردية هناك هُويات جماعية مختلفة: الهوية الوطنية، أحياناً يُطلَق عليها هُوية الأمة، الهويات الدينية، ومنها نشأت الهويات المذهبية أو الطائفية، الهويات الأيديولوجية والثقافية، الهويات الطبقية والهويات السياسية والحزبية.

مفهوم الهوية الوطنية لم يظهر إلاّ مع نشوء الدولة القومية، أي دولة الأمة، خاصةً في أوربا عَقِبَ تَفَكُّكِ الإمبراطورية الرومانية المقدسة وانهيارها في القرن الثامن عشر، وذلك بالتزامن مع انطلاق الثورات الديمقراطية الأولى ضد الإقطاع وحليفته الكنيسة الكاثوليكية آنذاك. حينها فقط بدأ الناس يبحثون عن إجابة على سؤال: ما الذي يُشَكِّلُ هويةَ شعبٍ ما، ودولة ما؟ وحدثَ الاهتداء إلى إجابة ترى أنَّ ما يَصح للإنسان الفرد من حق باتخاذ قراراته وخياراته الخاصة ذاتياً، ومعرفة نفسه بنفسه، وتطويرها وتقرير مصيرِها، يَصِحُّ أيضاً للشعوب التي تريد آمتلاكَ مصائرها وتشكيلها بنفسها.

وقد حدثَ أن استُخدِمَ مفهومُ الأمة دينياً أيضا، حيث نُسِبَتْ جماعاتٌ وشعوبٌ مؤمنة إلى أنبيائها، فكان ثَمَّةَ حديث عن أمَّة موسى، وأمَّة عيسى وأمَّة محمَّد وغيرها.

أهَمُّ سمات الهُوية الوطنية، أيْ هوية الأمة الجامعة: الثقافة الوطنية المُشتركة، الوعي الوطني، التاريخ الوطني المُشتَرَك، اللغة والرموزِ الوطنية. وهذه الهوية الوطنية تعني أنَّ أولئكَ المواطنين الذين اختاروا، أو وجدوا أنفسهم يَحيَون في ظل الدولة الوطنية وقوانينها والعقد الاجتماعي المُبرَم بينهم وبينها، لديهم وعيٌ بانتمائهم لبعضهم البعض، وأنهم أبناء مجتمع وطني واحد. وهذا الوعي لا يتعارض مع انتماء جماعات منهم لهوية فرعية أخرى: دينيةً أو إثنيةً، أو مذهبيةً كانت، أو من غير هذه وتلك.

تاريخ الهويات الفرعية في العراق

للهويات الثانوية أو الفرعية في العراق تاريخ طويل، سَبَق بقرون طويلة أسلَمَة العراق عَقِبَ ما صار يُطلَق عليه، في التاريخ الإسلامي،

غزوُ البلدان أوفتحها لدين الله الجديد، حيث فُتِح العراق في النصف الأول من القرن السابع الميلادي. هذه الهويات هي هويات أهل العراق الأوائل من مسيحيين وصابئة مندائيين، وكرد وإيزيديين، وكذلك يهود جيئَ بهم، مثلما يذكر مؤرخون، أسرى إلى بابل إبّان حكم نبوخذ نُصَّر لها. فجأةً أصبح هؤلاء، بعد الفتح الإسلامي، غرباء في موطنهم الأصل، أو فيما أصبح موطناً لهم لقرون عديدة، كما في حالة اليهود. أصبحوا "أهلَ ذِمَّة" يتمتعون بالحماية والأمان مقابل دفع الجِزية للحكم الجديد. ويتجلّى هذا في الآية 29 من سورة التوبة، والتي تقول: "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخِر ولا يُحَرِّمونَ ما حَرَّمَ ٱللَّهُ ورسُولُهُ، ولا يَدينُون دينَ ٱلحَقِّ منَ الذينَ أُتُوا الكتابَ حتَّى يُعطُوا ٱلجزيَةَ عن يَدٍ وهُمْ صاغِرون"، أيْ يدفعونها عن قَهرٍ وطاعةٍ، وهم مُنقادونَ أذِلاَّءَ لحُكم الإسلام.

أهل العراق القدامى، مِمَّن أصبحوا أقلياتٍ بمرور الأزمان، ظلُّوا، وحَسَناً فعلوا، يُحافظون، رغم وطأة الأحوال، على هُوِيَّاتهم التي ما يزال يُطلَقُ عليها توصيفُ هُوياتٍ فرعية، حتى في زماننا هذا.

الهُويات المذهبية، سُنِيَّةً كانت أو شيعيَّةً، تمتدُّ جذورُها الأوليَّة إلى بَدءِ النزاعات بين صحابة الرسول عَقِبَ وفاته مباشرةً، وحتى قبل آنشغالهم بغسيل جثمانه وتشييعه ودفنِهِ. مسرحُ هذا النزاع بين الأنصار، (أهل المدينة من الأوس والخزرج)، وبين المهاجرين من قريش، شَهِدتهُ، كما هو معروف، سقيفةُ بني ساعِدة. وحينها لم يكن لبني هاشم حضورٌ مباشر في هذا النزاع. كان هناك مُشايعون، أيْ مُناصرون، للإمام علي بن أبي طالب، أغلبُهُم من فقراء المسلمين، ومن الموالي مِمَّن كانوا عبيدا في بيوتات أرستقراطية قريش وقبائلِ عرب شِبه الجزيرة العربية آنَذاك.

مصطلحُ (الشيعة) الذي يعود، في الأساس، إلى هذه المُشايعة للإمام علي، صار يُطلَقُ، فيما بعدُ، وخاصة في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، على المذهب الشيعي الذي نعرفه اليوم. وقد تناوب على إرساء أُسُسِه الفكرية والفقهية والشرعية، أو ما أصبح يُسَمَّى عقائد الشيعة الإمامية، أربعةُ علماءِ دين، ثلاثةٌ منهم إيرانيون: ابن بابويه القُمِّي، الكليني والطوسي، ويعود إليه تأسيسُ حوزةِ النجف العلمية. أما الرابعُ فهو العراقي، المتأثر ببعض آراء المعتزلة ومقولاتهم، الشيخ المفيد.

الهوية العراقية والدولة الحديثة

لم يبدأ المخاضُ العسير لِتَبَلْوُر هوية وطنية عراقية إلاَّ بعد سقوط الدولة العثمانية وغروبِ سلطنتها، وإعلان العراق، في عام 1922، مملكةَ هاشمية في ظِلِّ سلطة انتداب بريطانية. عُسْرُ ولادةِ دولةِ أمَّةٍ عراقية لها، ولشعبها هويةُ أمةٍ واحدة، يُجمِعُ عليها، ويعيشُ في ظِلِّها العراقيون جميعاً، كما كانَ يحلمُ الملك فيصل الأول، يُعزى في تقديري، أولاً: للإشكاليات الهُويّاتية العديدة التي تعيشُها مُكَوِّنات البلد الدينية، والمذهبية والإثنية أساساً. وثانياً: إنَّ عملية ولادة هذه الأمة، واستيلادِ هُويةٍ وطنية جامعةٍ لشعبها، تَولتهما مُوَلِّدَةٌ أجنبية محتلة ذات مقاصد كولونيالية.

هناكَ دراسةٌ هامة، في رأيي، للدكتورة دينا خوري، أستاذة التاريخ والشؤون الدولية في جامعة جورج واشنطن، في الولايات المتحدة الأمريكية، أتاحَ لي فرصة الإطلاع عليها الصديق الدكتور هاشم نعمة. تتناول الدراسة التي تحمل عنوان (بين الإمبراطوريات

والأمة: ذكريات الحرب الكبرى)، إشكاليات هذه الولادات العسيرة في العراق. المقصود بالحرب الكبرى هنا، الحرب العالمية الأولى، وسقوط السلطنة العثمانية "المسلمة!"، واحتلال العراق، في سياقها، من قِبَلِ بريطانيا العظمى، ثمَّ مجيئها، فيما بعد، بعائلة ملكية مستوردة من خارجهِ تتولى حُكمَهُ وتسييرَ أموره باشراف بريطاني مباشر.

بداياتُ تشكيل الأمة العراقية، والبدءُ بصياغة الهوية الوطنية، ارتبطا، مثما ترى الباحثة، بثورة العشرين. وهي ثورة أفتَتْ بها، ودعتْ إليها مرجعياتٌ دينية شيعية، في الأساس، ودعمتها مرجعيات الطائفة المسلمة الأخرى كذلك. البعدُ المذهبي لم يكن غائبا عنها، ولعله كان الأبرزَ فيها. رفعَ المنتفضون الشيعة، في حربهم ضد الغزو البريطاني (راية حيدر)، دفاعاً عن دولة الإسلام في مواجهة الكفار، وكانوا يرددون في قتالهم ضدهم: "حيدر يا عِزْنا وسورْ الْنَه"[5]. وهذا ما يشيرُ إلى غيابِ أيِّ إجماع وطني على مفهوم ومعنى الهوية الوطنية العراقية آنَذاك. وهو ما لم يتحقق بالصيغة المُرتجاة، كما أرى، حتى خلال فترة الحكم الملكي (1922 - 1958).

لقد أتيح لي، صدفةً، أن أتابعَ، قبل أسابع، مقطعا من حوار مع السفير البريطاني في العراق، منقول من إحدى الفضائيات هناك، أكَّدَ فيه أنَّ العراق لم يكن دولة مستقلة حقاً، حتى بعد قبوله عضوا في عصبة الأمم، مطلع ثلاثينيات القرن الماضي. وذكر الرجلُ، في سياق حديثه هذا، ما كان معروفاً للعراقيين حينذاك، أنَّ المستشارين البريطانيين كان حاضرين في كافة وزارات الدولة العراقية، ولهم الكلمة الفصلُ فيها. كان آخر ما أصغَيتُ له منه قولهُ: "العراق أصبح مستقلاً حقاً مع ثورة 1958".

جاءت ثورةُ تموز، في تقديري، بثورة وعي وطني معها، شَمِلَ غالبية العراقيين، ومنهم من ظِلُّوا أسرى فكرة الهُويات الفرعية. الهوية الوطنية تشترط تَحَقُّقَ هذا الوعي الوطني كَيْ تتحقَّقَ هي بدورها أيضاً. سلسلة القوانين التي تولَّى صياغتها خبراء دستورٍ وقانون معرفون، شرعت حكومة الثورة بعد شهورٍ قليلة من تشكيلها، بإصدارها واعتمادها قواعدَ أساسية للقضاء العادل والحكم الرشيد الصالح. تَمَّ إلغاء قانون دعاوى العشائر، وتشريع قانون الأحوال الشخصية رقم 188 لعام 1959، وقانون تأميم النفط. والخروج من حلف بغداد البريطاني اللون والنزعة، ومغادرة منطقة آلاسترليني، وكذلك تشريع قانون الإصلاح الزراعي الذي مَهَّدَ السبيل لتحرير الفلاحين المعدمين من سطوة الإقطاع واستغلاله ومظالمة، وإنهاء آغتراب الفلاح عن أرضه، وحتى عن وطنه. ثمَّةَ قولٌ بليغٌ يُنْسَبُ لأبي الحسنَين، الإمام علي بن أبي طالب، يَرِدُ فيه: "الفقر في الوطن غربة، والغنى في الغربة وطن". وكان من الغريب، في حينها، أنْ تُصدِرَ المرجعية الدينية فتوى ترى فيها أنَّ هذه الأرض أرضٌ مُغتَصَبَة، وتُحَرِّمُ على أهلِها الفلاحين الصلاةَ عليها! كنت، في وقتها، صبياً عايشَ ظلمَ الشيوخ لأهله، وابتهجَ لرؤيتهم يواصلون الصلاةَ على أرضهم، رغم تبجيلهم لمرجعيتهم الدينية. كان خُمسُ أهلي وزكاتهم وفقرُهم وعَوَزُهم وجوعُهُم، وأمراضُهم أيضاً، أمّا خُمسُ الإقطاعي وزكاته فكان المالُ الوفير، وهو مالٌ أنتجَهُ له عَرَقُ الفلاحين وكَدُّهم في أرضهم!!. هذه التشريعات، وأخرى سواها، هي من تَحَقَّقَ بها ومعها استقلالُ العراق الحقيقي، وهويته الوطنية في تقديري.

إلغاء اعتبار حدَثِ 14 تموز عيداً وطنياً

والتشريع لأعياد أخرى ذات جوهرمذهبي خالص، ووضعها في خانة الأعياد الوطنية، ومحاولة تعديل قانون الأحوال الشخصية، ومخاطر ذلك، ليس على المرأة والطفولة وحقوقهما فحسَب، وإنما بتكريسه للقسمة الطائفية في المجتمع، وتديين الدولة وسياساتها وقوانينها وسلطة قضائها، هو ما يؤدِّي، في آخر المطاف والطواف، خاصةً في بلد متعدد الأديان والمذاهب والإثنيات، إلى محوِ الذاكرة الوطنية المُشترَكة عبرَ الإحلالِ التدريجي لذاكرة ثقافية طائفيةِ العقل والروح مكانها، في النهاية. ثقافةُ هذه الذاكرة هي ثقافة الطاعة العمياء، وديمقراطيتُها هي ديمقراطية المساواة في العبودية. والهُويةُ التي تؤَسِّسُها لأتباعِها تظلُّ هُويةً مغلقةً على نفسها، تحرصُ على بناء جدران ثقافية وفكرية عالية بينها وبين ما هو وراء هذه الجدران. طبيعة هذه الهوية أنها رُوِّضِت على الاطمئنان لما هو جاهزٌ من أفكارٍ، ظلَّ وعيُها يَتغَذَّى عليها، ويُعيدُ اجترارَها داخل الحدود التي وضعها له سادته، بحيث لم يعرف آفاقاً ومعارف أخرى خارجها. وهذا ما يُؤّكد حقيقة أنَّ الهُويات المغلقة ينتجها عقلٌ مغلَق وعقيم، يُفَرِّخُ هو بدوره عقولاً عاطلة. وأصحاب العقول المُعَطَّلة يصعُبُ عليهم أن يهتدوا إلى حقيقة أنَّ استقلاليةَ أيِّ انسان، ذكَراً كانَ أو أنثى، هي ما تجعلُ أحدَنا حُرّاً، سَيِّدَ نفسِهِ وسيِّدَ عقلِهِ، مالكاً لُهويتِهِ وخصوصيته، مُدركاً لمعنى وجوده وحياته. الخروج من أيةِ دوائر تجهيلٍ فكري مُغلقة يشترطُ، في الأساس، فكرياً إدراكي بأنَّ عقلي سجينها.

تديينُ السياسة، وكما أظهرت لنا تجارب التاريخ في الماضي والحاضر، لا يُفضي لغير الإساءة للإثنين: السياسة والدين، وتوظيف الأخير للسطوة على الناس، وآمتطاء ظهورهم باسم المُقدَّس، حيث يُصبح المقدس أداةً للظلم وتعطيل العقول، وعباءةً تغطي على الفساد، والسطو على المال العام، والإمساك بحبال الناس وتدجينهم وتجهيلهم. كُلُّ هذا يعيشه العراق والعراقيون منذ عشرين عاما في الأقل.

الإشكالية التي تعيشها الدولة العراقية والمجتمع العراقي، والهوية الوطنية العراقية، لا تكمن في تعدد الهويات الفرعية فيه: دينياً، قومياً ـ إثنياً، فكرياً، سياسيا وقبلياً. هذه التعددية تعيشها غالبية بلدان العالم، وتتعاملُ معها بعقلانية، وفي إطار عقدٍ اجتماعي حديث وإنساني يضمن مساواةَ الجميع بالحقوق نفسها، ونظام حرياتٍ يجعل من تنوع الثقافات والأديان والأفكار نعمةً وبركةً على مجتمعاتها، ومصادر إغناء وتطويرٍ معرفي لها.

هذا التنوع الثقافي لا ينبغي أن يكون، مثلما هو الحالُ عندنا، تنَوُّعَ جُزُرٍ منفصلة عن بعضها، منغلقة على نفسها، مسكونة بروح الكراهية لبعضها البعض، ونوازع الثأر والانتقام لأحداثٍ ومَقاتلَ عاشها الأسلافُ في ماضٍ بعيد، لا أحد منا شارك فيها، أوكانشاهداً أو حتى متفرجاً عليها. ولكنَّ بعض ساسةِ العراق المتنفذين ما زالوا يعودون، من حين لآخر، لإيقاد حطَبِ الكراهية في نفوس أتباعهم، مُذَكِّرين إياهم بجيش يزيد وجيش الحسين. ألم يكنِ الأجدرُ، بمثل هؤلاء الساسة، أنْ يتمَثَّلوا حكمةَ الإمام علي بن أبي طالب وانسانيتَه، وحرصَهُ المذهل على دماء المسلمين، حتى من عاداه منهم، ويعودوا لتصَفُّح (نهج البلاغة)، وإعمالِ الفكر في قولة له، وقد سَمِعَ جمعاً من أصحابه يَسبُّون أهل الشام أيامَ حربهم بصِفين : "إنِّي أكرهُ لكم أنْ تكونوا سَبّابين، ولكنكم لو

وصفتم أعمالَهم، وذكرتم حالَهم، كانَ أصوبَ في القول، وأبلَغَ في العُذرِ، وقلتم مكانَ سَبِّكُم إيّاهم، أللهُمَّ آحْقِنْ دماءنا ودماءهم، وآصلِحْ ذاتَ بَيْنَنا وبَينَهم، وآهدِهِم من ضلالَتِهم، حتى يعرفَ الحقَّ من جَهلَه، ويرعوي عن الغَيِّ من لَهِجَ به"[6].

إنَّ الأوطانَ يصنعها الاجتماع البشري، وفكرة الإجماع الوطني، يا ساسة بؤس هذا الزمان، وليس عسكرة المجتمع والأفكار والحياة دينيّاً وطائفياً وإثنياً تمضي بالعراق وأهله إلى الهاوية، حيث يضيع الدين، وتضيعُ السياسة التي يُفتَرض فيها، ويُنتَظَرُ منها أن تؤدِّي دورها في بناء البلد والحياة والثقافة والعلوم فيه. إشكاليةُ الهويات الفرعية في العراق، الطائفية منها خاصة، تكمن، أساساً، في عسكرتها وانغلاقِها على نفسها، بحيث أصبحت أشبهَ بزنازينَ للمنتمين لها ولعقولهم.

وهنا يغدو التعددُ الهُويّاتي أزمةً بنيوية على جميع الصُعُد: وطنياً، إجتماعياً، ثقافياً وسياسياً، وعلى مستوى الأفراد والجماعات أيضاً. وهي أزمةٌ يغيبُ فيها التواصل والتفاعل، وتلاقُحُ الأفكار الحيّ والمُنتج، بين أبناء وأطياف المجتمع الواحد.

غيابُ تفاعل الأفكار وجدلُها العقلاني الحَيّ هذا يُمَثِّلُ فقداناً موجعاً لمصدرٍ فكري يُمكن له أن يُسهِمَ في إغناء ثقافات البلد وتطويرها.

ومنذ عام 2003 أصيبَ العراق ببلاء آخر تَمَثَّل بظهور "ارستقراطياتٍ!" سياسية ومذهبية وقبلية، أوهمَتْ نفسها بأنها أُلِمَّت بمعارفِ الأرض والسماء، وغَدَتْ، وحدها، موطناً للحقائق جميعها، المُطلَق والنسبي منها، وأنها طوقُ نجاةِ العراق وتقدُّمِه. ولكنَّ أرستقراطيي الجهل والتجهيل والفشل هؤلاء عجزوا عن أنْ يفقهوا بأنَّ التشدُّدَ، بمختلف صُوَره وتجلياته: دينياً، طائفيا أو قومياً، ما هو إلاَّ وَرَمٌ شيطانيٌّ خبيث، لن يودي بالمجتمعات التي تَمكَّنَ من فرض سطوته عليها لغير الهلاك. وها هو العراق وأهلُه يعيشون معهم، طوال ما يزيد على عشرين عاما، في الماضي يُصغونَ لأصوات الموتى فيه، أكثر مما ينشغلون بأصوات الحاضر وحاجاته وتحدياته.

خسارةُ الحاضر، وهو يواصل رحلةَ ضياعه، تعني فقدان المستقبل كذلك. صناعةُ المستقبل، في المجتمعات الحية، تبدأ في الحاضر.

وخسارة الحاضر والمستقبل تعني فقدان التقدم، أي خسارة الحياة.

وهذا يحث في عصرٍ تتقدمُ المجتمعات الحية بسرعة غير معقولة.

وعندها لا يظل لمجتمعٍ مثل مجتمعنا سوى البقاء على هامش التاريخ.

الهوامش

(1) القاموس الفلسفي، جيورج كلاوس ومانفريد بور، المعهد البيليوغرافي، لايبزج،1979، ص 593.

(2) هيراقليطس، كتاب قراءات الفلاسفة، مجموعة مؤلفين، دار نشر ديتس، برلين 1988، ص 116.

(3) ماكس فيبر، العقلانية وعالم يصحو، دار نشر ريكلام، لايبزيج، 1989، ص 3.

(4) المصدر نفسه، ص 51.

(5) دينا خوري، "بين الإمبراطوريات والأمة: ذكريات الحرب الكبرى والهوية الوطنية العراقية"، أسطور، العدد 21، تموز| يوليو 2024، ص 1.

(6) نهج البلاغة، دار البلاغة، بيروت، 1989، ص469.

موقف الحزب الشيوعي العراقي من الزعيم عبد الكريم قاسم

معاذ محمد رمضان
باحث في تاريخ العراق المعاصر

يحفلُ هذا الموضوع بأهمية خاصة، فالحديث عن تلك الحقبة لا زال مستمراً، وسيبقى كذلك على ما نعتقد، والعِلة أنها كانت حقبة استثنائية، فقد سقط النظام الملكي العراقي سقوطاً مدوياً وقتها، وقام بعده نظام آخر مغاير، اذ قامت الجمهورية مكان الملكية التي حفرت قبرها بيدها كما أثبتنا في دراسة صدرت لنا [1]. وبعد قيام الجمهورية بدأت هذه الحقبة التي وصفناها بـ "الإشكالية" بسبب تداعياتها الداخلية والخارجية أيضاً، فقد أحدثت زلزالاً مدويّاً، لتحتل مكانة خاصة في الصراعات الدولية آنذاك[2].

سنُسلّط الضوء، في هذا المقال، على موقف الحزب الشيوعي العراقي من الزعيم عبد الكريم قاسم، لما يحتله هذا الموقف من أهمية، فقد كان هذا الحزب خير معين للثورة وزعيمها، وبقي كذلك الى أن لقي الزعيم حتفه على يد الانقلابيين في 8 شباط 1963، رغم أنه وجّه ضربات قاسية لهذا الحزب، وهنا تبرز أهمية هذا الموضوع.

تمهيد

دخل الفكر الاشتراكي الى العراق على يد حسين الرحال، هذا الرجل الذي استمع لخطب روزا لوكسمبورغ وكارل ليبنخت[3]

وكان له دور كبير في هذا المجال ليُطلَق عليه "رائد الفكر الاشتراكي". لكنه ـ على حد قول بطاطو ـ مال الى الراحة واستسلم لحياة كسولة روتينية بعد حضوره في المظاهرة ضد السير ألفرد موند[4]. وقد أعرب في أيامه الأخيرة ـ عام 1973 ـ عن خيبة أمل عميقة[5].

يُعتبر اجتماع الحادي والثلاثين من آذار 1934 ذا أهمية رئيسة في تطور الحزب الشيوعي في العراق، فقد اتفق الحاضرون فيه على تنظيم "لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار" بقيادة عاصم فليح[6]. ويرى عزيز سباهي أن تأسيس الحزب قد تم في النصف الثاني من عام 1934، وأخذ شكله النهائي بعد عودة

عاصم فليح في آب 1934[7].
اضطلع فهد بعملية بناء الحزب وفق المبادئ اللينينية بعد عودته الى العراق في 31 كانون الثاني 1938، يقول سالم عبيد النعمان: لقد كانت عملية البناء هذه صعبة ومعقدة لا يقدر عليها إلا أولئك الرجال الموهوبون من الذين يتحلون بعزيمة راسخة ومبدئية عالية تصمد أمام المحن والصعاب وتتغلب عليها، وكان يوسف سلمان يوسف (فهد) الموهوب تتوافر فيه كل مؤهلات القيادة والمبدئية العالية، لقد تفاعل فكره الماركسي اللينيني مع واقع الحياة العراقية وواقع أوضاع بلدنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية[8].
ويذكر يوهان فرانزن: يقاد فهد الحزب بقبضة من حديد حتى إعدامه شنقاً في عام 1949، وتحت قيادته أصبح الحزب حزباً سياسياً من نوع جديد، وقد أدخل جهازه الحزبي والسري نمطاً جديداً للتنظيم السياسي في العراق، والذي كان في العقود المقبلة نموذجاً للنجاح[9].
كانت نهاية فهد وزميليه زكي بسيم وحسين الشبيبي [10] على يد حكومة نوري السعيد، فقد تم اعدامهم شنقاً فجر يومي 14 و 15 شباط 1949، فقام النظام الملكي بدق المسمار الأول في نعشه بتنفيذ هذه الأحكام[11].
لم تكن الضربة التي تلقاها الحزب الشيوعي بالهينة، وقد تسلّم بهاء الدين نوري قيادة الحزب في حزيران 1949، يقول د. طارق يوسف إسماعيل عنه: شاب كردي عديم الخبرة كان يستخدم اسماً مستعاراً ''باسم'' ويبلغ من العمر 22 عاماً لم يكمل دراسته الثانوية.. لقد صعد بهاء الدين نوري الى قمة قيادة الحزب في أقل من أربع سنوات على انضمامه للحزب، وسرعان ما بدأ عملية إعادة تنظيم وهيكلة على كل المستويات[12].
ويقول فرانزن: وعلى الرغم من صغر سنه وقلة خبرته الثورية، فقد أثبت بهاء نوري أنه زعيم قدير نجح في إيقاف الحزب على قدميه[13].
تم اعتقال بهاء نوري في نيسان 1953، فأحيل الى محكمة عسكرية قضت عليه بالسجن المؤبد في تموز 1953، فشكّل عبد الكريم أحمد الداود القيادة، ثم تسلّم حميد عثمان القيادة في 16 / 6 / 1954[14].
يصف صلاح الخرسان قيادة حميد عثمان: تميزت قيادة حميد عثمان بالدعوة الى تصعيد المجابهة مع السلطة وذلك بالدعوة الى الإضرابات العامة واللجوء الى الكفاح المسلّح، وهي أساليب مستوحاة من أفكار الزعيم الصيني ماوتسي تونغ [15].
حاسبت اللجنة المركزية حميد عثمان على قضايا عدة أبرزها النهج الفردي، وتقرر تنحيته عن سكرتارية اللجنة المركزية في حزيران 1955 وانتخاب سلام عادل لها[16].
ولسلام عادل دور كبير في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي ، يذكر د. طارق يوسف إسماعيل: برز الحزب الشيوعي العراقي تدريجياً بشكل أكثر وضوحاً كحزب معتدل وموحد سياسياً الى حد كبير بفضل جهود حسين أحمد الرضي ''سلام عادل''[17].
ويقول د. عبد الحسين شعبان: يمكن القول ان من اهم إنجازات سلام عادل هي تمكنه من استعادة وحدة الحزب وتجميع قواه، خصوصاً بقدرته على استيعاب التنظيمات المختلفة وضمّها الى الحزب مُشخصاً النواقص والأخطاء لدى جميع الفرقاء[18].
تزامن صعود سلام عادل مع أحداث خطيرة على الساحة العراقية، فقد تشكلت حكومة

المراسيم السعيدية من أجل خنق المعارضين وعقد الأحلاف الاستعمارية[19]، ثم قيام العدوان الثلاثي على مصر، وقد كان موقف الحكومة السعيدية مخجلاً ، اذ كانت في الظاهر مع مصر، وفي السر مع بريطانيا وضرب عبد الناصر[20]. وقد كان عام 1956 مهم في حياة العراقيين، فهو بمثابة التمرين الأخير الذي سبق ثورة 14 تموز 1958 كما أشار صالح مهدي دكله[21].

المحور الأول: موقف الحزب من قيام الثورة الى أحداث كركوك في تموز 1959

كان للحزب الشيوعي دور في انبثاق جبهة الاتحاد الوطني عام 1957 التي هيأت الجماهير لاستقبال ثورة 14 تموز واحتضانها[22]، وكان له دور في الاعداد والتحضير للثورة عبر اتصالاته مع الضباط الأحرار وخصوصاً عبد الكريم قاسم عن طريق رشيد مطلك ، وقد بدأت هذه الاتصالات في صيف عام 1956 عندما ارسل عبد الكريم قاسم رشيد مطلك الى الحزب الشيوعي ليخبره عن عزمه الإطاحة بنظام الحكم الملكي[23]. وقد كان له دور أيضاً في تأمين الدعم الخارجي للثورة من خلال سلام عادل ووعد الزعيم السوفيتي نيكيتا خروشوف بوقوف الاتحاد السوفيتي مع الشعب العراقي في ثورته [24].

وكان أغلب أفراد اللواء التاسع عشر والعشرين ينتمون الى الحزب الشيوعي، وكان للضباط الشيوعيين الذين تسلمّوا أوامر من الحزب مساهمة فعّالة في اليوم الأول للثورة[25].

وقد أرسل الحزب الشيوعي برقية تهنئة الى قيادة الثورة مُوقعة من قِبَل سلام عادل.

بغداد ـ مجلس السيادة للجمهورية العراقية
رئيس مجلس الوزراء السيد عبد الكريم قاسم
نهنئكم من صميم قلوبنا على خطواتكم المباركة التي وضعت نهاية حاسمة لعهد طويل من المآسي والمحن... ان اللجنة المركزية لحزبنا الشيوعي العراقي تضع قوى الحزب الى جانب مؤازرتكم وللدفاع عن جمهوريتنا البطلة.

سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي
14 تموز 1958[26].

ثم أرسل الحزب برقية أخرى في اليوم التالي فيها تأكيد على ضرورة المحافظة على النصر السريع المتحقق، مع ذكر أمثلة للاعتبار بها في لحظات نشوة النصر[27].

لكن حدث ما لم يكن متوقعاً ، فقد تم استبعاد الحزب الشيوعي من المشاركة في حكومة قاسم الأولى، يذكر عزيز سباهي: رغم أن الحزب الشيوعي قد لعب دوراً كبيراً في النضالات التي مهّدت الى الثورة ... برغم هذا كله فقد استُبعد عن المشاركة في السلطة دون أن يكون هناك سبب جدّي لهذا الموقف سوى نزوع البورجوازية الوطنية على اختلاف فصائلها الى الاستئثار بالحكم والتردد في اطلاق طاقات الجماهير والقوى الراديكالية فيها ولا سيما الحزب الشيوعي ، جرياً على تقاليد البورجوازية في كل مكان، وتقاليد البورجوازية الوطنية في العراق بالذات[28].

ويقول د. مناف الخزاعي: استُبعد الحزب الشيوعي من المشاركة في الحكومة على الرغم من أنه كان أقوى الأحزاب وأوسعها نفوذاً وأكثرها تأثيراً في جبهة الاتحاد

الوطني، وعُد تعيين إبراهيم كبة ممثلاً عن الحزب الشيوعي وناطقاً باسمه، على الرغم من أنه لم يكن شيوعياً وإنما كان ماركسياً مستقلاً [29].

لم يتسبب هذا الموقف غير المبرر سياسياً - بحسب سباهي - في نكوص الحزب عن مساندة الثورة أو فتوره على الأقل في دعمها، وبسبب هذا الاستبعاد، فقد عزم الحزب على مدّ نفوذه بين الجماهير [30].

وفعلاً فقد ساند الحزب الثورة مساندة فعّالة، وطالب في بيانه الأول بتشكيل قوات المقاومة الشعبية، تقول بشائر المنصوري: يمكن عد الضغط الشيوعي العامل المباشر الأكثر تأثيراً على الزعيم عبد الكريم قاسم لتشكيل المقاومة الشعبية [31].

ما ان نجحت الثورة وقضت على النظام الملكي، حتى انتهى السبب الذي كان جامعاً للقوى المؤتلفة، فبرزت الخلافات على السطح، وكانت خلافات قاتلة أدت الى انتكاس الثورة لاحقاً.

بدأ الخلاف بين قائدي الثورة، عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف حول الوحدة الفورية مع العربية المتحدة، ولا نريد الآن التوسّع في هذا الموضوع فقد ناقشناه في موضع آخر، وأثبتنا أن الطرف القومي لم يكن صادقاً بضجيجه حول الوحدة[32]. ما يهمنا الآن هو "موقف الحزب الشيوعي" من الصراع الدائر بين القائدين، أو بالأحرى بين قاسم والقوميين.

إلتزم الحزب الشيوعي جانب قاسم في هذا الصراع، وكان له دور في كشف البرقية التي أرسلها عارف الى عبد الناصر في 18 آب 1958، وقد نصت هذه البرقية على نية عارف اعلان الوحدة حتى وان كلفه ذلك حياته، وأنه سيقضي على قاسم ان وقف بوجه هذه الفكرة. يقول الخزاعي:

لقد كان للحزب الشيوعي الدور الواضح والأساس في كشف البرقية ونقلها الى قاسم من خلال زغلول عبد الرحمن مسؤول المخابرات في سفارة الجمهورية العربية المتحدة في بغداد الذي سلّم صورة من البرقية الى عزيز شريف الذي أوصلها بدوره الى قاسم[33].

انتهى المطاف بعارف الى اعفائه من منصب معاون القائد العام للقوات المسلحة، ثم الى اقصائه نهائياً بتجريده من كافة مناصبه في 30 أيلول 1958[34].

وقد كان للحزب الشيوعي الدور الواضح في كشف محاولة انقلاب رشيد عالي الكيلاني، حيث كان أول من نبّه الى وجود مؤامرة تُحاك من قِبَل الكيلاني، وسيتم تنفيذها يوم 28 تشرين الثاني 1958، وأكّد الحزب مرة أخرى يوم 5 كانون الأول 1958 معلناً عن وجود مؤامرة يديرها بعض القوميين بالاتفاق مع بعض رؤساء العشائر، وأن تنفيذها تأجل الى يوم 7 كانون الأول 1958[35].

كانت محاولة انقلاب العقيد عبد الوهاب الشوّاف 8 آذار 1959 من أبرز وأخطر الأحداث التي شهدها عهد الزعيم من حيث الصدى الإعلامي الذي احتلته، وقد كان للحزب الشيوعي الدور الواضح والمتميز في كشف وإجهاض المحاولة[36].

تبين الآن الموقف، فقد أثبت الشيوعيون انهم خير ظهير لقاسم في نزاعه مع القوميين[37]. ولكن ما هو موقف الزعيم هنا؟ يقول بيتر سلوغلت: لقد وجد قاسم نفسه مضطراً للاعتماد كلياً تقريباً على دعم الجماهير في وضع كانت فيه تلك الجماهير

متعاطفة مع اهداف ومبادئ الشيوعيين أكثر من أي مبادئ أو حزب آخر. ولقد فرض الأمر الواقع نفسه على قاسم فوجد أن لا خيار له سوى اجراء ترتيب مع الشيوعيين، وهو ذلك الترتيب الذي كان حماسه له فاتراً بشكل واضح بسبب كونه اصلاحياً وليس ثورياً[38].

ويذكر د. البوتاني: اضطر قاسم وجهاز حكمه الاعتماد على الشيوعيين، فاستعان بالحزب الشيوعي وجماهيره الواسعة لتوفير غطاء جماهيري وإيجاد سند يحميه من التيار القومي ، وقد أسهم الحزب الشيوعي في توفير هذا الغطاء وتقديم الدعم الكامل لقاسم دون شروط مسبقة مدفوعاً بتفضيل الطابع الوطني للحكم على المستلزمات الضرورية الأخرى التي كان يترتب عليه ان يفرضها على قاسم لقاء دعمه له ... اذن نظام حكم قاسم لم يتعاون مع الحزب الشيوعي ويفتح له أبواب النشاط بدافع من اعتراف بشرعية هذا النشاط او لقناعته بأن الحزب وطني يجب أن يتمتع بحقوقه كاملة ، بدليل حرمانه من الاشتراك في أول وزارة ، وعدم منحه إجازة العمل في شباط 1960[39].

ألا يعني هذا بأن الحزب قد "بالغ" في الدعم اللامشروط لقاسم؟ لن نستبق الأحداث الآن، وسيتضح الموقف لاحقاً.

دفعت حركة الشوّاف الحزب الشيوعي الى المطالبة بشكل صريح للاشتراك في مسؤوليات الحكم، وقد كتب سلام عادل في 31 آذار 1959 رسالة الى الزعيم جاء فيها:

الأخ الكريم
تحية طيبة وتقدير
نود الإشارة فقط الى الفعالية المشرفة التي قام بها حزبنا بكل نكران ذات وأمانة وإخلاص. لقد برهنت الأحداث كلها بضرورة وأهمية تضامننا بشكل أوثق مما هو عليه الآن مع سلطات الجمهورية ومعكم شخصياً، ولكن المؤسف للغاية ان لا توجد بيننا حتى الآن رابطة تتناسب مع عظم مسؤولية الأوضاع بشكل يسمح فيه ابداء وجهات نظرنا في المسائل الوطنية المختلفة اليكم بصورة مباشرة وفي الأوقات المناسبة... نقول بأسف شديد اننا لا زلنا حتى الآن ضحية التمييز بين القوى الوطنية وأن الفرص المتاحة لحزبنا هي أقل بكثير مما تستوجب مصلحة الجمهورية اتاحتها لنا[40].

وقد وصف قاسم في معرض رده على سلام عادل الحياة الحزبية بأنها رجس من عمل الشيطان كما ذكرت ثمينة ناجي يوسف وقد علّقت بالآتي: كانت تلك هي بداية الارتداد، أعقبها هجوم على الحزب الشيوعي الذي أدرك قبل غيره خطورة تلك الخطوة على الثورة وجميع القوى الوطنية دون استثناء[41].

ونتيجة لهذا الموقف المتصلب من الزعيم، أعلن المكتب السياسي للحزب الشيوعي إيقاف حملته للاشتراك في السلطة. ويذكر الخزاعي بأن الحزب قد برّر هذه الخطوة بأن خصومه سيتوحدون ضده وأن تمسكهم بالشعار سيؤدي الى حرب أهلية، ليعقب بأن تبريرات الحزب لم تكن منطقية[42]. لكن قاسم قد أقدم بعدها على اجراء تغيير وزاري في تموز 1959 ضم د. نزيهة الدليمي المنتمية للحزب الشيوعي، وأن هذا الاختيار قد جاء كتكتيك لإسكات الحزب الشيوعي بحسب الخزاعي[43].

المحور الثاني: موقف الحزب من أحداث كركوك حتى انقلاب شباط 1963

قد يتساءل القارئ الكريم عن علّة وضع أحداث كركوك كحدٍ فاصل في موقف الحزب الشيوعي العراقي من الزعيم قاسم؟ ونحن في معرض الإجابة لا بُد من التأكيد على أهمية هذه الأحداث وما أفرزته على صعيد العلاقة بين الحزب وقاسم، يقول د. صلاح الحلي: كانت حوادث كركوك نقطة الافتراق بين قاسم والحزب الشيوعي، وقد وفّر ذلك لقاسم ما كان ينتظره من أجل تحطيم قوى الحزب الشيوعي وإقصائه تماماً، فأعلن حربه ضدهم وأطلق نيرانه عليهم، وبادر الى شجب المجزرة وتعهّد بإنزال أقصى العقوبات بمرتكبيها [44].

ويذكر جرجيس فتح الله: لم يؤثر عن قاسم في خطبه وتصريحاته لهجة عنف وتهديد، لكنه بدا هنا عنيفاً جداً، وردّ فعله كان سريعاً على غير المعهود، سواء بخطبته في كنيسة مار يوسف أو في مؤتمره الصحافي أو في حديثه مع وفد الاتحادات والنقابات العمالية في 4 آب ... وفقد قاسم توازنه وانساق بعاطفة جائحة أنسته ما اعتاده من حذر وأناة[45].

فمن يتحمل المسؤولية هنا؟ يرى حبيب الهرمزي بأن الأحداث لم تكن بنت ساعتها، بل كانت مجزرة مدبرة نُفذت بحق المواطنين التركمان[46]. ويذهب مجيد خدوري الى أنها كانت محاولة من الحزب الشيوعي للاستيلاء على كركوك وإخضاعها لنفوذه[47]. وتقول وثيقة بريطانية بأن الاضطرابات قد بدأت عندما أضرم جمهور من الأكراد النار في مقهى للتركمان[48].

يتفق سلوغلت ودان وبوتاني على عدم معرفة البادئ بالاستفزاز يومها[49]. ويذهب بوتاني الى عدم وجود دليل قانوني صادر من المكتب السياسي للحزب الشيوعي أو من اللجنة المركزية للحزب في كركوك لتنفيذ مخطط مذبحة، ويرى بطاطو بأن من المؤكد على أن احداث كركوك لم تكن مدبرة من زعماء الحزب الشيوعي ولا هم قد سمحوا بها ، واللوم يقع على الأكراد المتزمتين ، وقد شارك الشيوعيون فيها كأكراد لا كشيوعيين ، وهو ما ذهب اليه فتح الله أيضاً[50]. اما القيادي الشيوعي الذي كان على رأس اللجنة المحلية في كركوك عزيز محمد، فيعطي تفسيراً للأحداث:

لم يكن يخطر في بالنا أن يحصل ما حصل ... سمعنا صوت اطلاق للنيران على المظاهرة مع عدم معرفة مصدر هذه المصادفة ... كنت في العادة أحمل مسدسي الشخصي ولكن من قبيل الصدفة لم يكن معي لكوننا لم نتوقع تفجر الوضع ولم نسع اليه ... وقد لعبت شركات النفط دوراً خطيراً بعد مطالبة الشيوعيين بضرورة تأميم الشركات النفطية[51].

وما دمنا نتحدث عن دور شركات النفط، فقد ذكرت وثيقة بريطانية مؤرخة في 18 تموز 1959 تحت عنوان "الموقف الداخلي في العراق" وفي النقطة الأولى، بأن اضطرابات كركوك لم تؤثر على المستخدمين في شركة نفط العراق والعاملين في حقول النفط[52].

الذي نراه أن أحداث كركوك قد تم تهويلها للنيل من الحزب الشيوعي، يقول الخزاعي: هُولت أحداث كركوك من قِبل أعداء الحزب الشيوعي والأكراد معاً، وشجع قاسم ذلك التهويل وتلك المبالغة لغرض كبح جماح الحزب، وليبرهن أن قيادته القوية ضرورية للحفاظ على تماسك المجتمع العراقي[53].

بعد خطاب الزعيم المدوي في كنيسة مار

يوسف يوم 19 / 7 / 1959، أصدر الحاكم العسكري العام أوامره باعتقال المتسببين في حوادث الموصل أثناء حركة العقيد الشوّاف، وحوادث كركوك، ليقول الخرسان في كلمة دقيقة مؤثرة:

وبذلك دخل الشيوعيون لأول مرة في سجون العهد الجمهوري ولما يمضي على سقوط الملكية غير عام واحد[54].

عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي اجتماعاً موسعاً في 15 تموز 1959، وصدر عنه تقرير شامل بالنقاط التي توصل اليها في 29 آب 1959 ، يقول سباهي: لكن موجزاً لهذا التقرير صدر في 3 آب 1959، وهو من وضع عامر عبد الله ، وكان هذا الموجز سيء الصياغة على حد وصف محمد حسين أبو العيس ، شدد على أخطاء الحزب وبرّزها دون أن يراعي الظروف التي جاءت فيها هذه الأخطاء ، ودون أن يأخذ في الاعتبار ما استجد من أوضاع بعد ان شرّعت السلطة في هجومها على الحزب مستعينة بكل القوى المعادية للشيوعية ، والتي وجدتها هذه فرصة ذهبية لملاحقة الحزب وتشديد الهجوم عليه[55].

ويذكر فتح الله: وكان في هذا التقرير من الصراحة أكثر مما أمله خصوم الحزب، لقد أُسيء توقيت هذا الاعتراف، ويزيد في سوء توقيته سوءاً أنه كان بمثابة محاولة لتهدئة غضبة الدكتاتور واتقاء صولته[56].

ويقول الخزاعي: عُد نشر وقائع الاجتماع الموسع وقراراته بصورة علنية في جريدة الحزب اتحاد الشعب، واستخدام مصطلح ''جلد الذات'' وهو أكثر قسوة من النقد الذاتي، نقطة ضعف سُجلت على قيادة الحزب بحيث أصبحت سلاحاً بيد المعارضة والسلطة معاً[57].

وقد تمخض عن هذا الاجتماع ظهور الكتلة الرباعية التي ضمت: بهاء الدين نوري وزكي خيري وعامر عبد الله ومحمد حسين أبو العيس. حاولت هذه الكتلة إزاحة سلام عادل عن منصبه لكنها فشلت، الا أنها تمكنت من إيجاد منصب جديد هو ''السكرتير الثاني للحزب'' انتُخب له زكي خيري[58].

تراجعات كبيرة بعد ذلك كانت من نصيب الحزب الشيوعي، ويروي جاسم العزاوي بأن الزعيم قد كلّفه بمهمة الحد من نفوذ الشيوعيين داخل الدولة، فنقل كبار الضباط الشيوعيين الى ضباط تجنيد في مناطق مختلفة من العراق، ليُمهد بهذه التصفية الطريق أمام الضباط القوميين للسيطرة على كتائب الدبابات. ونفس الشيء في الإذاعة والتلفزيون، اذ عزل المدير الشيوعي وعيّن مكانه بعثياً[59].

واللافت للنظر هنا ونحن في سياق تراجعات الحزب الشيوعي أمام قاسم، أن محاولة الاغتيال التي تعرض لها الأخير في تشرين الأول 1959 جعلت السلطات توجه الاتهام الى الحزب الشيوعي بوصفه منفذ العملية لولا بقاء جثة عبد الوهاب الغريري[60].

وقد ساءت العلاقة بين قاسم والحزب الشيوعي لدرجة أن صَرّح جلال الأوقاتي في عام 1961: لو أصبح قاسم سكرتيراً للحزب الشيوعي العراقي فيجب ازاحته لأنه سيدمرنا ويدمر نفسه [61]. طبعاً مع ضرورة التأكيد هنا على تباين المواقف داخل الحزب الشيوعي نفسه، فموقف سلام عادل مثلاً، يختلف عن موقف عامر عبد الله صديق قاسم، من حيث الموقف الراديكالي والموقف البراغماتي.

أصدرت حكومة قاسم قانون الجمعيات في

2 كانون الثاني 1960، وقد حجب قاسم الترخيص عن الحزب الشيوعي، ودعم حزباً كاريكاتورياً مكانه برئاسة داود الصائغ. وقد اتصل قاسم بمهدي كبة وغيره وأوضح لهم بأنه قد تخلى أخيراً عن الشيوعيين، وأنه سيقضي عليهم نهائياً [62]. وقد حاول الحزب الشيوعي الحصول على ترخيص وزارة الداخلية وقدّم الطلب باسم زكي خيري وليس باسم سلام عادل خشية إثارة قاسم، ولكن الأخير كان عازماً على عدم الإعتراف بهم[63].

وبعد أن اندلعت الحرب بين حكومة قاسم والأكراد في أيلول 1961، وجّه الحزب الشيوعي نقده لحكومة قاسم كونها:

تستثمر الحملة العسكرية الانتقامية في كردستان لتصفية ما تبقى من مظاهر الديمقراطية ولضرب الحركة الوطنية الديمقراطية في جميع أرجاء البلاد. ويرى سيف القيسي بأن هذا النقد لا يخلو من انتقاد لمظاهر خسارة الشيوعيين لمواقعهم حتى في المناطق الكردية نتيجة سياسة قاسم تجاههم. ويقول أيضاً: ظل موقف الحزب الشيوعي ومنهجه ثابتاً تجاه القضية الكردية، لا سيما بعد توتر الوضع بين الحكومة والقوى الكردية[64].

وعليه فقد ضَحّى الزعيم بأنصاره "الشيوعيين" في سياق المبدأ المعروف الذي رفعه: أنا فوق الميول والاتجاهات. وهو مبدأ أثبتنا فشله في دراسة سابقة، وإلا فهل من العقل والمنطق التضحية بأنصاره وزجهم في السجون، ليتقرب من أعدائه القوميين؟![65].

خاتمة

تَبيّن أن الحزب الشيوعي "حزب وطني نضالي"، وقد كان له دور مهم في التحضير والدعم لثورة 14 تموز، وقد دعم السلطة التي تمخضت عنها باعتبارها "سلطة بورجوازية وطنية". لكنه أخطأ في تقديم الدعم غير المشروط لهذه السلطة ممثلة بالزعيم، فقد استُبعد من المشاركة في الحكم منذ اليوم الأول بدون سبب جدّي حقيقي، ورغم هذا الاستبعاد وهذه الضربات، فقد بقي وفيّاً لقاسم وحكومته باعتبارها سلطة وطنية، وهي سلطة وطنية فعلاً، لكنها أخطأت كثيراً، وخصوصاً مع هذا الحزب الذي أغفل قضية استلام السلطة في خطأ فظيع غير مبرر كما ذكر بوتاني[66]، ونحن معه بكل تأكيد.

الهوامش

(1) معاذ محمد رمضان: النظام الملكي العراقي وإشكالية البقاء ـ هل كان من الممكن لهذا النظام أن يبقى على قيد الحياة؟ بغداد، دار البيارق، 2024.
(2) عن هذه القضية يُنظر: نجم محمود: المقايضة برلين بغداد ـ ثورة 14 تموز العراقية في السياسة الدولية، بيروت، منشورات الغد، 1991.
(3) عامر حسن فياض: جذور الفكر الاشتراكي التقدمي في العراق 1920 ـ 1934، بغداد، مكتبة النهضة العربية، ص153 الى 162
(4) حنا بطاطو: العراق، الكتاب الثاني، الحزب الشيوعي، ترجمة: عفيف الرزاز، ط3، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، 2003، ص49.
(5) طارق يوسف إسماعيل: صعود الحزب الشيوعي العراقي وانحداره، ترجمة: عمار كاظم محمد، تقديم: حسقيل قوجمان، اشراف: ماجد علاوي وحسين علي حاجبي، ط1، بغداد، دار سطور للنشر والتوزيع، 2020، ص25 و 26.
(6) المصدر نفسه، ص63، وصلاح الخرسان: صفحات من تاريخ العراق السياسي الحديث "الحركات الماركسية" 1920 ـ 1990، ط1 بيروت، العارف للمطبوعات، 2001، ص20.
(7) عزيز سباهي: عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي ج1، ط2، بغداد، دار الرواد المزدهرة، 2007، ص154.
(8) سالم عبيد النعمان: الحزب الشيوعي العراقي بقيادة فهد إعادة تأسيسه واكتمال بنائه ودوره الفاعل في الحركة الوطنية، ط1، دمشق، دار المدى، 2007 ص51.
(9) يوهان فرانزن: نجمة حمراء في سماء العراق ـ الشيوعية العراقية ما قبل صدام، ترجمة: سعود معن، تقديم: كاظم حبيب، ط1 بغداد، مكتبة النهضة، 2022، ص98.
(10) يذكر أحمد الحبوبي بأن الشبيبي كان أستاذاً له في المدرسة الابتدائية، وأنه لم يكن يضيع دقيقة من الدرس، فيقضي المدة كلها قراءة وشرحاً، يُنظر: مذكرات أحمد الحبوبي ـ رسالة اعتذار الى الشعب العراقي، ط1، لندن، دار الحكمة، 2018 ص23.
(11) رمضان: النظام الملكي، ص174 و175.
(12) إسماعيل، ص106.
(13) فرانزن: المصدر السابق ص126.
(14) الخرسان، ص72 و73 و74.
(15) المصدر نفسه، ص75 و76.
(16) ثمينة ناجي يوسف ونزار خالد: سلام عادل سيرة مناضل، ج1، ط1، دمشق، دار المدى، 2001، ص99 و100.
(17) إسماعيل، ص111.
(18) عبد الحسين شعبان: سلام عادل الدال والمدلول وما يمكث وما يزول ـ بانوراما وثائقية للحركة الشيوعية، ط1، بغداد، دار ميزوبوتاميا، 2019، ص20.
(19) عن حكومة المراسيم السعيدية يُنظر: رمضان: مصدر سابق، ص214 وما بعدها.
(20) المصدر نفسه، ص228.
(21) صالح مهدي دكلة: من الذاكرة: سيرة حياة، تقديم: نزيهة الدليمي، ط1، بيروت، دار المدى، 2000، ص52.
(22) ليث عبد الحسن الزبيدي: ثورة 14 تموز في العراق، ط2، بغداد، دار اليقظة العربية، 1981 ص76.
(23) المصدر نفسه، ص76 و77.
(24) ثمينة ناجي: ج1، ص210.
(25) مناف جاسب الخزاعي: السنوات الحمر والسنين السوداء / الحزب الشيوعي العراقي 1958 ـ 1963، ط1، بغداد، دار عدنان، 2023، ص274 و275.
(26) ثمينة ناجي: ج1، ص224 و225.
(27) سباهي: ج2، ص281 وما بعدها.
(28) المصدر نفسه، ج2، ص287 و288.
(29) الخزاعي: ص278.
(30) سباهي: ج2، ص288.
(31) بشائر محمود مطرود المنصوري: قوات المقاومة الشعبية في العراق 1 آب 1958 ـ 29 تموز 1959، إشراف: فرات عبد الحسن كاظم الحجاج، كلية التربية ـ جامعة البصرة، رسالة ماجستير غير منشورة 2017، ص38 و 50.
(32) معاذ محمد رمضان: الزعيم عبد الكريم قاسم في كتابات السياسيين العراقيين المدنيين والعسكريين، مراجعة وتقديم: د. معن فيصل القيسي، بغداد، دار البيارق، 2024، ص181.
(33) الخزاعي: ص282 و289.
(34) صلاح هادي عبادة الحلي: الاقصاء السياسي في العراق 1953 ـ 1968، إشراف: يحيى كاظم حمود المعموري، كلية التربية ـ جامعة بابل، أطروحة دكتوراه غير منشورة، 2019 ، ص155.
(35) الخزاعي: ص284 و287.
(36) المصدر نفسه، ص293.

(37) الحلي: ص159.
(38) ماريون فاروق سلوغلت وبيتر سلوغلت: من الثورة الى الدكتاتورية ـ العراق منذ 1958، ترجمة: مالك النبراسي، منشورات الجمل، ص89.
(39) عبد الفتاح البوتاني: العراق دراسة في التطورات السياسية الداخلية 14 تموز 1958 ـ 8 شباط 1963، ط1، دمشق، دار الزمان، 2008 ص109.
(40) خليل إبراهيم حسين: الصراعات بين عبد الكريم قاسم والشيوعيين ورفعت الحاج سري والقوميين، موسوعة 14 تموز ج2، بغداد، دار الحرية، 1988، ص180 و181. وقد كانت هذه الرسالة بداية صراع سافر بين الحزب الشيوعي وقاسم بحسب تعقيب المؤلف في الصفحة الأخيرة.
(41) ثمينة ناجي: ج2 ص12.
(42) الخزاعي: ص 309 و310 و311.
(43) المصدر نفسه، ص315 و316.
(44) الحلي: ص192 و193.
(45) جرجيس فتح الله: العراق في عهد قاسم / آراء وخواطر 1958 ـ 1988 ج2، ط1، بغداد- أربيل، دار آراس ودار الجمل، 2014 ص277 و278.
(46) حبيب الهرمزي: مجزرة كركوك 1959 الحدث المروع في تاريخ العراق، ط3 بغداد، دار آشور، 2021، ص6 و7.
(47) مجيد خدوري: العراق الجمهوري، ط1، ايران، الشريف الرضي، 1418، ص173.
(48) العراق في الوثائق البريطانية، ترجمة وتعليق: خليل إبراهيم حسين، مراجعة: عبد الوهاب القصاب، ج4، ط1، بغداد، دار الحكمة، 2002، ص42.
(49) سلوغلت: ص108، البوتاني: ص225، أوريل دان: العراق في عهد قاسم، ترجمة وتعليق: جرجيس فتح الله، ط1 بغداد- أربيل، دار آراس ودار الجمل، 2012 ص293.
(50) البوتاني: ص226، بطاطو: العراق، الكتاب الثالث، ص223 و224، فتح الله: ص262.
(51) عزيز محمد يتحدث ـ صفحات من تاريخ العراق الحديث، حوار وتعليق: د. سيف عدنان القيسي، ط1، بغداد، مكتبة النهضة، 2019 ص64 و65.
(52) العراق في الوثائق البريطانية، ج4 ص42.
(53) الخزاعي: ص320.
(54) الخرسان: ص93.
(55) سباهي: ج2، ص450.
(56) فتح الله: ص269.
(57) الخزاعي: ص146.
(58) المصدر نفسه، ص147.
(59) مذكرات العميد المتقاعد جاسم كاظم العزاوي ـ ثورة 14 تموز أسرارها ـ أحداثها ـ رجالها حتى نهاية عبد الكريم قاسم، بغداد، شركة المعرفة، 1990، ص235 و236 و237.
(60) الخزاعي: ص328 و329.
(61) ثابت حبيب العاني: صفحات من السيرة الذاتية، 1922 ـ 1998، ط1، بغداد، دار الرواد المزدهرة، 2014، ص260.
(62) البوتاني: ص250 و253.
(63) الخزاعي: ص166 و167.
(64) سيف عدنان القيسي: الحزب الشيوعي العراقي والقضية الكردية/ دراسة في أرشيف الوثائق السرية والعلنية للحزب 1935 ـ 1975، ط1، بغداد، دار سطور، 2022 ص159 و164.
(65) رمضان: ص202.
(66) البوتاني: ص109.

الفاشية الجديدة وصعود اليمين المتطرف

د. هاشم نعمة

ازداد الاهتمام في السنوات الأخيرة على المستوى الرسمي والأكاديمي والإعلامي والشعبي بموضوعة الفاشية الجديدة وعلاقتها بصعود شخصيات وأحزاب اليمين المتطرف في العديد من البلدان الأوروبية والولايات المتحدة، وبعض البلدان النامية، خصوصا في أمريكا اللاتينية. وجاء فوز دونالد ترامب بفترة رئاسية ثانية في انتخابات عام 2024، والذي ينتمي إلى اليمين المتطرف وذو توجهات فاشية شعبوية واضحة ليزيد من هذا الاهتمام؛ إذ يشكل صعود اليمين المتطرف تحولا خطيرا، وستكون له تداعيات على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والأمني، وعلى مستوى النظام العالمي، وهو أكبر تحول تلا صعود الفاشية بين الحربين العالميتين.

لاشك أن هذه التحول مرتبط بشكل وثيق بالأزمات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تمر بها البلدان الرأسمالية في المركز والأطراف، خصوصا بعد تبني نهج الليبرالية الجديدة-على الرغم من ثبوت فشله بعد اندلاع الأزمة المالية والاقتصادية عام 2008 وما تركه من نتائج فاقمت حدة الفوارق الطبقية، ودفعت المزيد من الشرائح الاجتماعية نحو الهامش.كل هذه الظروف تهيأ الحاضنة الخصبة لصعود الأحزاب والشخصيات اليمينية المتطرفة، والتي تجد فيها شرائح اجتماعية واسعة يائسة منقذا لها من الأزمات

التي تعيشها بعد خيبة آملها بالأحزاب الليبرالية التي حكمت طيلة عقود.

ما هي الفاشية الجديدة؟

يُطلق مصطلح الفاشية الجديدة في المقام الأول على تلك المجموعات السياسية والأيديولوجية والأحزاب التي عملت بعد عام 1945، خصوصا في أوروبا، والتي استلهمت بشكل مباشر تجربة الأنظمة الفاشية والنازية في فترة ما بين الحربين العالميتين في ألمانيا وإيطاليا وبلدان أوروبية أخرى. كانت هذه المجموعات تتكون في كثير من الأحيان من بقايا الناشطين الفاشيين والنازيين الذين لم يكونوا مستعدين للتخلي عن نشاطهم السياسي أو في الواقع التخلي عن أيديولوجياتهم على الرغم من الهزيمة العسكرية. وكان عدد كبير من الذين يدعمون هذه المنظمات يحنون إلى الماضي ومعزولين عن المؤسسات

الديمقراطية الليبرالية وثقافتها لفترة ما بعد الحرب،ويحمل الكثير منهم وجهات نظر متطرفة وغير قابلة للمساومة، مؤكدين على الطابع "الثوري" للفاشية بدلا من نسختها القومية أو تلك التي تؤكد على بناء دولة قوية[1]. وما نفهمه عن الطابع الثوري هنا استخدام العنف المفرط ضد الخصوم، وهذا يذكرنا بالمجازر التي ارتكبتها النازية ضد خصومها الداخليين والخارجيين، والاعتداءات المتكررة على المهاجرين من قبل اليمين المتطرف.

حديثا، وبعد رفع السرية عن وثائق وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، ظهر ما كان مشتبها به لفترة طويلة، وهو أن الجيش الأمريكي وجهاز الخدمة السرية قاما بحماية العديد من المجرمين النازيين والفاشيين بعد الحرب العالمية الثانية، وتجنيدهم كجنود وجواسيس ضد البلدان الاشتراكية [2]. وكان العمل الأساس لوكالة المخابرات الأمريكية هو زرع الجواسيس في البلدان الأخيرة، وهذا ما أقر به رئيسها ألين دالاس للفترة 1953 - 1961، بشكل موسع في مذكراته.

على الرغم من تشوه سمعة الفاشية، وما أرتبط بها من تمييز عنصري بعد الحرب العالمية الثانية، ونجاح البلدان الرأسمالية في أوروبا الغربية في بناء دولة الرفاه الاجتماعي، لكن كان هناك وجود مستمر للفاشية على هامش السياسة السائدة. لقد كانت واحدة من السمات الأكثر لفتا للانتباه لهذه الفاشية الجديدة تتمثّل في الغياب الكلي تقريبا للظروف الاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين والتي ازدهرت فيها الفاشية لأول مرة، إنها ظروف عدم الاستقرار السياسي، والضائقة الاقتصادية الشديدة، والخوف من تمدد الشيوعية والشعور الواسع بالإذلال الوطني والتطلعات المحبطة. يتمثّل أحد العوامل المساهمة في صعود الفاشيين المعاصرين في الهجرة الوافدة. خصوصا عندما يتفاقم الوضع نتيجة الركود الاقتصادي على الرغم من عدم ظهور ضائقة اقتصادية كالتي كانت بين الحربين العالميتين[3]، علما أن موضوع الهجرة يجري تسيسه على نطاق واسع، لأغراض انتخابية بحتة، حيث تشير الدراسات الأكاديمية إلى أن هناك حاجة ماسة للهجرة الوافدة حاليا وفي السنوات القادمة.

منذ عقد السبعينيات من القرن الماضي، برزت إلى الواجهة كثير من الحركات اليمينية المعادية للأجانب، متأثرة باليمين الجديد في أوروبا وأمريكا، لهذه الحركات في بعض الأحيان جذور واضحة مع الماضي الفاشي والفاشية الجديدة، ولكنها غالبا ما تنأى بنفسها عن ذلك علنا.لقد ركزت كثير من المناقشات الأخيرة بين العلماء على التوصل إلى إجماع جديد حول تعريف شامل للفاشية، والذي من شأنه أن يسمح بتصنيف أكثر وضوحا للحركات اليمينية المتطرفة والشعبوية[4] عبر العالم، أي التمييز بين الفاشية الحقيقية وغيرها من الظواهر الزائفة. فقد عرّف روجر غريفين الفاشية على أنها صنف من الأيديولوجيا السياسية التي يتمثل جوهرها الأسطوري في شكل متخلف من القومية الشعبوية المتطرفة[5].

منذ انبثاق النظام الاجتماعي- الاقتصادي والسياسي العالمي الجديد، بعد تفكك المنظومة الاشتراكية، حلت إلى حد كبير أنماط جديدة من الأحزاب والحركات اليمينية المتطرفة محل المجموعات المتطرفة الأقدم أو التي

تحن إلى الماضي الفاشي، وحققت إنجازات كبيرة في الانتخابات في العديد من البلدان. هذه الأحزاب لا تسعى في أوروبا الغربية علانية إلى الإطاحة بالأنظمة الديمقراطية أو تدعو إلى العنف، بدلا من ذلك، تؤكد على قضايا هي موضع اهتمام كثير من الناخبين، خصوصا الهجرة الوافدة والقانون والنظام. وعلى العكس من ذلك، اتخذ إحياء اليمين المتطرف في أوروبا الشرقية، شكلا من القومية المتطرفة، والتي قد تكون لها جذور مع فاشية ما بين الحربين العالميتين أو لها صلات مع الأيديولوجية الفاشية [6]. وهنا لا تكون الهجرة أحد الأسباب لأن هذه المنطقة طاردة للمهاجرين، ويمكن أن يكون تاريخ الحروب والتطورات السياسية التي مرت بها المنطقة، وإعادة رسم الخرائط السياسية عدة مرات، وضم بعض الأراضي إلى دول أخرى، واخفاق التجربة الاشتراكية أسبابا قد ساهمت في صعود هذا التوجه القومي المتطرف.

الجانب النظري - التفسيري

بحكم نفور الفاشية من الفكر، تفضل عدم إضاعة الوقت في بناء نظريات مجردة حول نفسها، لكن لا ينبغي لنا أن نستنتج أنها ممارسة عمياء أو طريقة غريزية بحتة.ترى الفاشية نفسها أنها معادية لجميع الأنظمة الطوباوية التي ليس مقدر لها أن تواجه أبدا اختبار الواقع.إنها معادية لكل العلوم وكل الفلسفات التي تظل مجرد مسائل خيال أو ذكاء. لا تنكر الفاشية قيمة الثقافة، إذا كانت المساعي الفكرية العليا تجري من خلالها تنشيط الفكر باعتباره مصدرا للعمل[7]، أي موجها للعمل الذي تريد تنفيذه خصوصا العمل على تزييف وعي الناس واشغالهم عن أسباب مشكلاتهم الاجتماعية والاقتصادية الحقيقية.

تدور سياسة الفاشية بالكامل حول مفهوم الدولة القومية، وبالتالي فهي لديها نقاط اتصال مع العقائد القومية، إلى جانب التمييز بينها وبين الأخيرة والذي من المهم أخذه بالاعتبار. وترى أنها تتوفر على حل للتناقض بين الحرية والسلطة؛ إذ تكون سلطة الدولة مطلقة. وإن الدولة لا تلجأ إلى الحلول الوسط، ولا تساوم، ولا تتنازل عن أي جزء من مجالها لمبادئ أخلاقية أو دينية أخرى قد تتداخل مع الضمير الفردي. ولكن من ناحية أخرى، لا تصبح الدولة حقيقة إلا في وعي أفرادها.وتوفر الدولة الفاشية التشاركية نظاما تمثيليا أكثر صدقا وأكثر اتصالا بالواقع من أي نظام آخر تم ابتكاره سابقا، وبالتالي فهو أكثر حرية من الدولة الليبرالية القديمة[8].

علما هذه الأفكار تطرحها الأحزاب اليمينية المتطرفة الحالية على نحو مباشر أو غير مباشر، حيث تنتقد المؤسسات والنخب السياسية الليبرالية وتتهمها بالفساد.

يعتمد اليمين الجديد على منظري "الثورة المحافظة" مثل كارل شميت، وأوزوالد شبنغلر، ومنظري الليبرالية الجديدة مثل فريدريش فون هايك الذي يفضل دكتاتورية ليبرالية، وعلى هذا الأساس رأى في حكومة الوحدة الشعبية المنتخبة في شيلي في بداية سبعينيات القرن الماضي بزعامة سلفادور الليندي دكتاتورية مستبدة. وفرض الليبرالية الجديدة بواسطة العنف في هذا البلد رأى فيها تحقيقا لـ "الحرية"،[9]، وهو ما أثبت الواقع عدم صوابه، حيث جلب تطبيق الليبرالية الجديدة كوارث اجتماعية واقتصادية واسعة وعمق التفاوت الطبقي.

أصبح ألكسندر دوغين الفيلسوف السياسي الروسي ونظريته "السياسية الرابعة" أحد المبادئ لتوجهات الفاشية المنظمة عالميا وفوق الوطنية. وتتمثّل موضوعته الرئيسة: أن جميع الأيديولوجيات السياسية، باستثناء الليبرالية، قد عفا عليها الزمن ويجب على جميع معارضي الليبرالية أن يتحدوا. ويجب ان يتم هذا الاتحاد تحت خيمة نظام اجتماعي استبدادي تقليدي واضح"[10].

ظهرت خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، دراسات ماركسية غنية بشأن الفاشية والتي اتجهت لتأكيد وجود تناقضات متنوعة ومتعددة الأشكال أدت إلى ظهور الفاشية، علما تعتبر النظرية الماركسية عادة أن الرأسمالية أو الليبرالية هي منشأ الفاشية. الكتاب الماركسيون الذين تصدوا للقيام بمهمة بناء مفهوم نظري للفاشية، من الذين جرى الاستلهام بأعمالهم، هم: ليون تروتسكي، جورجي ديمتروف، أنطونيو غرامشي، دانيال غيرين، بالميرو تولياتي، ونيكوس بولانتزاس[11]، والأخير لا يقوم بتقليص تفسير الفاشية إلى تناقض بسيط بل يرى أنها على العكس تنتج من تناقضات معقدة للغاية.

تؤكد جميع الكتابات الماركسية بشأن الفاشية على الصلات التي تربطها بالرأسمالية. وكان أكثر تعريفات الفاشية تأثيرا الصادر عن مؤتمر الأممية الشيوعية في عام 1935، والذي نصَّ على أن "الفاشية الممسكة بزمام السلطة هي الدكتاتورية الإرهابية السافرة لأكثر عناصر الرأسمالية المالية رجعية وشوفينية وإمبريالية". وكان رأي الأممية الشيوعية أن الأزمة التي عانتها الرأسمالية على درجة من الخطورة لم تكفِ معها الدكتاتورية التقليدية؛ لذلك استخدم الرأسماليون الحركة الفاشية الشاملة لتدمير الاشتراكية. ويذهب تعريف عام 1935 إلى أن الفاشية ليست "صنيع" الرأسماليين فقط؛ لأنها اعتمدت أيضا على أفراد من البرجوازية الصغيرة التي كانت ناقمة بشدة على رأس المال الكبير[12]. وهذا ما نراه أيضا في الأحزاب اليمينية المتطرفة الحالية. وقد شعر بعض الماركسيين أن هذا التعريف يسم جميع الأنظمة الدكتاتورية دون تمييز بالفاشية. وشعر آخرون أن البرجوازية الصغيرة تلعب دورا أكثر استقلالية، وأنها تقف إلى حد ما في طريق مصالح الرأسماليين. تبنى الماركسيون هذه الانتقادات في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين في محاولة لإضفاء قدر أكبر من المرونة على نموذجهم. لكن معظم الماركسيين لم يتخلوا عن قناعتهم بأن الفاشية تعمل بالأساس لمصلحة الرأسمالية[13].

وقد سبق أن قدم ديميتروف، في ثلاثينيات القرن العشرين، بداية الإجابة على سؤال، ما الذي يحفز كتلاً كبيرة من الناخبين على الانضمام إلى الفاشية؟ بالقول: " ما هو مصدر نفوذ الفاشية على الجماهير؟ إن الفاشية قادرة على اجتذاب الجماهير لأنها تخاطب بشكل ديماغوجي احتياجاتها ومطالبها الأكثر إلحاحاً. إن الفاشية لا تؤجج الأحكام المسبقة المتجذرة بعمق في الجماهير فحسب، بل إنها تلعب أيضاً على مشاعر الجماهير، وعلى شعورها بالعدالة، بل وأحياناً حتى على تقاليدها الثورية. إن الفاشية تهدف إلى استغلال الجماهير على نحو غير مقيد، ولكنها تقترب منها بأشد أساليب الديماغوجية المناهضة للرأسمالية، مستغلة الكراهية العميقة التي يكنها العمال للبرجوازية الناهبة،

والبنوك، والترست، وأباطرة المال"[14].

حاليا يقدم لنا الفيلسوف الإيطالي أمبرتو إيكو في كتابه "التعرّف على الفاشية"، الصادر حديثا، وصفا للفاشية، مؤكدا أن ظهور بعض سماتها لا بد أن يؤدي إلى عودة "فاشية جديدة" قد تكون أكثر قسوة من فاشية موسوليني. وإن تغيير الفاشية لشكلها لا يعني استحالة كشفها، فهي تشترك في جميع أشكالها، حتى تلك التي لم تظهر بعد، في 14 سمة يعتقد إيكو أنها تمثل جوهر كل نظام فاشي، وهي: "عبادة التقاليد، رفض الحداثة بالمطلق، اللاعقلانية، رفض النقد والفكر النقدي، الخوف من التنوّع، العمل على إحباط الطبقات الوسطى، تصوير الخصوم كأعداء يمكن هزيمتهم بقوة مفرطة، تكريس فكرة الحرب الدائمة وضرورة الاستعداد لها دائما، تكريس الفكر الشعبوي والعمل على تبرير احتقار كل طبقة للطبقة التي تخضع لها، ابتكار بطولات جماهيرية ولو وهمية، استعمال الخطاب الشعبوي السهل في مخاطبة الشعب، تقديس ما يسمى بالزعامة والرجولة، إعمال "الشعبوية النوعية" في مواجهة إنكار الحقوق الفردية"[15]. كل ذلك من اجل أن تحتفظ الطبقة الحاكمة بالسلطة. وكما يقول تون فان دايك "الحق أن التاريخ يقول إن الأيديولوجيات غالبا ما تتشكل لإضفاء الشرعية على سيطرة طبقة حاكمة أو نخب أو منظمات"[16].

العلاقة بين اليمين المتطرف والفاشية الجديدة

يرفض كثير من الكتّاب تطبيق مفهوم الفاشية لوصف التوجه الفكري لليمين المتطرف الحالي. يستند هذا الرفض إلى دوافع وحجج تختلف استنادا إلى رؤية كل كاتب والنظرية التي يستند إليها في التحليل. فمثلا، يرفض إميليو جنتيل التفريق بين المفهوم والظاهرة التاريخية. ويذكر أن مفهوم الفاشية هو تاريخ الفاشية بحد ذاته، الذي ليس له أسلاف في القرن التاسع عشر، ولن يتكرر في القرن الحادي والعشرين. ويرى أرماندو بواتو، إذا أردنا أن نقبل التماهي الكامل بين المفهوم والحقيقة التاريخية المذكور في هذا القول، فإن ذلك من شأنه أن يمنعنا من استخدام مفاهيم أخرى، مثل الديمقراطية والدكتاتورية في التمييز بين ديمقراطيات ودكتاتوريات مختلفة عرفناها عبر التاريخ. وسوف يصبح استخدام العلوم السياسية مستحيلا[17]، وهذا القول دقيق وينسجم مع واقع البحث في شتى صنوف المعرفة.

لا يبدو أن هناك إرثا واضحا منفصلا للفاشية الجديدة؛ إذ إن الإرث الرئيس، هو الإرث الأيديولوجي الذي ينتمي إلى الفاشية بدلا من الفاشية الجديدة. قد يبدو قبول اليمين المتطرف الأوروبي الجديد بالنظام الديمقراطي، لكن في الواقع، ربما لا يزال مثقفوه يؤمنون بمعتقدات راسخة تتمثّل في العودة الأسطورية إلى العصر الاستبدادي الذهبي. ومن ناحية أخرى، جرى تهميش النزعة العسكرية العنيفة والروح الحربية[18]، دون أن يعني ذلك التخلي عنها.

لقد بدا واضحا أنه منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، أن هناك علاقة بين فضائع الفاشية الكلاسيكية لسنوات ما بين الحربين العالميتين والحركات المعاصرة لليمين المتطرف الأوروبي؛ إذ في أواخر الأربعينيات والخمسينيات، جرى تحديد أي مجموعات قومية متطرفة باعتبارها تمثّل الفاشية

الجديدة أو النازية الجديد، لأسباب ليس أقلها أنها كانت تؤوي الكثير من أتباع الأنظمة الفاشية القدامى. ولكن حتى حاليا، فإن أخبار أعمال العنف أو النجاحات الانتخابية لليمين المتطرف في أوروبا تحيي شبح الفاشية في أذهان المراقبين في كل مكان. وبدون شك، ظلت العلاقة بين جميع حركات اليمين المتطرف وسنوات ما بين الحربين العالميتين أمرا واقعا لا مفر منه[19].

تحتل في عصر القطبية الأحادية، معاداة أمريكا مركز الصدارة، وكذلك معاداة العولمة والهجرة الوافدة. وبما أن التعاون عبر الحدود الوطنية آخذ بالازدياد، وخاصة بفضل شبكة الإنترنت، لذلك فإن الجيل الجديد من الأحزاب اليمينية المتطرفة لم يعد كما يبدو مهتما بإحياء الفاشية الدولية[20]، ولكن لا يعني هذا عدم وجود علاقات وتنسيق وتعاون بين الأحزاب اليمينية المتطرفة خصوصا في أوروبا، وهذا ما يلاحظ في برلمان الإتحاد الأوروبي، حيث تعززت كتلة الأحزاب المذكورة في الانتخابات التي جرت عام 2024.

1 - ألمانيا

بعد الحرب العالمية الثانية، كان لا يزال في ألمانيا عدد مهم من النازيين السابقين. وكانت حكومة ألمانيا الغربية، تخشى من انتعاش التطرف، لذلك، حظرت الأحزاب المناهضة للدستور ومنعت أعضائها من العمل الحكومي. وعلى الرغم من ذلك، كان هناك كثير من المجموعات النازية الصغيرة، لكن دون أن تتمتع بأهمية سياسية، إضافة إلى ذلك تقدم أعضائها في السن. لكن الانتعاش الحديث والأكثر خطورة لنشاطات النازيين الجدد حدث في أوائل التسعينيات ردا على الهجرة الوافدة[21]، خصوصا من بلدان أوروبا الشرقية.

وأحدث الأحزاب اليمينية المتطرفة هو حزب البديل من أجل ألمانيا الذي تأسس عام 2013، لكنه في هذه السنة لم يتمكن من الدخول للبرلمان. ومنذ انتخابات عام 2017، أصبح الحزب أكبر أحزاب المعارضة، وهو أول حزب يميني قومي متطرف يدخل البرلمان منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وحقق الحزب نجاحات مهمة في الانتخابات الإقليمية عام 2024 في عدد من الولايات خصوصا في شرق البلاد وللحزب ارتباطات مع النازية الجديدة [22]، ويتبنى مواقف عنصرية معادية للمسلمين والمهاجرين عموما.

2 - إيطاليا

كانت ومازالت إيطاليا النموذج الأول لدراسة الحركة الفاشية، حيث ظهرت هناك واستولت على السلطة منذ عشرينيات القرن الماضي بقيادة بينيتو موسوليني، وتحالفت مع النازية. وقد كانت الازمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والحروب وما خلفته من تداعيات هي الحاضنة المناسبة لنمو الحركة الفاشية.

أصبحت إيطاليا أول دولة في الاتحاد الأوروبي تقودها حكومة أكثر يمينية بقيادة جورجيا ميلوني، زعيمة حزب إخوة إيطاليا، الذي لديه علاقات تاريخية بالفاشية الجديدة، وذلك بعدما تمكن التحالف اليميني المُكون من حزبها بجانب حزب الرابطة وحزب فورزا إيطاليا من الفوز بأكثر من ثلث الأصوات بنسبة تقدر 44 في المئة في انتخابات عام 2022. بالنسبة إلى تاريخ حزب إخوة إيطاليا

الذي تأسس عام 2012 على يدميلوني، فإنه يعود إلى حزب الحركة الاجتماعية الإيطالية الذي تأسس بعد الحرب العالمية الثانية بقيادة جورجيو ألميراني، رئيس الأركان في حكومة موسوليني الأخيرة، وضم في عضويته أنصار الفاشية. واستمر الحزب خلال الثلاثة عقود التي أعقبت الحرب يُمارس العمل السياسي باعتباره حزبا يمينيا صغيرا [23].

وفي التسعينيات شهد الحزب تحولا جديدا على يد جيانفرانكو فيني، المتأثر بالفاشية الجديدة، وكان ينظر إلى موسوليني باعتباره أعظم رجل دولة في القرن العشرين، غير أن فيني حاول تقديم صورة أقل تطرفا؛ حيث أعاد تسمية الحزب باسم التحالف الوطني.

وفي ظل قيادته انضمت ميلوني للتحالف وتدرجت فيه. وعلى الرغم من أنها كانت من المعجبين بموسوليني، فإنا قامت بزيارة نصب ''ياد فاشيم'' التذكاري للهولوكوست في إسرائيل، إبان توليها وزارة الشباب في حكومة سيلفيو برلسكوني عام 2009[24]. وهذا الموقف محاولة للتقرب من اللوبي الصهيوني الداعم لإسرائيل على المستوى الأوروبي والعالمي.

3 - روسيا

لفترة من الوقت بعد تفكك الاتحاد السوفيتي مباشرة، ظهرت بعض السمات التي حفزت سابقا نمو الفاشية وتطورها في إيطاليا.فقد تواصل ارتفاع معدل التضخم المفرط في روسيا ووصل إلى ما يقرب من 2000 في المئة سنويا. وتراجع الإنتاج الصناعي في الاتحاد السوفيتي السابق نحو 40 في المئة عام 1994 [25].

كانت هذه الفترة التي حقق فيها فلاديمير جيرينوفسكي أكبر نجاحاته. متسلحا بأفكار الفاشية المألوفة، إذ نجح في جذب 22,8 في المئة من الأصوات في انتخابات عام 1993. وأشار أحد التقارير إلى أن 43 في المئة من العسكريين الروس في طاجاكستان صوتوا إلى حزب جيرينوفسكي (الحزب الليبرالي الديمقراطي). وبعد ذلك، ولأسباب عدة، تراجع الدعم للأخير وحزبه[26]. ويُعد جيرينوفسكي ''أول شعبوي حديث'' وأحد أعمدة نظام بوتين عن طريق استيعاب أصوات الناخبين الغاضبين والمخيبة آمالهم وأصحاب التوجهات اليمينية المتشددة[27] وبقي على الدوام عضوا في الدوما حتى وفاته عام 2022.

4 - البرازيل

تُعد البرازيل نموذجا لدراسة الفاشية الجديدة، حيث أنها ظهرت في بلد غير أوروبي، ويُعد من البلدان النامية، ولهذا فإن هذه التجربة جديرة بالدراسة واستخلاص النتائج منها، لأنها قد تكون مفيدة لبقية البلدان النامية التي ربما تواجه مثل هذه النزعات. علما امتدت هذه التجربة أربع سنوات (2019-2022) وهي فترة حكم الرئيس جير بولسونارو وحركته.

ولدت حركة بولسونارو من تظاهرات الشوارع الكبيرة التي جرت عامي 2015 و2016 للمطالبة بعزل رئيسة البرازيل ديلما روسيف، وهي أول مرأة تتولى هذا المنصب للفترة 2011-2016.وتستند الحركة الفاشية كحركة رجعية على البرجوازية الصغيرة والطبقة الوسطى، بتعبير أدق الجزء العلوي من هذه الطبقة. وتضم هذه الحركة

أيضا المالكين الصغار – الجزء المنظم جدا والمستقل من أصحاب الشاحنات والذي كان منذ بدايته ذو توجه يميني فاشي. وقد بحثت الأنثروبولوجية ايزابيلا خليل لمدة ثلاث سنوات توجهات المتظاهرين ذوي التوجه اليميني في البرازيل من خلال إجراء مقابلات معهم في التظاهرات، وقد أحصت أحد عشر عنصرا رئيسا حاضرا في خطاب بولسونارو ومؤيديه ضد كل من: الفساد، الشيوعية، اليسار، النسوية، السياسيين، الأحزاب، الإجهاض، المثلية الجنسية، الامتيازات والنظام [28]. ويُلاحظ هناك مشتركات بين هذا الخطاب وخطاب الشخصيات والأحزاب اليمينية المتطرفة في بلدان أخرى خصوصا الأوروبية منها.

في الفاشية الأصلية، كانت البرجوازية المهيمنة هي البرجوازية الإمبريالية الكبرى، ويمكن أن تكون الفاشية عكس ذلك في بلد تابع، فهي تنظم هيمنة رأس المال الأجنبي الإمبريالي والجزء المرتبط به من البرجوازية المحلية الخاضعة لهذا الرأسمال. لذلك، فإن الليبرالية الجديدة والبرامج السياسية توسع انفتاح الاقتصاديات التابعة على رأس المال الإمبريالي، والفاشية، باعتبارها نوع خاص من الدكتاتورية، لا تتعارض مع الليبرالية الجديدة. لذلك فإن حكومة بولسونارو تنتمي إلى الفاشية الجديدة والليبرالية الجديدة[29] في الوقت نفسه. وبحسب أرماندو بواتو توجد في البرازيل ديمقراطية برجوازية تواجه أزمة وتدهورا.

اليمين المتطرف والهجرة الوافدة

أصبحت الهجرة الوافدة في عدد من بلدان أوروبا الغربية قضية سياسية، خصوصا في أوقات الصعوبات الاقتصادية. وفي ظل هذه الظروف التي أصبحت شائعة على نحو متزايد في سبعينيات وثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين، يمكن بسهولة التلاعب باستخدام التمييز العنصري من قبل الأحزاب ذات التوجهات الفاشية والنازية. وبحسب إيان آدمز يبدو أن الفاشية الجديدة ليست أكثر من كراهية عنصرية منظمة سياسيا.ومن المؤكد أن هذا هو الحال في فرنسا وألمانيا والولايات المتحدة وبريطانيا[30].

وإذا تركنا جانبا مسألة التصنيف، من الممكن مناقشة أن اليمين المتطرف في أوروبا الغربية حاليا، مقارنة بفترة الحرب الباردة، اضطر إلى التأقلم مع الديمقراطية الليبرالية، وبالتالي وضع جانبا أفكاره "الثورية". لكن لم يتم كبح العنف بالضرورة، حيث يمارس العنف من خلال الهجمات ضد المهاجرين من قبل المتعاطفين مع اليمين المتطرف. وتراجعت في أوروبا الغربية معاداة السامية إلى الخلف في حين برزت إلى الواجهة معاداة المسلمين، على عكس أوروبا الشرقية حيث ظلت الأولى بارزة فيها [31].

يذكر دايك "نفهم من هذا الطرح أن الأيديولوجيات العنصرية ليست نظاما مجردا سقط من السماء مصادفة على المجتمع الأوروبي، بل هو معتقدات ترسّخت تاريخيا واجتماعيا وثقافيا في الذهن الاجتماعي لعدد كبير من الأوروبيين، وتتحكم إلى حد ما في معتقداتهم عن الآخرين ضمنيا. وقد تظهر هذه المواقف مثلا حقيقة أن أكثر من ثلثي سكان أوروبا الغربية اليوم يعارض وفود المزيد من المهاجرين"[32]. على الرغم من الحاجة الماسة للعمالة المهاجرة في أوروبا، نتيجة تراجع النمو الطبيعي للسكان، وهذا ما

أعلنته مؤخرا عدة دول منها ألمانيا وفرنسا وإسبانيا وحتى هنغاريا وغيرها.

1 -ألمانيا

كانت ألمانيا الغربية سابقا تتوفر على سياسية ليبرالية للغاية تجاه الهجرة الوافدة، وكانت ترحب بالكثير من "العمال الضيوف"، خصوصا من تركيا. لكن ساهم ارتفاع البطالة في الثمانينيات في نمو الفاشية الجديدة التي تغذت على الخوف والاستياء من الهجرة. وقد بقي الأمر تحت السيطرة خلال هذا العقد؛ بسبب أن الاقتصاد الألماني كان قويا ومزدهرا، لذلك نظر معظم الألمان إلى المشكلات الاقتصادية باعتبارها مؤقتة.

وقد تغيرت هذه الوضعية بسبب عاملين مترابطين. يأتي في المقام الأول، تفكك الأنظمة الاشتراكية في أوروبا الشرقية والفوضى الاقتصادية التي أعقبت ذلك ما عزز من تدفق المهاجرين من هذه المنطقة باتجاه الغرب الغني. وتمثّل العامل الثاني في إعادة توحيد ألمانيا عام 1990 الذي عقب انهيار المانيا الشرقية، إذ لم يكن هذا التوحيد نجاحا فوريا. وسببت إعادة هيكلة الاقتصاد بطالة ضخمة في المانيا الشرقية، وهددت ازدهار المانيا الغربية. وترافق هذا الوضع واحتمال الهجرة الوافدة مع الاضطراب الاقتصادي، كل ذلك كان أرضا خصبة لنمو الفاشية الجديدة. لذلك، كان هناك نمو سريع للمجموعات النازية الجديدة، وهجمات على المهاجرين، خصوصا في ألمانيا الشرقية. وقد تأسس الحزب الجمهوري الجديد باعتباره الحزب اليميني المتطرف الرائد في وقته بعد عام 1989. وكان برنامجه يتضمن ترحيل المهاجرين إلى بلدانهم الأصلية [33].

2 - فرنسا

على نحو مشابه، غذت الهجرة الوافدة والقلق من آفاق المستقبل النشاط الفاشي الجديد في فرنسا. على الرغم من أن كثير من الهجرة يرتبط بإرث الاستعمار الفرنسي. فهناك أعداد كبيرة من المهاجرين من بلدان شمال أفريقيا، إضافة إلى توقعات بأن كثير من المهاجرين الجدد يريدون الدخول إلى البلد نتيجة المشكلات الاقتصادية والحروب الأهلية في عدد من بلدان هذه المنطقة، لذلك كان هناك نمو في المشاعر المعادية للمهاجرين.

أسس جان ماري لوبان حزبا يمينيا متطرفا عام 1972، لكنه أصبح في الصدارة مع الركود الاقتصادي وارتفاع البطالة في أوائل الثمانينيات، عندما فازت الجبهة الوطنية بمقاعد في الجمعية الوطنية الفرنسية والبرلمان الأوروبي. وعندما وصلت البطالة إلى ثلاثة ملايين، زعم لوبان أن ترحيل ثلاثة ملايين مهاجر سيحل المشكلة "بضربة واحدة". وتحدث عن تنامي أسلمة أجزاء من فرنسا وعواقب تهديد الهوية والثقافة الفرنسيتين. يبدو من المرجح أن مسألة الهجرة ستكون ذات أهمية متنامية، وقد تكون مصدرا لتنامي الدعم لليمين المتطرف في المستقبل[34]. وقد كادت الجبهة الوطنية أن تحتل الصدارة في انتخابات الجمعية الوطنية التي جرت عام 2024 لولا مبادرة تحالف اليسار الذي أحتل المرتبة الأولى.

الترامبية

نشأ مصطلح الترابية وبات يتداول على نطاق واسع خصوصا من قبل المحللين السياسيين والإعلاميين والكتّاب، خلال فترة رئاسة ترامب الأولى (2017 - 2021)، وزاد

الاهتمام أكثر بهذا المصطلح بعد فوز الأخير في انتخابات عام 2024. وتواجه دراسة الترامبية صعوبات منهجية، لأن صاحبها لا يتوفر على فكر سياسي -اقتصادي منسجم، ويتسم بالمزاجية وتقلب الآراء، ثم أن صعوده السياسي لم يأت بالتدرج عبر المؤسسات السياسية بل جاء من خارجها، ومن قطاع العقار والمال حصرا، ولا يمتلك خبرة واسعة في إدارة شؤون الدولة.

الحقيقة أن فوز ترامب في انتخابات عام 2024، ودراسة النتائج المترتبة عليه سيستغرق بعض الوقت قبل التمكن من تكوين صورة كاملة له. إذ ليس كل شيء واضحاً كما قد يبدو من الوهلة الأولى. وكما قال كارل ماركس: "كل العلوم ستكون زائدة عن الحاجة إذا كان المظهر الخارجي وجوهر الأشياء متطابقين بشكل مباشر"[35].

وعن أسباب فوز ترامب يبدو أن الجانب الاقتصادي لعب دورا محوريا في ذلك. فقد شكلت، الأوضاع الاقتصادية الصعبة في البلاد وارتفاع تكاليف المعيشة والإسكان والتضخم محور اهتمام الناخبين. إذ تشير استطلاعات الرأي التي جرت للخارجين من التصويت إلى أن ثلثي الناخبين يرون أن الاقتصاد في حالة سيئة أو ليست جيدة، وأن 69 في المئة منهم صوتوا لترامب[36] إضافة لذلك، فقد اجتمعت أكثر القطاعات رجعية وتطرفا في الطبقة الرأسمالية لدعم دكتاتور متمرس نجح في حشد حركة جماهيرية من القوى المتناقضة خلفه. إنها الصيغة الكلاسيكية للفاشية[37].

والأسوأ من ذلك، على عكس ما حدث عندما فاز عام 2016، لن يتصرف ترامب بشكل ارتجالي هذه المرة. فسوف يدخل البيت الأبيض بأجندة مدروسة بالكامل للملياردريرات ـ مشروع 2025 ـ تستهدف الطبقة العاملة والنقابات، والأشخاص الملونين، والمهاجرين، والنساء، والمثليين جنسيا، والرعاية الطبية للمعمرين، والضمان الاجتماعي، والرعاية الطبية المساعدة، وتشريعات تغير المناخ، وغير ذلك. ومن المتوقع أن يفرض تخفيضات ضريبية كبرى لصالح الأغنياء وتخفيضات في الخدمات العامة لبقية الناس[38].وقد وقع بعض الأوامر التنفيذية التي تخص ذلك منذ اليوم الأول لاستلامه الرئاسة. وهذ جلي إذ أنه جاء ليخدم الشركات الكبرى التي أوصلته إلى الحكم بتبرعاتها الضخمة لحملته الانتخابية.

أما بالنسبة إلى السياسة الخارجية المتوقعة لترامب "على الرغم من المؤشرات المبنية على رؤية ترامب وترشيحاته للمناصب الرئيسة في إدارته، فإن مزاجيته، وتقلباته، وعدم امتلاكه منظومة أفكار منسجمة، كلّها عوامل ستجعل من الصعب التنبؤ بسياسته الخارجية"[39]. وهذه تعد من الفترات الصعبة التي تتطلب تنسيق جهود قوى السلام والديمقراطية لإجبار ترامب على احترام حقوق الآخرين وقبول الحقائق الجيوسياسية.

باتت فترة حكم ترامب السابقة، محل دراسة وتحليل واستخلصت منها نتائج مهمة منها: إن فوز ترامب في الانتخابات الرئاسية عام 2016، والدعم اللاحق الذي كان قادرا على المحافظة عليه أثناء وجوده في منصبه، حير العديد من المهتمين. فمثلا، يشير ويندي براون وبيتر جوردون وماكس بنسكي إلى أن صعود ترامب، إلى جانب صعود الحركات اليمينية الشعبوية المعاصرة، لا يتناسب مع التصنيفات المعترف بها في التحليل السياسي.

ومن بين الألغاز الرئيسة التي تمثلها الترامبية لمثل هؤلاء المراقبين افتقارها إلى التماسك الأيديولوجي[40]. وهذه الصفة تنطبق على الفاشية في إيطاليا في عهد موسوليني.

كذلك، "على الرغم من نجاة المؤسسات الديمقراطية الأميركية من رئاسة ترامب، إلا أنها ضعفت بشدة. وعلاوة على ذلك، تحول الحزب الجمهوري إلى قوة متطرفة معادية للديمقراطية تعرض النظام الدستوري الأميركي للخطر. إن الولايات المتحدة لا تتجه نحو الاستبداد على الطريقة الروسية أو الهنغارية، كما حذر بعض المحللين، بل نحو شيء آخر: فترة طويلة من عدم استقرار النظام، تتميز بأزمات دستورية متكررة، وعنف سياسي متزايد، وربما فترات من الحكم الاستبدادي"[41].

على الرغم من أن ترامب حفز على هذا التحول نحو الاستبداد، إلا أن تطرف الحزب الجمهوري كان مدفوعا بضغط قوي من الأسفل؛ إذ أن الناخبين الأساسيين للحزب هم من البيض والمسيحيين، ويعيشون في الضواحي والمدن الصغيرة والمناطق الريفية. ولا يقتصر الأمر على تراجع المسيحيين البيض كنسبة مئوية من الناخبين، بل إن التنوع المتزايد والتقدم نحو المساواة العرقية قد قوضا أيضا وضعهم الاجتماعي النسبي. ويعتقد كثير من الناخبين الجمهوريين أن بلد طفولتهم يؤخذ منهم. فقد وجد مسح أجري عام 2021 برعاية معهد أمريكان إنتربرايز أن 56 في المئة من الجمهوريين وافقوا على أن "طريقة الحياة الأميركية التقليدية تختفي بسرعة كبيرة لدرجة أننا قد نضطر إلى استخدام القوة لوقفها"[42]. وهذا ما دفع بعض المهتمين للقول بإمكانية حدوث حرب أهلية.

هذه المواقف تعكس اشتداد الصراع الطبقي في الولايات المتحدة، ويتطلب حسم هذا الصراع لصالح الطبقات والفئات المتضررة ولو تدريجيا، معارك ونضالات سياسية وفكرية وثقافية لوقف هجوم اليمين المتطرف واستعادة المبادرة للقوى اليسارية والديمقراطية المناهضة لهذا التوجه، لأن خطورة صعود اليمين المتطرف لا تقتصر على الولايات المتحدة، بل سينعكس ذلك في تعزيز مواقع هذا الجناح في أوروبا وبقية العالم.

الهوامش

(1) Bosworth R. J. B. The Oxford Handbook of Fascism, Oxford University Press, 2009, p. 586.
(2) Ibid., p. 593.
(3) Ian Adams, Political ideology today, Manchester, Manchester University Press, 1993, pp. 249-250.
(4) للمزيد راجع: هاشم نعمة، "في سمات الشعبوية"، الثقافة الجديدة، العدد 447، أيلول 2024، ص 57-46.
(5) Bosworth, p. 601.
(6) Ibid., p. 587.
(7) Paul Schumaker (ed.), The Political Theory Reader, Oxford, Wiley Blackwell, 2010, p. 58.
(8) Ibid., pp. 59-60.
(9) رشيد غويلب (ترجمة وإعداد)، قوى اليسار الأوروبي: الأزمة المالية والسياسات البديلة، بغداد: دار الرواد المزدهرة، 2015، ص 232.
(10) عصر ذهبي تقليدي جديد - اليمين المتطرف والرأسمالية المتخلفة / ناتاشا شتروبل، ترجمة رشيد غويلب، 12 تشرين الثاني 2022.

(11) Armando Boito, Reform and Political Crisis in Brazil, Leiden/ Boston: Brill, 2018, p. 190.
(12) كيفن باسمور، الفاشية: مقدمة قصيرة جدا، ترجمة رحاب صلاح الدين، القاهرة: مؤسسة هنداوي، 2014، ص 23.
(13) المصدر نفسه، ص 24-23.
(14) سي. جيه. أتكينز، "صباح اليوم التالي: تحليل ماركسي لفوز ترامب"، موقع صحيفة "عالم الشعب" (الحزب الشيوعي الأمريكي)، 6 نوفمبر 2024.
(15) الفاشية اللافكرية الجديدة كما فضحها أمبرتو إيكو /ثقافة / الجزيرة نت.
(16) تون فان دايك، الأيديولوجيا والخطاب، ترجمة سعيد بكار ولحسن بوتكلاي، بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2023، ص 50.
(17) Boito, p. 188.
(18) Bosworth, pp.603-604.
(19) Roger Griffin, (ed.) International Fascism, London: Arnold:1998, p. 305.
(20) Bosworth, pp.603-604.
(21) Griffin, p. 305.
(22) البديل من أجل ألمانيا - ويكيبيديا، 3 كانون الأول 2024.
(23) آية عبد العزيز، "تهديد محتمل! صعود الأحزاب اليمينية المتطرفة في السويد وإيطاليا"، اتجاهات الأحداث، العدد 34، نوفمبر-ديسمبر 2022، ص 53.
(24) المصدر نفسه، ص 53.
(25) James A. Gregor, Phoenix: Fascism in our Time: USA/ UK, Transaction publishers, 2002, pp. 150-151.
(26) Ibid., pp. 150-151.
(27) رحيل السياسي الشعبوي الروسي فلاديمير جيرينوفسكي عن 75 عاماً، العربي الجديد، 6 أبريل 2022.
(28) Boito, p. 191.
(29) Ibid., pp. 189-190.
(30) Adams, pp. 249-250.
(31) Bosworth, p. 603.
(32) دايك، ص 56.
(33) Adams, pp. 250-251.
(34) Ibid., p. 251.
(35) أتكينز.
(36) المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الانتخابات الرئاسية الأمريكية: أسباب فوز ترامب والتداعيات المحتملة، الدوحة: 11 تشرين الثاني | نوفمبر 2024، ص 1.
(37) أتكينز.
(38) المصدر نفسه.
(39) المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، السياسة الخارجية لرئاسة ترامب الثانية: الرؤية والتوقعات، الدوحة: 18 تشرين الثاني | نوفمبر 2024، ص 5.
(40) Jeremiah Morelock (ed.) How to Critique Authoritarian Populism, Leiden, Brill, 2021, p. 366.
(41) Foreign Affairs, 20 January 2022.
(42) Ibid.

التغيرات المناخية والتضليل الإعلامي المنسق

د. كاظم المقدادي

مقدمة

يشهد عالمنا المعاصر تغيرات مناخية شاملة كافة أرجائه، وهي تتفاقم عاماً بعد آخر، ولم يسلم من تداعياتها بلد واحد، وتحولت الى واحدة من أخطر المشكلات البيئية، ومن أبرز التحديات الكبرى التي تواجه البشرية بتبعاتها البيئية والاقتصادية - الاجتماعية والصحية والنفسية والأمنية، المهددة لحاضر ومستقبل أجيالها.

أكدت ذلك مئات الدراسات العلمية الدولية الرصينة، مبينة، على سبيل المثال، بان التغيرات المناخية كلفت الاقتصاد العالمي تريليونات الدولارات حتى الآن، وأضرت بدرجات متفاوتة معظم البرامج التنموية في جميع الدول، خاصة في البلدان النامية، التي لا تتحمل بمجموعها سوى نسبة ضئيلة (لا تتجاوز 5 %) من مسؤولية انبعاثات الغازات المسببة للاحتباس الحراري العالمي وتداعياته.

والمفارقة، أن الدول الأقل مسؤولية في ظاهرة التغيرات المناخية وتداعياتها هي الأكثر تأثراً بعواقبها. وينطبق ذلك بشكل رئيس على دول أفريقيا وآسيا والشرق الأوسط، النامية منها بشكل عام، بينما ترتبط الانبعاثات الضارة المسببة للظاهرة بالنشاط الصناعي للدول الصناعية الكبرى. كما هي نتاج ممارسات للدول التي حققت تنمية بالفعل على مدار عقود من الزمن، على حساب الدول الأخرى[1].

من هذا المنطلق، اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتّحدة، في أواخر آذار 2023، بالإجماع، قراراً تاريخياً يطلب من محكمة العدل الدولية إبداء رأيها بشأن مسؤوليات الدول في مجال مكافحة احترار المناخ[2]. ويبدو ان المحكمة تعرضت لضغوط كبيرة منعتها من ان لا تنظر بالدعوى طيلة قرابة عامين. وأخيراً بدأت المحكمة جلساتها (خلال الفترة 5 /12 الى 13 /12 /2024)، وينتظر أن تعطي رأيها قبل انتهاء عام 2025.

والأمر الآخر المهم، ان تفاقم الظاهرة، وتصاعد المطالبة الدولية بإيجاد الحلول الجدية للحد من تبعاتها، ناهيكم عن معالجتها جذرياً، والتركيز على ما كشفه العلماء عن الدور البشري المدمر، ترافق

مع حملة شعواء من المعلومات والمزاعم المضللة والدعائية، متواصلة حتى يومنا هذا، وتحولت الى مصاحب لصيق، مواجه ومضاد، للنجاحات التي حققها علماء المناخ العاملين في الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغيُّر المناخ (IPCC)، والتي عززتها أكثر مؤتمرات الأمم المتحدة للمناخ (COP) وقممها الأممية التاسعة والعشرين لأطراف اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغير المناخ (UNFCCC)، التي كشفت الأسباب الحقيقية للتغيرات المناخية، وسعت بجهود جماعية مثابرة ودؤوبة لمعالجات فاعلة وقابلة للتطبيق، وفق مبادئ العدالة المناخية. كل هذا لم يعجب الدول الأكثر تلويثاً عبر صناعاتها الكبرى متعددة الجنسيات والعابرة للحدود والقارات، وفي مقدمتها الأمريكية والبريطانية والفرنسية، ولذا سلكت مسار التعتيم والتضليل عن طريق مراكز ودوائر مأجورة، مستغلة التطور العلمي والتكنولوجي، وخاصة التحولات التقنية السريعة، التي ميزت في العقود الأخيرة وغيرت طرق تفاعل الناس وتواصلهم وسبل حصولهم على المعلومات في كل أرجاء العالم. وغدا الناس الآن يمتلكون مجمل المعرفة البشرية في أجهزة يحملونها في كفوفهم، مما يعني سرعة نشر الأخبار والمعلومات في كل بقاع العالم في ثوانٍ قليلة معدودة.

سلاح ذو حدين

في سلسلة رحلة في عالم التحريف العلمي أوضح د. طارق قابيل، أكاديمي وخبير التقنية الحيوية وعضو المجموعة الاستشارية العربية للعلوم والتكنولوجيا، التابعة للمكتب الإقليمي للأمم المتحدة للحد من مخاطر الكوارث للدول العربية:" بأنه في عصر الثورة الرقمية، باتت المعلومات سلاحًا ذا حدين؛ فهي أداة للتنوير والتطوير من جهة، وأداة للتضليل وإرباك الرأي العام من جهة أخرى. ويشهد العالم اليوم انتشاراً غير مسبوق للمعلومات الزائفة والمغلوطة، حيث أصبحت هذه الظاهرة أحد أبرز التحديات التي تواجه المجتمعات والمؤسسات على حد سواء. ويستهدف التضليل المعلوماتي، بأساليبه الماكرة وأدواته المتطورة، تشكيل الوعي الجمعي وتوجيهه نحو أهداف تخدم مصالح ضيقة، متجاهلًا أثر ذلك على الحقيقة، والاستقرار، والمستقبل"[3].

التعتيم والمعلومات الزائفة

في تقرير واف سلطت الباحثة والكاتبة جوي سليم الضوء على الأبحاث التي أجراها العلماء في شركة (إكسون) (الآن هي إكسون موبيل، وهي شركة أمريكية متعددة الجنسيات تعمل في مجال النفط والغاز)، في أواخر سبعينيات القرن العشرين، والتي توصلت إلى حقيقةٍ مفادها أن حرق الوقود الأحفوري (الفحم والنفط والغاز) يوشك أن يغير مناخ الأرض بشكل كبير. وتوقّعت تلك الأبحاث المبكرة ارتفاع درجات الحرارة على مستوى العالم، وتمكّنت من التنبؤ بدقّة بمستويات ثاني أوكسيد الكربون التي نشهدها اليوم.

وعندما بدأ العالم ينتبه إلى حقائق تغيّر المناخ، بحلول أواخر ثمانينيات القرن الماضي، وقفت شركة (إكسون) على

مفترق طرق: إما أن تكشف عن الحقيقة التي تعرفها بناءً على النتائج التي توصّل إليها علماؤها، وإما أن تسلك مساراً آخر هو مسار التعتيم، فاختارت بوضوح المسار الثاني.

واستكمالا لمسار التعتيم، صرفت (إكسون موبيل) خلال التسعينيات وأوائل الألفية، ملايين الدولارات على مراكز الأبحاث وجماعات الضغط التي قلّلت من مخاطر تغيّر المناخ، وشكّكت في العلوم التي اكتشفها باحثوها أنفسهم، مقررةً أن تسلك طريق "صناعة الشكّ". وعبر زرع بذور الشك بالمعلومات المضللة، وتعزيز عدم اليقين في العلوم، تمكّنت (إكسون موبيل) من تأجيل التدابير السياسية العامة التي قد تهدد أرباحها"[4].

نزاع حول الحقيقة

لعب الصحفيون الى جانب الباحثين دورًا حاسمًا في توفير معلومات دقيقة للجمهور حول ما تعرفه شركة (إكسون) وشركات الوقود الأحفوري الأخرى، عن مساهماتها الخاصة في تغير المناخ، وكيف قامت بإخفائها. وقد تحول ذلك الى أمر بالغ الأهمية لمساعي الحصول على تعويض للمتضررين.

بعد افتضاح أمر (إكسون)، طلب النائب العام في نيويورك، في عام 2015، بفتح تحقيق في الشركة، وأمرها بالكشف عن وثائق تظهر ما كانت تعلمه عن تغير المناخ وما قامت بإخفائه عن الجمهور.

وفي نفس العام، تم تقديم عريضة وقع عليها أكثر من 350 ألف مواطن أمريكي تطالب بإجراء تحقيق فيدرالي مع (إكسون).

وبدأت في عام 2017 مدن وولايات أمريكية مختلفة برفع دعاوى قضائية ضد (إكسون) وشركات الوقود الأحفوري الأخرى، مطالبة إياها بتعويضات عن الأضرار البيئية التي لحقت بها نتيجة لتغير المناخ، كما طالبت باتخاذ إجراءات عاجلة للحد من المزيد من الضرر. وقد استندت جميع الدعاوى القضائية على اتهامات بأن هذه الصناعة ضللت الجمهور عمدًا بشأن مخاطر حرق الوقود الأحفوري، مما أسهم في تفاقم هذه المشكلة.

لم تكن هذه المدن والولايات هي الوحيدة التي قاضت شركات الوقود الأحفوري، ولم تقتصر تلك القضايا على الولايات المتحدة فقط. ففي آذار 2023، نظرت المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان في قضية رفعها محامون يمثلون أكثر من 2000 امرأة سويسرية مسنة، اتهموا فيها سويسرا بأنها لم تتخذ الإجراءات الكافية للحد من انبعاثات الغازات الدفيئة، والعواقب المناخية، حيث جادل المحامون بأن أثارها تلحق أضرارًا خاصة بصحة المواطنين كبار السن.

وفي آب 2023، حصلت محاكمة مناخية رائدة، أصدر خلالها قاضي أمريكي حكمًا لصالح 16 مدعيًا قاصرًا، اتهموا ولاية مونتانا بإتلاف البيئة بسبب سياستها الموالية لصناعة الوقود الأحفوري، التي انتهكت أحكامًا من دستور الولاية تضمن "بيئة نظيفة وصحية".

لى صعيد آخر، تم توثيق أثر تغير المناخ على الشعوب الأصلية بشكل موسع. ورفعت عدة مجتمعات من السكان الأصليين دعاوى قضائية ضد شركات الوقود الأحفوري والحكومات، بما فيها تلك التي تعتمد بشكل

كامل على دورات الطبيعة للبقاء على قيد الحياة.
في عام 2020 انضم شعب واوراني في الإكوادور إلى مجموعة من منظمات المجتمع المدني في تقديم دعوى قضائية ضد شركة
(بترو أورينتال) لتسببها في تلوث الغلاف الجوي، وتأثيره المباشر على تغير المناخ.
وفي عام 2022، رفعت مجموعة من شباب السكان الأصليين في هاواي دعوى قضائية ضد وزارة النقل بسبب مشاريع البنية التحتية التي تزيد من استخدام الوقود الأحفوري، بدلًا من المشاريع التي تقلل من الانبعاثات.
وفي عام 2023، اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارًا بناء على طلب فانواتو(دولة جزرية في المحيط الهادئ) طلبت فيه من محكمة العدل الدولية ان تفحص الالتزامات القانونية للدول في حماية النظام المناخي، والعواقب القانونية المترتبة على الفشل في القيام بذلك، ولا سيما فيما يتعلق بالدول الجزرية الصغيرة النامية، والأجيال المستقبلية.

الأمم المتحدة والتضليل الإعلامي المنظم

في عام 2021،أعربت الجمعية العامة للأمم المتحدة عن قلقها من انتشار المعلومات المضللة والدعائية بشأن التغيرات المناخية، وطلبت من الأمين العام للأمم المحتدة أنطونيو غوتريش تقريراً عن الموضوع والموقف منه
واستجابة لطلب الجمعية العامة في قرارها المرقم 76/ 227، الصادر في كانون الأول 2021، أعد الأمين العام غوتيريش تقريره المرقم (A/77/287) ، والمؤرخ في أب 2022، وعنوانه: "مكافحة التضليل الإعلامي من أجل تعزيز وحماية حقوق الإنسان والحريات الأساسية "، بالاستناد الى معلومات وأدلة قاطعة، من عمل مفوضية الأمم المتحدة السامية لحقوق الإنسان، وآراء الآليات الدولية والإقليمية لحقوق الإنسان، بما في ذلك المعنيون المكلفين بولايات في إطار الإجراءات الخاصة، والى حلقة نقاش رفيعة المستوى لمجلس حقوق الإنسان (في 28 /6/ 2022) بشأن مكافحة الأثر السلبي للتضليل الإعلامي على التمتع بحقوق الإنسان وأعمالها، وبشأن ضمان التصدي للتضليل على نحو يراعي حقوق الإنسان.
وبيّن الأمين العام في تقريره التحديات التي يشكلها التضليل الإعلامي وتدابير التصدي له. وحدد كذلك الإطار القانوني الدولي ذا الصلة. كما ناقش التدابير المُبلغ عنها دولياً، وما اتخذته مؤسسات التقانة في التصدي للتضليل الإعلامي ومكافحته.
ولاحظ التقرير ان التصدي لشتى مظاهر التضليل الإعلامي يتطلب معالجة التوترات المجتمعية الكامنة، وتعزيز احترام حقوق الإنسان، سواء على شبكة الإنترنيت أو خارجها، ودعم الحيز المدني والمشهد الإعلامي التعدديين.
وأشار إلى أن التعامل مع المشهد الإعلامي الحديث وضمان نهوضه بحماية حقوق الإنسان بدلاً من تقويضها، هو من تحديات العصر الرقمي. وذكر بأن إحدى الطرق التي بإمكان الدول اعتمادها كي تساعد في الحد من المخاطر المرتبطة بالتضليل الإعلامي، تتمثل في تهيئة الظروف الملائمة لتعزيز حقوق الإنسان والتعددية والتسامح.
الى هذا، أعلنت الأمينة العامة المساعدة

لحقوق الإنسان إيلزي براندز- كيريس، في معرض تقديم تقرير الأمين العام إلى الجمعية العامة: "يأتي التضليل الإعلامي بأشكال شتّى، ويشمل العمليات المحدّدة الهدف التي تمارسها الدول ومسؤولوها، ونظريات المؤامرة بشأن السياسات الصحية واللقاحات، وحملات التشهير الرامية إلى تقويض مجموعات وأشخاص معينين، والعديد من أشكال التضليل الأخرى."..

من جهتها، ذكرت المقررة الخاصة المعنية بحرية الرأي والتعبير إيرين خان: " إذا لم تتمكن وسائط الإعلام المستقلة ذات النفع العام من البقاء موجودة - ناهيك عن الازدهار - فسيزدهر التضليل الإعلامي، ويزداد تعرّض الصحفيين للخطر، ويقوَّض حق المجتمعات في الإعلام"[5]

وأقرت الجمعية العامة ومجلس حقوق الإنسان بان تدابير التصدي لانتشار التضليل ينبغي ان تمتثل للقانون الدولي لحقوق الإنسان، وان تعزز وتحمي وتحترم حق الأفراد في حرية التعبير، بما في ذلك حرية التماس المعلومات وتلقيها ونقلها. ودعت الجمعية العامة ومجلس حقوق الإنسان الى حماية هذه الحريات، وتجنب التعدي عليها، وفق ما نصت عليه المادة 19 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والبند 1 من المادة 19 من (العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية)، ووجوب محاسبة الدول لأولئك الذين يروجون للكراهية القومية أو العرقية أو الدينية. ويتطلب البند 2 من المادة 20 من العهد تجريم الدعاية للحرب أو الدعوة إلى الكراهية القومية أو العنصرية أو الدينية التي تشكل تحريضًا على التمييز أو العداء أو العنف[6].

مبادرة دولية هامة لمحاربة حملات التضليل بشأن المناخ

على هامش قمة مجموعة العشرين أطلقت الأمم المتحدة والبرازيل "المبادرة الدولية لنزاهة المعلومات حول تغير المناخ" لتعزيز الأبحاث وجهود التصدي للتضليل الذي يهدف إلى تأخير وتقويض العمل المناخي. وتعد هذه المبادرة المشتركة إجراءً مهماً لتعزيز العمل المناخي العاجل في وقت يحذر فيه العلماء من أن الوقت ينفد أمام العالم في هذا المجال.

قال الرئيس البرازيلي لولا دا سيلفا إن جهود محاربة التغير المناخي تتأثر بشكل كبير بـ"الإنكار والتضليل" وهذه المبادرة ستجمع معا الدول والمنظمات الدولية والشبكات والباحثين لدعم الجهود المشتركة للتصدي للتضليل وتعزيز العمل تحضيراً لمؤتمر الأمم المتحدة الثلاثين للمناخ (COP30) المقرر في البرازيل في العام الجاري"[7].

من جهته، شدد الأمين العام للأمم المتحدة غوتيريش على ضرورة محاربة حملات التضليل المنسقة التي تعرقل التقدم الدولي في مجال المناخ. وأوضح أن تلك الحملات تتراوح بين إنكار حدوث التغير المناخي والتمويه الأخضر (أي الأساليب الخادعة وراء الادعاءات البيئية)، إلى مضايقة علماء المناخ. وقال: "عبر هذه المبادرة سنعمل مع الباحثين والشركاء لتعزيز العمل ضد التضليل المناخي"[8].

وقالت وكيلة الأمين العام للتواصل العالمي ميليسا فليمينغ إن المبادرة فرصة لمواجهة قوى التقاعس عن العمل.

وفيما تمت مناقشة المبادرة أوليا في إطار مجموعة العشرين، إلا أنها تعد عملا تعاونيا

متعدد الأطراف بين الدول والمنظمات الدولية لتمويل البحث والعمل لتعزيز نزاهة المعلومات حول القضايا المناخية.

ويذكر ان الدول التي ستعلن التزامها بالمبادرة ستساهم في صندوق تديره منظمة (اليونسكو) بهدف جمع تمويل أولي يتراوح بين 10 و15 مليون دولار خلال الأشهر الستة والثلاثين المقبلة. وسيتم توزيع التمويل بشكل منح على منظمات غير حكومية لدعم عملها في مجال نزاهة المعلومات بشأن المناخ، وتطوير استراتيجيات تواصل وتنفيذ حملات عامة لرفع الوعي في هذا الشأن.

وحتى الآن أكدت تشيلي، الدنمارك، فرنسا، المغرب، المملكة المتحدة والسويد المشاركة في المبادرة.

وكانت اللجنة الحكومية الدولية المعنية بالتغير المناخي (IPCC) قد أقرت بمخاطر التضليل وآثاره على تحقيق الأهداف المناخية. وقالت اللجنة في عام 2022 إن التقويض المتعمد للعلم يسهم في إعطاء صورة خاطئة حول الإجماع العلمي وعدم اليقين وإلحاح القضية.

وشددت أودري أزولاي، المديرة العامة لمنظمة اليونسكو، على أهمية الوصول إلى المعلومات الموثوقة حول تغير المناخ. وقالت: "عبر هذه المبادرة، سندعم الصحفيين والباحثين الذين يحققون في قضايا المناخ ويواجهون في بعض الأحيان مخاطر كبيرة، وسنحارب التضليل المرتبط بالمناخ المنتشر على وسائل التواصل الاجتماعي"[9].

تشكيك بالعلم وبالمخاطر التي يعيشها العالم

نشرت مجلة "مثر جونز""Mother Jones"الأميركية تقريراً تناول قضية الأخبار والمعلومات المضللة المتعلقة بالمناخ وأسباب سطوة هذه المعلومات على عقول الناس وانتشارها بينهم. وعرض بعض الأفكار بشأن مكافحتها.

وأشار التقرير، الذي أعدته كيت يودر، محررة الأخبار في موقع (Grist) الإخباري المتخصص في شؤون البيئة وتغيّر المناخ ، إلى إجماع العلماء منذ عام 1995 على وجود "تأثير بشري" على درجات حرارة الأرض مع عواقب "لا رجعة فيها"، وأن حرق الوقود الأحفوري أدى إلى اختلال مناخ الأرض.

وكتبت يودر إنه بعد مرور نحو 30 عاما على هذا التحذير، وفي هذا العام (2024)- وهو الأكثر سخونة على وجه الأرض منذ 125 ألف سنة- لا يزال الناس يُجادلون بأن العلم "غير جدير بالثقة" وأن التهديد "غير حقيقي" ولا ينبغي للبشر "التدخّل".

وأضافت أن بحثا حديثا أظهر أن فهم السبب وراء اقتناع الناس بالأخبار الكاذبة يساعد في معرفة كيفية تحصين الناس منها.

وأوردت يودر آراء للفيلسوف الأميركي آندي نورمان، الذي شارك في تأسيس "مشروع المناعة العقلية" الهادف إلى حماية الناس من المعلومات الزائفة، قال فيها إن الناس يقتنعون بالمعلومات المغلوطة لأسباب مختلفة. ومن بين ما قاله: إن الأمر يمكن أن ينتهي بالناس إلى تجاهل الحقائق المزعجة عندما يواجهون الحجج التي تدعم معتقداتهم، وإنه كلما زاد الاعتماد على المعتقدات المفيدة لهم على حساب المعتقدات الحقيقية، أصبح التفكير أكثر اضطرابا. وإن انجذاب الناس إلى نظريات المؤامرة يعود إلى شعورهم بأنهم أمام سر كبير وراء

التغيير في العالم. فعلى سبيل المثال يعتقد المقتنعون بنظرية أن الأرض مسطحة أنهم يرون ما هو أبعد من "الأوهام" التي لا تراها الغالبية العظمى.

وأوضحت يودر أن جزءا من المشكلة هو الجاذبية الحقيقية للأخبار الزائفة، فقد وجدت دراسة حديثة نُشرت في مجلة "نيتشر هيومان بيهافيور" Nature Human Behaviour أن المعلومات المضللة بشأن تغير المناخ كانت أكثر إقناعا من الحقائق العلمية. ونقلت عن توبيا سبامباتي، المشرفة على الدراسة، والباحثة في علم الأعصاب في جامعة جنيف، قولها: "إن التدخلات العلمية لم تنجح كما كان مأمولا، إذ كان لسيل الأخبار الزائفة تأثير أكبر".

ونقلت يودر عن إيما فرانسيس بلومفيلد، أستاذة الاتصالات في جامعة نيفادا في لاس فيغاس قولها: "من الصعب حقا التفكير في شخص لم يتعرض للتشكيك في المناخ أو من المعلومات المضللة من صناعات الوقود الأحفوري. فهي منتشرة للغاية. وأن المعلومات المضللة تنتشر لأسباب عديدة، وليس كافياً مجرد إخبار الأشخاص الذين يقعون ضحية لها بأن هناك إجماعا علميا على ذلك"، موضحة:" أنهم يشكون في تغير المناخ لأنهم يشكون في الهيئات العلمية. إنهم يتخذون قرارات بشأن البيئة ليس بناء على الحقائق أو العلوم، وإنما بناء على قيمهم، أو أشياء أخرى مهمة، ولهم فيها مصلحة ما. وإن من ينشرون الشكوك حول الحقائق العلمية لديهم مصالح مالية كبيرة، مثل شركات الوقود الأحفوري، ومتصيّدي منصات التواصل الاجتماعي، وحتى بعض الدول، وإن "نشر الشك" أسهل وأرخص بكثير من "نشر اليقين"[10].

وكشفت يودر إنفاق شركات النفط (شل) و(إكسون موبيل) و"bp"- عام -2023 نحو 4 - 5 ملايين دولار على إعلانات فيسبوك المتعلقة بالقضايا الاجتماعية والسياسية، لكسب ودها.

ورأت الباحثة سبامباتي إن الطريقة المباشرة لمحاربة المعلومات المضللة هي منع حدوثها في المقام الأول. ولكن حتى لو تمكنت الهيئات التنظيمية من إقناع منصات التواصل الاجتماعي بمحاولة وقف انتشار نظريات المؤامرة والأكاذيب، فإن إزاحتها قصة مختلفة. ويسعى أحد الأساليب الواعدة، وهو "الفحص العميق"، إلى إقناع الناس من خلال محادثات فردية غير قضائية[11].

تأثير المعلومات الخاطئة على العمل المناخي

لقد وجهت لشركات الوقود الأحفوري الكبرى، مثل "شل" و "إكسون موبيل" و"bp"، وكذلك لما عُرِفَ بـ "تحالف المناخ العالمي" (مجموعة ضغط دولية تأسست في نهاية الثمانينات من قبل شركات تعمل في قطاعات كثيفة للكربون. وتم حل التحالف في عام 2002)، اتهامات بتشويه سمعة علوم المناخ، وإخفاء مسار الاستثمارات في الوقود الأحفوري، عبر حملات وإعلانات تبعث على الارتياح، لكن دون سند علمي.

وتستند شركات النفط والطاقة على كيانات مثل "تحالف التمكين" في الولايات المتحدة و" تحالف المواطن من أجل طاقة مسؤولة في أوروبا "، حيث تعتمد مجموعات الضغط على تكتيك مخادع يدخل في

إطاره الإيحاء بأنها "حركات شعبية عفوية من أجل دعم الغاز الطبيعي"، بينما هي تشوه سمعة السياسات الخضراء. وتحصل هذه المجموعات على مصادر تمويل يكتنفها الغموض.

وعدا ذلك تقوم وسائل إعلام وسياسيون شعبويون بنشر معلومات مضللة عن تغير المناخ. فمثلا، عندما وقعت كارثة الإعصار الذي حمل معه أمطارا غزيرة وفيضانات في البرازيل وأسفر عن مقتل أكثر من 40 شخصاً، في أيلول 2023، ألقت أصوات معارضة للحكومة وصحفي بارز باللوم في الوفيات على انهيار السدود، في محاولة متعمدة لصرف الانتباه عن الجهود المبذولة للتخفيف من الآثار الشديدة لظاهرة الاحتباس الحراري[12].

وبين الباحث قاهِل شيرِن كيف يتلاعب الملوثون بمجال المعلومات لقمع الأصوات المعارضة، وتصعيد أزمة التغير المناخي، وكيف يعمل الأفراد على مقاومة ذلك. وكتب: "على الرغم من الإجماع الدولي على ضرورة معالجة تغير المناخ بشكل عاجل، إلا أن أنظمتنا السياسية عادة ما تفشل في تنفيذ الحلول الجذرية اللازمة للتصدي لهذه الأزمات البيئية. ويتم استبعاد معظم سكان العالم، ولا سيما أكثر الفئات تضررًا – مثل الشعوب الأصلية، والشباب، وذوي الدخل المحدود، وذوي الإعاقات – من عمليات صنع القرارات الحاسمة المتعلقة بالبيئة"[13].

وأوضح الباحث مارتن كوبلر كيف يتعمد منكرو ظاهرة التغير المناخي نشر معلومات كاذبة أو مضللة للترويج لأجندتهم الخاصة التي تتناقض مع علوم المناخ والسياسات الحكومية الرامية إلى محاربة تغير المناخ. ونقل تحذير الباحثين من مخاطر نشر المعلومات المناخية المضللة التي قد تؤثر على طريقة تفكير الناس حيال سبل حماية الأرض، قائلين إن ذلك يحدث عندما تقدم مجموعة من الأشخاص على نشر معلومات خاطئة أو بيانات غير دقيقة عن أضرار الوقود الأحفوري سواء أكان ذلك عمداً أو من غير قصد. وأن "الغسل الأخضر" من أبرز الأمثلة على ذلك، حيث ينطوي على نشر مؤسسات وشركات معلومات مضللة لإثبات التزامها بمكافحة تغير المناخ عبر استثمارات ومنتجات صديقة للبيئة. ويحدث التضليل المعلوماتي عندما يتعمد منكرو التغير المناخي، سواء أكانوا شخصيات، أو مجموعات، أو حتى منظمات رسمية، نشر معلومات كاذبة أو مضللة للترويج لأجندتهم الخاصة التي تتناقض مع علوم المناخ[14].

منصات التواصل الاجتماعي والتضليل الإعلامي

تواجه منصات التواصل الاجتماعي الكثير من الضغوط للحد من انتشار ظاهرة إنكار تغير المناخ وهي التي ساعدت على التضليل والتزييف العميق، وغيرها من وسائل التلاعب بالصور والمقاطع المصورة، في جعل نشر المعلومات الخاطئة أمرا سهلا، خاصة عندما يقترن ذلك بنظريات المؤامرة. وقد كشفت مجموعة "العمل المناخي ضد المعلومات المضللة" (تعنى بمراقبة المحتوى المناخي) عن تزايد وتيرة التغريدات المنكرة لظاهرة تغير المناخ المرفقة بوسم #ClimateScam بعد استحواذ إيلون

ماسك على منصة "تويتر" أو "إكس" حاليا. ويزعم منكرو ظاهرة تغير المناخ بأن الطاقة النظيفة "ليست مصادر موثوق بها"، رغم أن هذا الزعم تفنده الحقائق العلمية الجلية.

وخلال السنوات الأخيرة وجدت المعلومات المضللة طريقها إلى عمليات صنع السياسات العامة في العديد من دول العالم، لاسيما خلال حقبة الرئيس الأمريكي دونالد ترامب، الذي دأب على انتقاد مصادر الطاقة المتجددة، وشكك بعلوم المناخ، حتى بلغ به وصف ظاهرة الاحتباس الحراري بـ "الخدعة". وخلال رئاسته إنسحبت أمريكا من اتفاقية باريس لعام 2015، التي كانت ومازالت ركيزة تعزيز الاستجابة العالمية لخطر تغير المناخ، زاعماً " من شأنها تقويض الاقتصاد الأمريكي". وبعد أن أعاد الرئيس بايدن أمريكا الى اتفاقية باريس، عاد ترامب، في أول يوم لرئاسته الحالية، وأمر بالانسحاب من الاتفاقية، بذات الذريعة، وكذلك من منظمة الصحة العالمية وأوقف تمويلها، متعمداً شل عملها.

هذا في الوقت الذي يؤكد العلماء فيه إن البشر يواجهون تحديا غير مسبوق. فمع ارتفاع انبعاثات غازات الدفيئة ودرجات الحرارة العالمية إلى مستويات قياسية، أطلقوا تحذيرات من أن الوقت ينفد أمام معالجة ظاهرة الاحتباس الحراري. ويتفق معظم العلماء على ضرورة التحرك السريع. لكن المعلومات الزائفة والخاطئة المتعلقة بالمناخ تدفع بعض الناس إلى التشكيك في علم المناخ الذي خلص إلى حقيقة مؤكدة مفادها أن البشر وراء ظاهرة تغير المناخ، وليست الطبيعة.

وتقلل حملات التضليل المعلوماتي من الدعم الشعبي لسياسات مكافحة تغير المناخ، إذ ذكرت الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغير المناخ عام 2022 أن "الخطابات والمعلومات المضللة بشأن تغير المناخ والتقويض المتعمد للعلم، قد أسهمت في التصورات الخاطئة للإجماع العلمي، وعدم اليقين، وتجاهل المخاطر والإلحاح والاختلاف في الرأي"[15].

وفي إطار مكافحة التضليل المعلوماتي والإعلامي حول التغير المناخي، شدد خبراء على أهمية الجهود التي تقوم بها مجموعات مراقبة المحتوى المناخي والحكومات، بما في ذلك الاتحاد الأوروبي، والأمم المتحدة، والمنظمة العالمية للأرصاد الجوية، ومنظمة الصحة العالمية. وأشادوا بتكريس كبرى المؤسسات الإعلامية، مثل "دويتشه فيله"، الكثير من الجهد لإعداد تقارير تدحض المعلومات المناخية الزائفة[16].

غوغل وسياساته لمكافحة المعلومات المضللة

كانت شبكة غوغل Google قد أعلنت في عام 2021، عن سياسة جديدة تهدف إلى منع عرض الإعلانات بجانب المحتوى الذي يُنكر تغيّر المناخ وأسبابه العلمية، في إطار مساعيها لتعزيز الشفافية ومكافحة المعلومات المضللة. جاءت تلك السياسة كجزء من التزام الشركة بالحد من انتشار الأخبار الكاذبة، في عصر يشهد تصاعدًا مقلقًا في حجم المعلومات المضللة وغير الدقيقة.

ومع ذلك، كشفت تقارير حديثة أن تنفيذ هذه السياسة لم يكن بالفعالية المرجوّة، إذ لا تزال

العديد من المواقع التي تروّج لمعلومات غير صحيحة عن التغير المناخي تُحقق إيرادات من خلال منصات غوغل الإعلانية، وأشارت التقارير إلى أن الإعلانات لا تزال تظهر بجانب محتويات تُنكر تغيّر المناخ، مما يُعد تراجعًا عن الالتزامات التي أعلنتها الشركة سابقًا.

في ضوء هذه التطورات، وجّهت منظمات المجتمع المدني رسالة مفتوحة إلى سوندار بيتشاي، الرئيس التنفيذي لشركة غوغل، تطالبه بتشديد الرقابة على تطبيق السياسات المناهضة للتضليل المناخي. وقد حظيت الرسالة بدعم آلاف الموقّعين.

ودعت الرسالة غوغل إلى مراجعة سياساتها وتطبيقها بحزم لضمان عدم استفادة المحتوى المضلل من عوائد الإعلانات. كما أكدت على ضرورة اتخاذ خطوات حاسمة تتماشى مع مسؤولية الشركات التكنولوجية الكبرى في مواجهة التحديات المناخية والمعلوماتية. لتقليل تأثير المعلومات الكاذبة والخطيرة التي تُنكر واقع تغير المناخ وأسبابه[17].

وأشارت دراسة نُشرت في المجلة الأكاديمية (PLOS ONE Journal) بينت أنّ تكرار الادعاءات الزائفة والمشككة في علم المناخ، يزيد من قابلية تصديقها، حتى بالنسبة للأشخاص الذين يقبلون العلم ويشعرون بالقلق من أزمة المناخ.

وتُعد الدراسة، التي أجراها باحثون من الجامعة الأسترالية الوطنية، بقيادة الباحثة الرئيسية ماري جيانغ، بمثابة ورقة علمية عن الدراسة الأولى، التي تختبر تأثير البيانات على أزمة المناخ، إذ تسلط الضوء على مخاطر تكرار ومشاركة المعلومات المضللة[18].

من المعالجات المطروحة

ضمن المعالجات المطروحة، يرى الخبير د. طارق قابيل ان مكافحة المعلومات المغلوطة تتطلب تعاونًا بين العديد من الأطراف، بما في ذلك الحكومات، والشركات التكنولوجية، والمؤسسات الإعلامية. ومن الضروري أن تعمل هذه الأطراف معًا لوضع سياسات وقواعد تحد من انتشار الأخبار الكاذبة. ويمكن لهذه المؤسسات تبادل المعلومات والخبرات لتعزيز الجهود المشتركة في هذا المجال.

ويجب أن تكون التوعية المجتمعية جزءًا أساسيًا من استراتيجية مكافحة المعلومات المغلوطة. ويمكن للمؤسسات التعليمية أن تلعب دورًا كبيرًا في هذا الصدد من خلال تضمين مواد تعليمية حول التفكير النقدي والتحليل الإعلامي في المناهج الدراسية. وإن تعليم الطلاب كيفية التحقق من صحة المعلومات وتطوير مهاراتهم في التحليل يمكن أن يكون له تأثير طويل الأمد في بناء مجتمع واعٍ وناقد.

ولا يمكن تَجاهل الدور الذي يمكن أن تلعبه التشريعات والقوانين في مكافحة المعلومات المغلوطة. ومن المهم وضع قوانين تعاقب على نشر الأخبار الكاذبة عمدًا، وتشجع الشركات التكنولوجية على اتخاذ إجراءات صارمة ضد المحتوى المضلل. وينبغي أن تكون هناك معايير واضحة ومحددة لما يُعد محتوى مضللًا، وأن تكون هناك آليات فعالة للتحقق والتطبيق.

ورغم الجهود الجماعية المطلوبة، يبقى لكل فرد دور محوريٍ في التصدي للتضليل المعلوماتي. ويمكن للأفراد أن يسهموا من خلال ما يلي:

* التحقق من المصدر: التأكد من هوية الجهة التي نشرت المعلومة ودوافعها.
* ممارسة الشك المنهجي: التعامل مع المعلومات المثيرة للجدل بعقل مفتوح ولكن ناقد.
* مشاركة المعلومات الموثوقة فقط: عدم إعادة نشر المحتوى المشبوه.

وللمؤسسات الأكاديمية والبحثية دورها الكبير في مكافحة التضليل، حيث لعبت دورًا محوريًا في مواجهة التضليل المعلوماتي عبر إنتاج الأبحاث العلمية التي تدحض الادعاءات الزائفة، وتوفير مصادر موثوقة للجمهور وصناع القرار. ويمكن لهذه المؤسسات تعزيز تأثيرها من خلال:

1. إنتاج محتوى علمي موجه للعامة: من خلال تبسيط المصطلحات العلمية وجعلها أكثر فهمًا للجمهور غير المتخصص.
2. إنشاء قواعد بيانات موثوقة: تحتوي على دراسات محدثة وموثوقة، بحيث تكون مرجعًا لكل من يريد التحقق من صحة المعلومات.
3. الشراكات مع وسائل الإعلام: لتقديم مصادر موثوقة تُستخدم في تقاريرها مما يعزز ثقة الجمهور في الإعلام العلمي.
4. التوعية من خلال ورش العمل والندوات التي تشرح آليات التضليل وتكشف تقنياته[19].

خاتمة

كل ما أوردناه تتطلبه مهمة التصدي لمؤسسات ومراكز التضليل والخداع المأجورة، التي تواصل دورها المرسوم، الذي جعل "حرب الإعلام والمعلوماتية المضللة تشكل ثقلها وأهميتها في غسل الأدمغة والنفوس كذلك، ولا بد لنا من الانتباه إليها والعمل على كشفها وفضحها بكل الطرق والأساليب، التي نمتلكها على وفق حقائق منطقية واضحة وسليمة "[20].

وفي إطار التغيرات المناخية العالمية تواصل المنظمات الدولية المعنية جهودها الحثيثة لمكافحة التضليل الإعلامي على نطاق أوسع، آخذة بنظر الاعتبار الأساليب الخبيثة المتبعة، وعودة ترامب للرئاسة، وانسحاب بلاده من الاتفاقيات الدولية، والأكيد ان ضم أيلون ماسك لإدارته سيسعى لتبرير الانسحاب بإمكاناته التكنولوجية، وبما يشجع التصدي لعلم المناخ. وبالتالي مواصلة التأثير على الرأي العام رغم صعوبة نجاح التضليل المعلوماتي والإعلامي في يومنا هذا، حيث يهيمن العلم، والتطور التكنولوجي، ورصد الأقمار الصناعية، وتنامي الوعي البيئي، وإمكانية التحقق، وسهولة سرعة التأكد من صحة المعلومة.

مع وجوب الإلتزام بما أورده الأمين العام للأمم المتحدة في تقريره من ان مكافحة التضليل الإعلامي تتطلب استثماراً دائماً في بناء القدرة المجتمعية على الصمود واكتساب الدراية الإعلامية والمعلوماتية!

الهوامش

(1) انجي مجدي، العالم بحاجة إلى "محكمة مناخ" فمن يحاسب الأقوياء؟"، Independent عربية"،8 / 4/2023
(2) قرار أممي يطلب رأي محكمة العدل الدولية حول التزامات الدول تجاه المناخ،"أخبار الأمم المتحدة"، 29/3/2023
(3) طارق قابيل، "رحلة في عالم التحريف العلمي (7)"، "شبكة بيئة ابوظبي"، 29/11/ 2024.
(4) جوي سليم، التغيّر المناخي والمعلومات المضلّلة: كيف تحوّلت قضيّة البيئة إلى نزاع حول الحقيقة؟، "BBC Newsعربي"، 9/11/2024.
(5) حرية التعبير هي المفتاح لمكافحة التضليل الإعلامي، مكتب المفوض السامي، حقوق الإنسان، الأمم المتحدة، 3/ 11/ 2022.
(6) التضليل الإعلامي، مكافحة التضليل الإعلامي، الأمم المتحدة
https://www.un.org/ar/countering-disinformation
(7) الأمم المتحدة والبرازيل تطلقان مبادرة لمحاربة حملات التضليل حول المناخ، المناخ والبيئة: "أخبار الأمم المتحدة"،19 /11/2024
(8) المصدر نفسه.
(9)"أخبار الأمم المتحدة"، 7/11/2024.
(10) الأخبار الكاذبة عن تغيّر المناخ.. لماذا لا تزال فعالة جدا؟،"الجزيرة نت"، 27/12/2023
(11) المصدر نفسه.
(12) سليم.
(13) فاهل شيرن، محاربة تلوث المعلومات لتعزيز بيئة أكثر صحة،" 28/9/2023،"IFEX
(14) مارتن كوبلر، التضليل المعلوماتي اتجاه مضاد لجهود مكافحة التغير المناخي،"28/1/2024 ،"DW
(15) المصدر نفسه.
(16) كوبلر.
(17) فاطمة حماد، دعوات لتعزيز سياسات مكافحة غوغل للمعلومات المضللة مع اقتراب مؤتمر المناخ، "مسبار"، 26/7/2024.
(18) بيان حمدان، دراسة: تكرار المعلومات المضللة المرتبطة بأزمة المناخ يزيد من إمكانية تصديقها، "مسبار"،13/8/2024
(19) قابيل.
(20) حسب الله يحيى، في التضليل المعلوماتي ،"الصباح"،3/12/2024

هل اندماج الإنسان بالآلة حتمي أم خيال علمي؟

طالب عبد الأمير

نعم، يقول المستقبليون من أنصار التطور التكنولوجي الخارق، سيحدث هذا التحول خلال العقدين القادمين. وهم يؤكدون، بما لا يقبل الشك، على أن تطور الذكاء الاصطناعي سيوصلنا قريباً الى ما أُصطلح عليه بـ"التفرد" وهي الحالة التي ستزول عندها كافة الفروقات بين الانسان والآلة، عندما تتجاوز تقنية الذكاء الاصطناعي القدرات البشرية. "في عالم كهذا ستجد القدرات البشرية نفسها، وقد أُعيدت صياغتها من لدن تكنولوجيا النانو والعلوم وتكنولوجيات الدماغ. حتى يتكوّن لدينا انطباع أن وراء هذا التجديد لـ (مشروع الإنسان) فكرة مفادها - أن التكنولوجيا تستحق امتلاك وضع اعتباري معادل للطبيعة، وهي رؤية تلتقي مع نظيرتها لدى العلماء الذين يرون أننا مقبلون على نهضة ثانية من شأنها أن تمهد الطريق لتحسين الإنسان أو تعزيزه"[1]. أو ربما ايضاً انهاءَ دوره تماماً والانتقال الى مرحلة ما بعد الانسان، او ما بعد الإنسانية Posthumanas كما يشير البعض.

وفي تنبؤاتهم وتقديراتهم لحتمية التفرد ينطلق المؤمنون بتطور الذكاء الاصطناعي، من التقدم لهائل الذي احرزته تطبيقاته الملموسة في مجالات مختلفة إذ إنهم يتوقعون من خلاله سيتم حل مشكلات البشرية كالحروب والأمراض والمجاعات والضجر وحتى القتل. فيما توقّع آخَرون نهاية البشرية، أو على أية حال نهاية الحياة التي نعرفها.

راي كورزويل، أحد أهم فرسان الذكاء الاصطناعي، تنبأ ومنذ سنوات بقدرة الكومبيوتر لتحقيق الغايات المرجوة "مجرد أن يصل الكومبيوتر الى مستوى الذكاء البشري سوف يصبح بمستطاعه تجاوز الذكاء. وقد فاقت الكومبيوترات منذ ظهورها القدرات العقلية البشرية في قدرتها على تذكر ومعالجة البيانات. الكومبيوتر يستطيع أن يتذكر مليارات، بل تريليونات البيانات بالكامل، في حين أننا نجد صعوبة في تذكر بضعة أرقام هواتف، كما أن الكومبيوتر يستطيع في أجزاء من الثانية أن يبحث بسرعة في قاعدة بيانات فيها مليار من المعلومات. وتستطيع الكومبيوترات بسهولة ان تتبادل قواعد المعرفة. والمزيج من

الذكاء الذي يعادل الذكاء الانساني والتفوق الطبيعي للكومبيوترات في السرعة والدقة والقدرة على تبادل المعلومات سيكون مزيجاً مخيفاً"[2].

كورزويل توقعأيضاً بأن الكومبيوتر سوف يكون في متناول الجميع، حيث ستتضاعف قدراته مع الابقاء على تكلفته، وذلك اعتماداً على "قانون مور للدوائر الكهربائية المتكاملة"[3] وفق هذا القانون سيتضاعف عدد الترانزستورات في الدائرة المتكاملة، وستزداد سرعتها الى حد كبير مع الابقاء على كلفتها. وهذا ما حصل بالفعل. فقد تسارعت الحوسبة خلال السنوات الاربعين الماضية. يقول كورزويل الذي لاحظ أن عدد الترانزستورات على شريحة المعالج (في الكومبيوتر) يتضاعف تقريبا كل عامين في حين يبقى سعر الشريحة على حاله، كما تزداد الكومبيوترات كفاءة واداءً للوظائف. وقد ادت هذه الملاحظة إلى البدء في عملية دمج السيليكون بالدوائر المتكاملة مما ساهم في تنشيط الثورة التكنولوجية في شتى أنحاء العالم. كما تنبأ الباحثون أن هذه النظرية من الممكن تطبيقها لعقد آخر من الزمان على الأقل.

تطور مذهل وصادم في ذات الوقت

يختلف المهتمون بتطور الذكاء الاصطناعي بشأن حالة "التفرد" في امكانية حدوثها ومتى يمكن ان يحصل هذا التطور، والأهم من كل ذلك هو هل سيكون شيئاً لصالح الانسان ام سيئاً بالنسبة له. والمتفائلون يميلون الى ان التقدم المحرز في مجال الذكاء الاصطناعي يجعل "التفرد" أمراً مناسباً في حال الوصول اليه لحل جميع المشكلات التي تعاني منها البشرية اليوم. هذا ما تنبأ به كوريزويل في كتابه بعنوان (التفرد قريب) في العام 2005، وحدد فيه الفترة التي ستؤشر الى تاريخ حضاري مختلف قادم ينهض بالإنسان الى مديات واسعة. متوقعاً بأن الذكاء الاصطناعي العام سيتحقق بحلول عالم 2045 "سيتميز النصف الأول من القرن الحادي والعشرين بثلاث ثورات متداخلة - في علم الوراثة وتكنولوجيا النانو والروبوتات. هذه سوف تستهل ما أشرت إليه سابقا باسم العصر الخامس، بداية التفرد"[4].

من علم الوراثة فهمنا العمليات الكامنة وراء الحياة، "بدأنا في تعلم إعادة برمجة بيولوجيتنا لتحقيق القضاء الافتراضي على المرض، والتوسع الكبير في الإمكانات البشرية، وإطالة العمر الجذري. وستمكننا تقنية النانو من إعادة تصميم وإعادة بناء أجسادنا وأدمغتنا والعالم الذي نتفاعل معه، جزيء تلو الآخر، يتجاوز بكثير حدود علم الأحياء". لكن الثورة الأقوى الوشيكة، هي الروبوتات على المستوى البشري مع ذكائها المستمد من ذكائنا ولكن أعيد تصميمه لتتجاوز بكثير القدرات البشرية. يمثل هذا التحول الأكثر أهمية، لأن الذكاء هو أقوى "قوة" في الكون"[5]، كما يقول كوريزويل.

وفي رأي رايكورزويل، "التفرد" فريد حقًا، وقريب بالفعل. وكان الكتاب رداً ضمنيا على الذين أعلنوا خوفهم من جعل الآلة تتفوق على الانسان.

وفي حالة تحقق ما ذكره كورزويل لم يعد ثمة فرق بين "انسنة التكنلوجيا أو تكنلجة الانسان"[6]، فكلاهما يسير بشكل متوازي، اذ ان مفردات هذه التكنولوجيا مصنوعة من روح الانسان ومن ألياف جسده، ولذلك فهي مؤنسنة أصلاً وعند بلوغ هذه العملية

الى نقطتها النهائية وهي اندماج الانسان بالآلة وتكوين لحظة التحول الانفرادي لم يعد بعدها، ثمة فرق بين الانسان والآلة. هذا الطرح بحد ذاته صادم لبعض الباحثين العاملين في مجالات العلوم الطبيعية وقد جرى التنبيه اليه خلال الموجةً العالمية التي جرت في العام 2014، حيث أخطرَ ثلاثة من الفيزيائيين المشهورين وهم ستيفين هوكينج، ماكس تيجمارك، وفرانك ويلتشك، بالإضافة الى ستيوارت راسل، أحد اهم رواد الذكاء الاصطناعي الى ان ذلك سيكون أعظم حدث في تاريخ البشرية لكنه مجال بحث قد يُشكُل تهديداً محتملاً لأبناء الجنس البشري. "إن تجاهل تهديدات الذكاء الاصطناعي قد تكون أسوأ خطأ لنا علي الإطلاق. الآلات ذكية ما دامت فعالها يُتوقّع منها أن تُحقِّق غاياتها. ولأن الآلات، على عكس البشر، ليست لها غاياتها الخاصة، فنحن من نُودعها الغايات. بمعنى آخر؛ نحن نبني آلاتً تتوخى أمثل الحلول فنودع فيها ما نريد منها ما تحقّقه من أهداف، ثم نُطلقُها[7].

فيما عبر بيل غيتس، مؤسس شركة ميكروسوفت ورئيسها السابق، وهو أحد كبار المستثمرين الذين وظفوا الاموال الطائلة في تطور الذكاء الاصطناعي. عن خشيته من قدرة الذكاء الاصطناعي الخارق قائلاً انه يشعر بالقلق إزاء الذكاء الخارق، معبراً عن رغبته في بقاء الروبوتات غبية إلى حد ما. كان ذلك في العام 2015. لكن بيل غيتس عاد في العام 2023 ليقول في مقابلة مع شبكة س اي ان الأميركية، ان " الذكاء الاصطناعي سيجعل حياة الجميع أسهل، لافتا إلى أن أكثر ما يميز هذه التكنولوجيا هو عدم وجود حاجة إلى أجهزة جديدة لاستخدامها، حيث يمكن الوصول إليها بسهولة عبر "الهاتف أو الكومبيوتر الشخصي المتصلين بالإنترنت"[8].

وفي العام 2015 وصف المستثمر الكبير إيلون ماسك الذكاء الاصطناعي بأنه من أعظم المخاطر التي تهدد الوجود البشري، وقد شبه تطوير الآلات الذكية "باستحضار الشيطان". وماسك نفسه وهو مؤسس مشروع صواريخ الفضاء التجارية سبيس إكس، وسيارات تسلا الكهربائية، ومؤخراً موبايل تيسلا الذكي جداً، والمقدّر له بتجاوز "آيفون" يستثمر ملايين الدولارات في أبحاث لاكتشاف المخاطر المحتملة للذكاء الاصطناعي وكيفية التعامل معها. ثم عاد بعدها ليقول "إن هناك "إجماعا ساحقا" على ضرورة وضع لوائح تحكم الذكاء الاصطناعي، وذلك عقب اجتماع ضم كبار الشخصيات في قطاع التكنولوجيا في واشنطن لمناقشة هذه القضية المهمة.

توقعات بالأدلة الملموسة

لما يقرب من ستة عقود، ظل منظرو الذكاء التكنولوجي وفي مقدمتهم راي كورزويل يقدمون الأدلة واستقراءات المستقبل للتأكيد على قدرة اجهزة الكومبيوتر، وبوتيرة نموها المتسارع في تعميق دور التكنولوجيا في مستقبل البشرية. وصفت هذه الاجهزة بالآلات الروحية التي ستعتبر سمة اساسية للعصر الحديث، عندما تتجاوز هذه الاجهزة الذكاء البشري. وكل هذا مبني على فرضيات رياضية وفيزيائية ومجتمعية ونفسية أثبتت العلوم صحتها. هذا إذا اخذنا جدلاً أن عصر التطور التكنولوجي السريع بدأ مع الكومبيوتر، الذي يعتبر أعظم انجاز توصل اليه العقل البشري حتى تلك اللحظة، وقد

أصبح لاحقا جزءا من حياتنا اليومية، وعلى اساسه تغيرت الكثير من المفاهيم التي كانت سديمية عن الكون وطبيعته.

وفي كتابه بطبعته الجديدة العام 2024 الذي سماه "التفرد أقرب –عندما نُدمج في الذكاء الاصطناعي"، يستكشف كورزويل الخطوة التالية في هذه العملية التطورية. " أننا نعيش الآن في عصر جديد من التطور. في كتابي (التفرد قريب) كنا في المراحل الاولى من هذا التحول، والآن ندخل ذروته- الأميال الأخيرة على طول الطريق للوصول الى ذلك الأفق. خلال العقد المقبل، سوف يتفاعل الناس مع الذكاء الاصطناعي الذي يبدو بشرياً بشكل مقنع، وسوف تؤثر واجهات الدماغ والحاسوب البسيطة على الحياة اليومية تماماً كما تفعل الهواتف الذكية اليوم. وسوف تعمل الثورة الرقمية على علاج الأمراض وإطالة حياة الناس الصحية بشكل هادف[9]. يكتب هذا لافي مقدمة كتابه دون ان ينسى المنغصات التي ترافق هذا التطور: "فسيشعر العديد من العمال بلسعة الاضطراب الاقتصادي، وسوف نواجه جميعاً مخاطر سوء الاستخدام العرضي أو المتعمد لهذه التقنيات الجديدة"[10].

وحسب المعطيات المشار اليها آنفاً، يؤكد الخبير بالفيزياء النظرية وأحد رواد المستقبل، البروفيسور ميتشيوكاكو، على أن المستقبل حافل بالعديد من المفاجئات السارة للبشرية، "أبرزها القضاء على امراض مستعصية مثل السرطان، كما أن الكومبيوتر سيكون اداة يستخدمها الانسان الى حد كبير، وستكون كلفة شريحته في السنوات القادمة منخفضة جداً. وستُصنع عدسات لاصقة في بؤبؤ العين، وبمجرد ما يرمش الشخص المزود بها، ستوصله بشبكة الانترنيت. فلم يعد بإمكاننا اجبار الطلاب على حفظ كل شئ، فيما يمكنهم أن يرمشوا ويحصلوا عليه. اما في الطب فلو شعرت بالمرض فلا عليك سوى ان ترمش فترى طبيباً آلي جانبك. الطبيب الالي هو ذكي اصطناعياً، ويتحدث جميع اللغات، ويبحث في الانترنيت عن نصيحة طبية ملائمة بصورة مجانية تقريباً. وهذا من شأنه أن يشكل ثورة في المؤسسات الطبية ستكون متوفرة في كل مكان. وليس هذا فحسب، بل سيكون لدينا أطباء، ولكن هؤلاء الاطباء سيستخدمون الأطباء الآليين كمساعدين"[11].

أما الشيء الآخر الذي سيتحول الى رقمي هو الدماغ: " قبل عامين (ويقصد الباحث في العام 2021) تمكن العلماء من تحميل الذكريات لأول مرة من الانترنيت وتنزيلها على الكومبيوتر. وعوضاً عن الخوارزميات المبنية على ارقام 1001، وبدلاً عن النصوص ستوضع عواطف ومشاعر واحاسيس وذكريات"[12]. البرفيسور كاكو يذهب بعيداً في نظرته المتفائلة للذكاء الاصطناعي في الروبوتات. "هذا المجال الذي سينمو بشكل ضخم. من الممكن الآن انشاء متجر لأعضاء جسم الانسان، بالإمكان خلق جلد، غضروف عظام، انوف، آذان، اوعية دموية، المثانة. ويمكن زراعة انابيب هوائية كاملة في المختبر. والفكرة التالية هي زراعة الكبد"[13]. بمعنى آخر قطع غيار بشرية.

الذكاء الاصطناعي يفاجئ صناعه

هذا التطور المتسارع لتقنية الذكاء الاصطناعي وتحوله الى الخارق، ومقدرته

على تطوير ذاته دون تدخل الانسان، عكس ردة فعل صادمة لدى العاملين في هذه التقنية. حيث أُكتشف ان برنامج "شات جي بي تي Chat GPT"، الخاص بالذكاء الاصطناعي بنسخته الرابعة المتطورة[14] قام تلقائيا بطرح اشياء مغلوطة، ومنها مضللة، بل وعنصرية. كما أصبح يستخدم المعلومات والبيانات الشخصية الخاصة بمستخدمي البرنامج لأغراض غير صحيحة. الأمر الذي استدعى قيام لجنة من الباحثين في ميكروسوفت لدراسة هذه التطورات وتبين ان هذا البرنامج بنسخته الرابعة Chat GPT 4 تحولمن الذكاء الاصطناعي العادي، الضيق الذي يستخدم منذ فترة في مجالات محددة، مثلا في الترجمة وتحليل البيانات النصية فقط، الى العام. بمعنى أن هذا البرنامج أخذ يتصرف بشكل تلقائي، متجاوزاً مهمته المحدودة في معالجة مجال واحد فقط. كبرنامج لعبة الشطرنج الذي يمكنه الفوز فيها على البشر. أو تشخيص الامراض أو تطبيقات التعرف على الصوت مثل Siri وGoogle Assistant، المستخدم في التلفونات الخلوية الذكية وما الى ذلك. وهي الأدوات المدرجة تحت مسمى الذكاء الاصطناعي الضيق Narrow AI ولم يكن لأحد أن يتوقع، ان سيصل بهذه السرعة من التطور الى مستوى الذكاء الاصطناعي العام، AGI، ويصبح قادراً على فهم وتعلم وتطبيق المعرفة عبر مجموعة واسعة من المهام، بما فيها الفكرية - تماماًكما الإنسان. بل ولديه القدرة وأكثر من ذلك. انه أخذ يعمل كل شيء يطلبه منه المستخدم، وبدون ضوابط وقيود. مما شكل خشية من عواقب التمادي في تطوير هذه التقنية الفريدة خلال المرحلة الراهنة على الاقل.

وفي نهاية آذار العام 2023 وقع أكثر من 1000 خبير ورئيس شركة عالمية معروفة رسالة مفتوحة وصل عدد من وقع عليها أكثر من 33000 طالبوا فيها وقف العمل في تطورات هذا البرنامج لمدة ستة أشهر. جاء فيه "ندعو جميع مختبرات الذكاء الاصطناعي إلى التوقف الفوري عن تدريب أنظمة ذكاء اصطناعي أقوى من جي بي تي GPT-4 لمدة لا تقل عن ستة أشهر. يجب أن يكون هذا التوقف علنياً وقابلاً للتحقق وشاملا لكل الجهات الفاعلة. وإن تعذر سنّ مثل هذا التوقف بسرعة، يجب على الحكومات التدخل وفرض حظر مؤقت"[15].

الا ان الشركات لم تستمع لهذا النداء واستمرت في بحوثها المتطورة. غير انه وبعد يومين من إطلاق النداء أمرت الحكومة الايطالية بمنع استخدام برنامج تشات جي بي تي في ايطاليا، وذلك لأن هذا البرنامج بدأ يستغل البيانات والمعلومات الشخصية دون ان يسأل. كما انه لم يطلب من الباحث عن المعلومات الموافقة على استخدامها، لم يطلب من المستخدم الافصاح عن عمره، فلذلك يمكن لأطفال ان يدخلوا البرنامج ويطلبون معلومات تكون اجاباتها صادمة واشياء سيئة وما غير ذلك[16].

لكن أهم ردة فعل إزاء هذا التطور الذي جاء مفاجئاً للجميع جاء من جيفري هنغتون، الذي يطلقون عليه لقب عرّاب الذكاء الاصطناعي، فقد أصدر بياناً ارسله الى صحيفة نيويورك تايمز اشارفية الى استقالته من شركة "غوغل" ليتح له العمل بحرية. ونقلت الصحيفة عن هنغتون قوله، "انه قلق من ان العواقب الاجمالية لهذا التطور الذي

يقود الى أن تكون هناك انظمة أكثر ذكاءً منا تتولى السيطرة. في النهاية فأنا لست سوى مجرد عالِم أدرك فجأة أن هذه الاشياء أصبحت أكثر ذكًاء منا "مفصحاً عن خشيته من بعض مخاطر روبوتات الدردشة الذكية، التي وصفها بـ "مخيفة للغاية"[17].

وجفري هنتون هو المؤسس الأول لمجال "التعلم العميق"، وهو آلية بمستطاعها العمل بصورة مستقلة على تحديد خصائص البيانات وتصنيفاتها. هذا الابتكار التقني الذي يعد أحد أهم أدوات الذكاء الاصطناعي ويستخدم اليوم في الشبكات العصبية الاصطناعية، التي توصل اليها هنتون والتي حصل بسببها على جائزة نوبل في الفيزياء، للعام 2024 مناصفة مع زميله جون هوبفيلد، الذي توصل هو الآخر الى ابتكار بِنية شبكية حوسبية قادرة على تخزين المعلومات وإعادة هيكلتها، وهي ذاكرة ترابطية يمكنها تخزين وإعادة بناء الصور وأنواع أخرى من البيانات المرئية وفي معرض تقيمهما لمنح الجائزة وحيث قالت لجنة نوبل في بيانها: "إن العالِمين الفائزين بجائزة نوبل في الفيزياء لهذا العام استعانا بأدوات من علم الفيزياء لتأسيس منهجيات أسهمت في إرساء الأسس التي ارتكزت عليها تقنيات تعلُّم الآلة، والتي تحظى بتأثير واسع في عالم اليوم". وأضافت: صحيح أن الحواسيب لا تملك القدرة على التفكير، لكن بات في إمكان هذه الآلات اليوم أن تحاكي مَلَكات بعينها، مثل التذكُّر والتعلُّم. والعالِمان الفائزان بجائزة نوبل في الفيزياء لهذا العام قد أسهما في فتح الباب أمام هذه الإمكانيات؛ انطلاقًا من مفاهيم وأساليب فيزيائية أساسية، نجحا في تطوير تقنيات تعتمد على بنًى شبكية بعينها من أجل معالجة البيانات". إن الإنجازات التي حققها الفائزان بجائزة نوبل في الفيزياء لهذا العام ترتكز على أسس العلوم الفيزيائية. وقد أظهرا لنا طريقةً جديدةً تماماً لاستخدام أجهزة الكمبيوتر لمساعدتنا وإرشادنا للتعامل مع العديد من التحديات التي يواجهها مجتمعنا، وبفضل عملهما أصبح لدى الإنسانية الآن عنصر جديد في صندوق أدواتها يمكنها استخدامه لأغراض جيدة، ويُحدث التعلم الآلي القائم على الشبكات العصبية الاصطناعية حاليًا ثورةً في العلوم والهندسة والحياة اليومية. وهو فرع من تعلم الآلة يتضمن طبقات متعددة من الشبكات العصبية التي تعمل معاً للتعرف على ميزات متزايدة التعقيد في البيانات، وقد أصبح التعلم العميق تقنيةً أساسيةً وراء تطبيقات الذكاء الاصطناعي، مثل التعرف على الصور، ومعالجة اللغة الطبيعية[18].

في بداية العام 2024 طرح في الاسواق كتاب " الذكاء الاصطناعي غير قابل للتفسير، غير قابل للتنبؤ وخارج عن السيطرة"، اورد فيه المؤلف رومان يامبولسكي، وهو باحث ومحاضر في الذكاء الاصطناعي افكارا متشائمة من هذا التطور المتسارع. وفي تعليقه على توقع الخبراء بأن الذكاء الاصطناعي في طريقه نحو ذكاء ووعي لا يشبه وعي البشر وذكائهم، بل سيتفوق عليه بمليارات المرات، قال، "ان الوعي عند البشر لا يمكن قياسه تماماً ولكن يكون عمليا حقاً، ان نفترض ان الناس واعون، ولكن ليس هناك اختبارا لذلك. ولذا نحن لا نتحدث عادة عن الوعي بقدر ما نتحدث عن سلامة الذكاء الاصطناعي. لأنه ليس مهماً في الحقيقة ما إذا كان النظام واعياً ام لا. ما يهم هو قدرته. هل هو اذكى منك؟ هل يمكنه التفوق عليك

في المجالات الاكثر اثارة للاهتمام؟ حسناً. ولكن ما الذي يكمن ان يفعله بهذه القوة؟ أمر لا يمكننا التنبؤ به. لا اعرف بالضبط مصدر القلق"[19].

القلق من التطور السريع الذكاء للاصطناعي بات الشغل الشاغل لعدد غير قليل ممن تفاءلوا بقدرات الذكاء الاصطناعي وما زالوا يؤمنون به، الا انهم يحذرون من مغبة التمادي في منح الآلة صكاً مفتوحاً دون حدود وضوابط، وشروط تأتي في مقدمتها ابقاء الذكاء الاصطناعي تحت سيطرة الانسان. هذا الحديث ليس وليد الساعة، بل رافق الحذر من امكانية ان يتجاوز الذكاء الاصطناعي قدرة البشر منذ البداية. ففي ستينات القرن الماضي توجس بعض الباحثين الرواد من إمكانية أن تتجاوز الآلة القدرات البشرية. أحد هؤلاء ستيوارت راسل. ففي كتابه (ذكاء اصطناعي متوافق مع البشر- حتى لا تفرض الآلات سيطرتها على العالم) ينطلق راسل من فكرة الذكاء في البشر والآلات، ويُعدِّد التطوُّرات التي يجب أن تَحدُث في عالَم الذكاء الاصطناعي قبل أن نصل إلى الذكاء الاصطناعي الخارق. الذي سيمكننا من بناء حضارة أعظم وربما "أفضل بمراحل كثيرة. ولكن علينا مواجهة المشاكل التي تتسبب فيها استخدام الذكاء الاصطناعي للإساءة، بدءًا من المراقبة والتحكم بمصائر الناس، من خلال تتبع المكالمات والحادثات النصية ومعرفة التاريخ الوظيفي والصحة، وربط خيوط جميع الوسائط الحاملة للمعلومات والبيانات الشخصية لاستخدامها كوسيلة للتحكم بسلوك الفرد، مروراً، بأنواع التزييف والخداع، ووضع خوارزميات انتقاء المحتوى عبر منصات التواصل الاجتماعي وغيرها وصولاً الى الأسلحة الفتَّاكة الذاتية التشغيل (نظم الأسلحة التي تحدد موقع الأهداف البشرية وتصوّب عليها دون تدخل بشري) وحتى صنع الفيروسات"[20].

ولكنه ورغم المخاوف فراسل يؤكد على تفاؤله بالوصول الى الذكاء الخارق الذي " إن حدث فسوف يكون إيذاناً بعصر ذهبي للبشرية. غير أننا يجب أن نعي حقيقة أننا نخطط لابتكار كيانات تفوق البشرَ ذكاءً. والسؤال هنا هو: كيف نَضمَن ألا تسيطر علينا تلك الكيانات؟"[21].

اللحظة الراهنة تدق ناقوس الحضارة

يتفق معظم العاملين في مجال الذكاء الاصطناعي على تحوله من الضيق الى العام إلى الخارق قبل نهاية هذا القرن. ولكنهم يختلفون فقط في تصور العواقب والتداعيات التي سيؤدي إليها حصول "الذكاء الاصطناعي الخارق". وهي التقنية لتي زودها الانسان، ليس فقط بمفاصل تركيبته البشرية وتكوينه العام، بل وحتى شبكته العصبية ونسيجه الحيوي وخارطته الجينية، فخلق منه بديلاً له في طريقه نحو التحول من ذكاء اصطناعي عام يحاكي قدرة الانسان في بعض من أنشطته، عبر الروبوتات، على سبيل المثال الى "ذكاء اصطناعي خارق". وعندها يقوم هذا الذكاء باتخاذ قرارته بمعزل عن الانسان، بل وحتى بالضد من ارادته. وبذلك تنشأ الحالة المسماة بما بعد الإنسانية او: Posthumanism وما بعد الإنسان: Post-human هو مصطلح يحمل معاني متعددة، نظرا لشموليته وارتباطه بماهية الوجود. وهو أطروحة تنظر الى الفلسفة الإنسانية التقليدية نظرة مغايرة لما تحمله من

افكار وعادات بشرية. وهو فرع من نظرية ثقافية تنتقد الافتراضات الانسانية وإرثها وفق المفاهيم التاريخية والطبيعة البشرية، بل ويشكل تجاوزا لها ارتباطاً بالنمو المتواصل وباضطراد وغير الطبيعي للتكنلوجيا الحديثة، التي تحمل في طياتها ادوات إطالة امد الحياة، ليس من خلال تعزيز القدرات الجسدية والفكرية والنفسية، لدى الانسان فحسب، وانما استبدال هذه القدرات بذكاء اصطناعي عام، كما يطرح بعض الفلاسفة[22].

وها هي فكرة الذكاء الاصطناعي الخارق، الذي يساعدنا على تجنب الكوارث المادية وتحقيق الخلود واختراع السفر بسرعة تفوق سرعة الضوء. ان كانت هذه الاشياء ممكنة الحصول، كما سينقل حضارتنا البشرية نقلةً كبيرة، بل يخلق حضارةً جديدة تماماً. فاليوم الذي نخلق فيه ذكاء اصطناعياً خارقاً سيكون مماثلا من نواح كثيرة، لليوم الذي تصل فيه كائنات فضائية من حضارة أكثر تطورا من حضارتنا إلى كوكبنا، لكنَّه في الغالب هو الأقرب للحدوث وربما الأمر الأهم أنَّ الذكاء الاصطناعي هو شيء نملك زمامه إلى حد ما، على عكس الكائنات الفضائية[23].

لكن هذا الطرح المتفائل جداً، يقابله خوف من مصير مبهم، من تجاوز الذكاء الاصطناعي القدرات البشرية وخروج الآلة عن سيطرة الانسان. والسؤال الذي يجب أخذه بعين الاعتبار، هل الجميع يفهم عن ماذا يتحدثون؟ هل ثمة ذكاء اصطناعي واحد، ام عدة ذكاءات؟ حتى نأتي بأجوبة على هذه التساؤلات، لنتعرف عن قرب وباختصار شديد على أبرز مفاصل ومحطات الذكاء الاصطناعي Artificiellintelligens الذي يعرّف إجمالاً بأنه فرع من علوم الحاسوب يهدف إلى إنشاء أنظمة قادرة على أداء مهام تتطلب ذكاءً بشرياً. كالتعلم، الاستنتاج، التخطيط، الفهم اللغوي، والتفاعل البشري. ويمكن للذكاء الاصطناعي محاكاة القدرات العقلية البشرية مثل التعلم من التجارب السابقة، التعرف على الأنماط، واتخاذ القرارات.

نظرة خاطفة الى الوراء

تمتد جذور هذه التقنية الى العام 1943 عندما نشر العالمان وارن مكولوتشو والتر بيتس بحثًا مهمًا حول الخلايا العصبية الاصطناعية، والذي يعتبر أحد الأسس النظرية للذكاء الاصطناعي. قدم البحث نموذجاً رياضيًا لشبكة من الخلايا العصبية البسيطة التي يمكن أن تحاكي عملية التفكير في الدماغ. وفي العام 1950 أجري عالم الحاسوب آلان تورينغ: تجربة لتحديد ما إذا كانت الآلة تستطيع التفكير بشكل مشابه للبشر. سميت "اختبار تورينغ". في العام 1956 تم تنظيم مؤتمر في كلية دارتموث في نيوهامبشير، الولايات المتحدة. حضره علماء من مختلف المجالات، من بينهم "جون مكارثي"، الذي أطلق مصطلح "الذكاء الاصطناعي على تطوير آلات يمكنها "التفكير" مثل البشر. لكن الذكاء الاصطناعي شهد نهضته في ثمانينات القرن الماضي مع تطوير "الشبكات العصبية الاصطناعية" وظهور أجهزة الحاسوب القادرة على تشغيل خوارزميات أكثر تعقيدًا. وجرى استخدام الذكاء الاصطناعي في مجالات مثل التمويل والتصنيع. وفي العام 1997 سجلت تقنية الذكاء الاصطناعي تطوراً كبيرًا عندما استطاع الكمبيوتر "Deep Blue" من

شركة IBM هزيمة بطل العالم في الشطرنج "غاري كاسباروف"، حيث أظهر الذكاء الاصطناعي امكانية التغلب على البشر في بعض المهام المعقدة. لكنه مع بداية القرن الحالي تطورت هذه التنقية بشكل كبير مع "التعلم الآلي" والتعلم العميق، والتي تعتمد على الشبكات العصبية العميقة وخوارزميات تعلّم تعتمد على البيانات.

كما شهد العقد الاول تطورات هائلة بفضل توافر كميات ضخمة من البيانات وزيادة قدرة الحوسبة. فتم استخدام الذكاء الاصطناعي في السيارات ذاتية القيادة، ومن ثم التعرف على الصوت والصورة المتحركة (فيديو|) فضلاً عن إنشاء النصوص ومعالجة اللغة الطبيعية NLP (البشرية) والرؤية الحاسوبية.

لكنه في السنتين الأخيرتين 2023 - 2024 أحدث تطور تقنية الذكاء الاصطناعي قفزات كبيرة، في التعلم واقامة التجارب والتحليلات والتوصل الى الاستنتاجات ووضع الحلول وغير ذلك من القدرات، التي تسامت بالذكاء الاصطناعي الآلي ما يعرف بالذكاء الاصطناعي التوليدي، او التخليقي، الذي أغرى الشركات الأميركية في وادي السليكون، وتحديدا فيسبوك وغوغل، وأبل على الاستثمار وتكثيف الأبحاث فيه.

تطور الذكاء الاصطناعي وحالة "التفرد"

وبموازاة هذه التطورات أصبح مفهوم "التفرد التكنولوجي" أحد أكثر الأفكار إثارة وتحديًا في مجال الذكاء الاصطناعي والتطور التكنولوجي. ومؤشرا الى نقطة افتراضية في المستقبل القريب جداً، حين يتجاوز الذكاء الاصطناعي قدرات البشر العقلية، مما يؤدي إلى تغييرات جذرية في جميع جوانب الحياة. يرتبط هذا المفهوم بسرعة التطورات في الذكاء الاصطناعي لدرجة يصبح معها النظام قادراً على تحسين نفسه بشكل مستقل، وتوليد تقنيات جديدة تكتسب معرفة عالية الدقة وبسرعة فائقة.

كان الاعتقاد السائد قبل عشر سنوات تقريبا، بأن الوصول الى هذه المرحلة يحتاج فترة زمنية طويلة، الا ان معطيات الواقع وسرعة تطور آليات الذكاء الاصطناعي جعل القائمون عليها يعيدون حساباتهم والخروج بنتيجة مفادها أن الوقت قصير جداً.. وبينما يرى البعض ان توجيه الذكاء الاصطناعي المتفوق نحو أهداف إنسانية، قد يؤدي إلى اكتشافات ثورية في جميع مجالات الحياة الانسانية يرى آخرون أن المخاطر المرتبطة به قد تكون هائلة.

ومن أهمها. المخاوف من أن يكون التفرد التكنولوجي غير قابل للسيطرة، فيُستخدم الذكاء الاصطناعي المتطور أنظمة تفكر بطريقة لا يمكن للبشر فهمها، ما يؤدي إلى احتمالات خطيرة مثل تحكم الذكاء الاصطناعي في البنية التحتية الحيوية أو تطوير أسلحة تفوق قدرة البشر بالرد عليها. اضافة الى تأثير التفرد التكنولوجي على سوق العمل إذا ما أجريت أتمتة شاملة لجميع الوظائف مما يسبب في اختفاء الكثير منها.

بالرغم من أن الذكاء الاصطناعي قد يخلق فرصا جديدة لكنه يعتبر تحدياً كبيراً للحكومات والمؤسسات التعليمية. وقد يؤدي تجاوز الذكاء الاصطناعي للقدرات البشرية، إلى تحديات فلسفية حول مكانة الإنسان في الكون. كيف نعرّف الإنسانية في عالم توجد فيه كائنات ذات ذكاء يفوق البشر؟ كيف سيكون التعامل مع الحقوق والمسؤوليات

الأخلاقية في عالم تسيطر فيه التكنولوجيا؟ وهكذا يظل التفرد التكنولوجي موضوعًا مثيراً للنقاش والتحليل، حيث يطرح إمكانيات هائلة لتحسين حياة البشر من ناحية، ويثير مخاوف كبيرة حول السيطرة والمخاطر الوجودية من ناحية أخرى. وعلى الرغم من أن حدوثه لا يزال موضوعاً نظرياً، فإن وتيرة التطور التكنولوجي السريعة تجعل منه أكثر أهمية من أي وقت مضى. إذ لم يبق سوى خمس سنوات، حسب ''المنحنى الأسي لراي كورزويل'' لذا يتوجب على الحكومات والمؤسسات البحثية والمجتمع بشكل عام الانخراط في نقاشات عميقة حول كيفية إدارة هذا التحول المحتمل لضمان تحقيق أقصى فائدة مع تقليل المخاطر المحتملة. وعند حدوثه ستنهار جميع التصورات حول ما ستؤول اليه علاقة الانسان بالآلة أو بصورة أدق نهاية الانسان بهيئته الحالية. والتعامل من الآن مع ما ''بعد الانسانية'' أو ''ما بعد الانسان''.

الهوامش

(1) مايستروتي مارينا، هل التفردية التكنولوجية طريق إلى ما بعد الإنسان؟ مقال ترجمة: محمد أسليم
https://midouza.net/?p=536

(2) راي كورزويل، عصر الآلات الروحية- عندما تتخطى الكومبيوترات الذكاء البشري، ترجمة عزت عامر، ط 2، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة 2009، ص 18.

(3) قانون مور، انظر:
https://ar.wikipedia.org

(4) Ray Kurzweil، The Singularity is Near‹. Penguin Group، USA، 2005، pp. 135–136.

(5) Ibid.، p. 170.

(6) للمزيد راجع: عبد الأمير طالب، أنسنة التكنولوجيا وليس تكنلجة الإنسان؟، الثقافة الجديدة العدد 430 أيار 2022.

(7) راسل ستيوارت، ''ذكاء اصطناعي متوافق مع البشر''، ترجمة مصطفى محمد فؤاد واسامة اسماعيل عبد العليم، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2022، ص 183.

(8) بيل غيتس، الذكاء الاصطناعي سيغير حياتنا خلال خمس سنوات: صحيفة الشرق الاوسط 17 يناير 2024.

(9) Ray Kurzweil The Singulasrity is Nearer-When We Merig with AI، Penguin Random House، USA، 2024، p. 17.

(10) Ray Kurzweil p 17

(11) موتشيمو كوكو، تسجيل صوتي في يوتوب، من محاضرة له في منتدى ابوظبي الدولي اكتوبر 2023.

(12) نفس المصدر.

(13) نفس المصدر.

(14) الجيل الاول، والثاني والثالث من برنامج Chat Gptشات جي يتي، أحد أكثر البرامج شهرة للذكاء الاصطناعي يعالج المعلومات النصية فقط، فيما تمكن الجيل الرابع من هذا البرنامج، الذي تستخدمه ''ميكروسوفت'' في الذكاء الاصطناعي ومحرك البحث الخاص بها ''بينغ'' للتعرف على الصور والصور المتحركة فيديوهات.

(15) https://futureoflife.org/open-letter/pause-giant-ai-experiments/

(16) https://www.bbc.com/news/technology-65139406

(17) https://www.bbc.com/arabic/science-and-tech-65356473

(18) https://www.nobelprize.org/prizes/physics/2024/221989-press-release-swedish/

(19) الوجه المظلم والمخيف للذكاء الاصطناعي؟، بودكاست الشرق، يوتوب سبتمبر 2024.

(20) ستيوارت، ص 181.

(21) المصدر نفسه، ص 20.

(22) Francesca Ferrand ،https://www.existenz.us/volumes/Vol.8-2Ferrando.pdf

(23) ستيوارت، ص 14.

قراءة في كتاب "محنة الوعي في عالم مضطرب"

أ.د. سناء عبد القادر مصطفى

يتميز هذا الكتاب بتحليل موضوعي لفترات تاريخية تخللت حياة المؤلف تشمل تغيرات جذرية في وعيه للمحيط الخارجي الذي يحيط به وكذلك المحيط العائلي الذي ولد وترعرع فيه.

وهنا لا ينسى تأثير والده عليه من حيث تربيته واعتباره نموذجا للإنسان القوي المثابر والذي لا ينحني للمصاعب (وهو كأب – مهما اختلفنا معه بالمقاييس والسلوك- قام بواجبه الأبوي بشرف ووفر لأبنائه ما استطاع من ظروف النجاح، وإذا كان من قصر بحقه فهم أبنائه) (ص95).

ولهذا احتل تاريخ العائلة سدس الكتاب، حوالي المائة صفحة الأولى. لم يسمح مجيد الراضي لأي شخص (بالتحامل على أبيه بمناسبة أو غير مناسبة مع أنه عبر له أكثر من مرة عن امتعاضه.. الخ ولا حتى من أقرب الأصدقاء مثل غانم حمدون) (ص 95).'' آلمني أن بعض الأصدقاء – وأخص غانم حمدون – كان يتحامل على أبي بمناسبة أو غير مناسبة – مع أني عبرت له أكثر من مرة عن امتعاضي، وكان قاسيا عليه حتى في عذابه وهو يواجه الموت ويعاني سكراته طيلة أسبوعين مما خلف في نفسي ندوباً عميقة '' (ص95).

وقبل ذلك وفي نفس الصفحة حينما لفظ الشهيد متي الشيخ (عبارة بذيئة بحق والدي الذي يبخل علي بشراء سيارة حينما قال بغضب واضح كيف تتجرأ على نعت والدي بهذه الصفة البذيئة. خجل مني واعتذر، وقال لي أن الحق يقع على أخيك عبد الله) (ص 95).

حاول الكاتب بكل جهده أن يصيغ أسلوب الكتاب بحيث يكون بسيطا وسلسا يشد القارئ اليه دون ضجر أو ملل ولا يوجد فيه اطناب. وكذلك أن يكون صريحا في طرحه للمواقف التي مر بها دون تزويق لفظي ومجاراة للصداقة أو القرابة أو العلاقة الحزبية ايمانا منه بأن هذا الأسلوب هو الأسلوب العلمي الصحيح الذي يطرح الحوادث كما هي بشكل موضوعي ولخدمة التاريخ وللأجيال القادمة.

الدخول الى المعترك الأدبي

ليس من السهولة بمكان دخول المعترك الأدبي في العراق في بداية خمسينيات القرن العشرين الذي كان يتصدره الجواهري والزهاوي والرصافي وغيرهم من الشعراء والأدباء ولكن مع ذلك فقد تمكن من نشر قصيدة بعنوان "مصباح الخنى" في جريدة الجهاد التي كان يصدرها الجواهري آنذاك في العام 1951 وكان عمره لا يتجاوز الثامنة عشر سنة ومنذ ذلك الوقت واصل النشر في صحف الجواهري بين فترة وأخرى (ص 98-97).

كان نشاطه الأدبي والفكري لا ينفصلان عن نشاطه السياسي، بل كانا شيئا واحدا (ص 99). وانطلاقا من ذلك فقد ضحى بمطامحه الأدبية بانغماره في العمل السياسي ولم يندم على ذلك.

وبرر ذلك بإيراده مثال (الحلزون الذي لابد له من أن يخرج من قوقعته ليتذوق طعم ما يقتات عليه، أما القنفذ فالليالي المقمرة هي التي تدعوه للمغامرة الوجودية، ولكن احساسه بالخطر يجعله كرة شائكة يصعب فكها على المعتدين) (ص99). ولهذا نراه مشاركا في انتفاضة تشرين الثاني 1952 والمؤتمر السادس للحزب الوطني الديمقراطي الذي عقد في تشرين الثاني 1953 في قاعة سينما النجوم في بغداد ولم يكن في حينها منتميا للحزب الوطني الديمقراطي ولكن حضره مع مجموعة من الشباب الوطني الديمقراطي حتى يستمعوا الى خطاب الزعيم الوطني الديمقراطي الأستاذ كامل الجادرجي (ص99).

وكذلك واكب النهوض الشعبي الذي رافق انتخابات العام 1954 وأدلى بصوته فيها. "وقد انتعش المزاج الجماهيري بعد أن حققت الجبهة الانتخابية الوطنية عشرة مقاعد في البرلمان، الأمر الذي أصاب الرجعية العراقية بالذعر فحلت البرلمان ودعت الى انتخابات جديدة قاطعتها الأحزاب السياسية والرأي العام" (ص100). يعرج بعدها المؤلف على الاحداث التاريخية التي هزت العراق وأهمها ثورة 14 تموز 1958. ومرورا بدراسته الجامعية في دمشق بعد أن أنهى الدراسة الإعدادية في العام 1955 ومع أنه كان مقبولا في الجامعة الأمريكية في بيروت وحتى اعفائه من السنة الدراسية الأولى التحضيرية إلا أنه حينما وصل دمشق انبهر بجو الحرية فيها وقام بالتسجيل في الجامعة السورية بكلية الحقوق والاستقرار في سوريا.

واصل نشاطه الأدبي خارج العراق حيث انفتحت أمامه "آفاق النشاط الأدبي والسياسي الديمقراطي على مصراعيها"(ص108). فقد كتب في عدة صحف ودخل في سجال مع الأديب حسيب الكيالي حول حركة الشعر العراقي الحديث والقصيدة الجديدة لأن الجمهور الادبي لا يعرف سوى عبد الوهاب البياتي فقام بالكتابة عن بدر شاكر السياب ونازك الملائكة والشعراء الشباب الآخرين. كان ينشر القصائد والمقالات السياسية بتوقيع "الأصمعي البغدادي في جريدة الطليعة لصاحبها ورئيس تحريرها المحامي عدنان الملوحي" (ص108).

في حزيران العام 1956 عاد مجيد الراضي الى بغداد بعد أن قطع اجازته حتى يواصل عمله في السكك الحديدية واستغلت المنظمة الحزبية هذه الفرصة فأرسلت معه رسالة كبيرة الى قيادة الحزب مع العلم أنه لم يكن

مرتبط حزبيا بالمنظمة الحزبية العراقية في سوريا ولكنه كان محسوبا عليها على الرغم من المجازفة التي كان من الممكن أن يتحملها لو اكتشف الأمر(ص110).
وبعد ثورة تموز حاول مواصلة الدراسة الجامعية في العراق فاتصل بصديقه عزالدين مصطفى رسول الذي كان يدرس في دمشق للحصول على شهادة من دائرة التسجيل في الجامعة السورية ولم يكن يعرف أنه سبب له الكثير من المضايقات والأسئلة من قبل دائرة التسجيل في الجامعة التي تحولت الى دائرة للمخابرات في زمن الوحدة بين سوريا ومصر(ص110).

تأثير ثورة 14 تموز 1958 على الكاتب

لم يولد اخماد انتفاضة تشرين الثاني 1956 في نفس مجيد الراضي "وفي نفوس أقرانه من الشباب سوى الإصرار على مواصلة النضال والاحساس العميق بأن الانتفاضة القادمة سوف تكون الفاصلة في المعركة مع النظام الملكي...الخ" (ص112).
كانت كل المؤشرات تؤكد على أن العراق مقبل على تغيرات نوعية في النظام السياسي والاقتصادي وحتى الاجتماعي بعد انتفاضتي العامين 1952 و1956 وذلك بدا واضحا من المذكرة التي قدمها مجموعة من السياسيين العراقيين البارزين الى الملك فيصل الثاني في تشرين الثاني سنة 1956 شرحت فيها الأوضاع في العراق وما حوله، حيث تناولت حلف بغداد بالنقد وركزت على سياسة نوري السعيد العدوانية إزاء حركة التحرر الوطني العربية وشجبت العدوان الثلاثي على مصر...الخ (ص113).
وقع المذكرة 35 من رجال السياسة بينهم محمد مهدي كبة (حزب الاستقلال) وكامل الجادرجي (الحزب الوطني الديمقراطي) ومحمد رضا الشبيبي (الجبهة الشعبية)... الخ (113).
كما قدم مذكرة الى الملك فيصل الثاني مجموعة من أساتذة التعليم العالي موقعة من 52 أستاذا من رجال الثقافة والعلم في المعاهد التدريسية العليا في العراق، تطرقوا فيها الى الوضع التعليمي والاضطهاد الواقع عليهم وعلى الطلبة ونتائجه الوخيمة وطالبوا بالمبادرة الى تصحيح الأوضاع (ص114).
أكد البيان الأول لثورة 14 تموز 1958"على تأليف حكومة تنبثق من الشعب، وأن نظام الحكم يكون جمهورية شعبية تتمسك بالوحدة العراقية الكاملة وترتبط برباط الأخوة مع الدول العربية والإسلامية وتلتزم بمبادىء الأمم المتحدة وبالعهود والمواثيق الدولية لما فيه مصلحة الوطن ومقررات مؤتمر باندونغ" (ص118).
" يقول عزيز سباهي في كتابه عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي ما يلي: كان من شأنه أن يزيد من دائرة الذين سيتشاورون لقيادة الحكم وتوجيهه ويحد على الأقل من فردية عبد الكريم قاسم ونزعته الديكتاتورية، ويخفف من حدة الصراع بين عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف، وإن كان من المتوقع أن يجر المسيرة نحو اليمين المحافظ أكثر بحكم أن أغلبية أعضاء اللجنة العليا للضباط الأحرار الذين سيتألف منهم مجلس قيادة الثورة هم من القوميين المحافظين الذين تشربوا بروح العسكرة وينفرون من الشيوعية والتقاليد

الديمقراطية "(ص119). وهذا ما كلف الحركة الوطنية العراقية والحزب الشيوعي العراقي ثمناً باهضاً في المستقبل وانقلاب 8 شباط الدموي الذي راح ضحيته الآلاف من التقدميين والديمقراطيين والشيوعيين.

لم يدخل الدكتور مجيد الراضي في جدال عقيم ما إذا كانت 14 تموز 1958انقلابا ًعسكرياً أم ثورة لأن الثورات تقاس بمنجزاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وكان لثورة تموز باع طويل في جميع الميادين. وشغل ممثلون من الأحزاب السياسية مواقع مهمة في التشكيلة الحكومية (ص120).

"لقد أطلقت الثورة طاقات لن تكن في الحسبان وطرحت مفهوما جديدا على الساحة السياسية العراقية هو مفهوم الثورة الاجتماعية وتطمين مصالح العمال والفلاحين والطبقات الفقيرة وزيادة حصتها من الدخل الوطني .....وهذا ما أجج الصراع الطبقي وحول معظم القوى التي كانت بالأمس القريب في صفوف الشعب مدافعة عن مصالحه الى قوة جذب رجعية معرقلة آثرت أن تبدد قوى الثورة في مسارات غير مجدية، وبذلك خدمت أهداف الثورة المضادة من الناحية العملية"(ص121).

هناك الكثير من المحطات التي من الضروري التوقف عندها لمعرفة سيرة حياة المؤلف والمواقف الحرجة التي مر بها وخصوصا علاقته وعمله داخل الحزب الشيوعي العراقي وفي مجلة السلم والاشتراكية ومجلة النهج. وعمله عضوا في المجموعة المشرفة على انتخابات برلمان كردستان في العام 1992(ص247).

في نهاية التسعينيات من القرن العشرين اقترح عليه فخري كريم الاشراف على تحرير مجلة "النهج" وكذلك الاشراف على مطبوعات دار المدى والمساهمة في تحرير مجلة "المدى" الذي كان الشاعر سعدي يوسف يرأس تحريرها(ص263).

العمل في مجلة قضايا السلم والاشتراكية

إن تجربة عمل الكاتب في مجلة قضايا السلم والاشتراكية لمدة 20 سنة (ص420) غنية بالمعلومات والحقائق عن طبيعة العمل فيها والعلاقات بين العاملين فيها من مترجمين وكتاب وصحفيين وإداريين من مختلف الدول سواء كانت اشتراكية أو عربية أو أفريقية أو من أمريكا اللاتينية. وكيف أدارت إدارة المجلة ظهرها للعاملين فيها من الاحزاب الشيوعية في البلدان العربية وقامت بوضع العراقيل أمام حصولهم على مكافئة نهاية الخدمة، إذ حصل تفاوت فيها مقارنة مع السوفييت. " لقد انتهى الصراع الأيديولوجي مع العدو، وبدأ الصراع المطلبي مع الرفيق والصديق، وقد كشف ممثلو الأحزاب الشيوعية في المجلة أنهم أشد عداء للعاملين من الرأسماليين ولا أقول هذا جزافا، فقد خضنا صراعا ضاريا من أجل مكافأة إنهاء الخدمة. وهي مكافأة بائسة في كل الأحوال، وأن المسؤولين السوفييت الذين ضمنوا للعاملين من مواطنيهم – وهم الكثرة الكاثرة في المجلة – وضعا جيدا، فقد عادوا الى وطنهم وأعمالهم السابقة، وكانت شروط عملهم مناسبة، فهم بالإضافة الى رواتبهم التي كانوا يتقاضونها بالعملة التشيكية كانوا يتقاضون نسبة معينة من رواتبهم بالروبل لتسديد نفقات عوائلهم في الوطن. أما نحن العاملون في

القسم العربي فلم يكن أحد يتقاضى سوى مرتبه"(ص422).
ثم يضيف المؤلف: "ولا يفوتني في هذه المناسبة أن أذكر أن المؤسسة الغرباتشوفية قد ضمنت ولاءهم من البداية وقدمت لهم من الامتيازات مالم يكونوا يحلمون بها إذ وفرت لهم كمية كبيرة من الأدوات الكهربائية، التلفزيونات والراديوهات، والكاميرات المتنوعة ومختلف الأدوات البيتية بأسعار زهيدة وسمحت لهم بنقله إلى الوطن دون مساءلة وبإعفاء من الضرائب الجمركية" (ص423).
حصلت ساجدة علوان حسن زوجة الدكتور مجيد على تسع رواتب لقاء خدمة خمسة عشر عاماً في حين حصل الدكتور مجيد على أحد عشر راتبا (ص427). "بقيت مسألة واحدة هي أن المجلة كانت تعطينا 10% من رواتبنا بالعملة الصعبة. رفضوا بعناد أن يمنحونا هذا الامتياز وسلمونا الجزء المحسوب بالعملة التشيكية فقط"(ص427).
" كان حديث التعويضات يدور في كل مكان بين الرفاق العرب وتصور الجميع أننا حصلنا على ثروة كبيرة. وكان الرفاق القادمون من الشام يتحدثون عن مبالغ خيالية. كنت أسمع هذه التقديرات وأضحك سراً وعلناً" (ص427).
كان على الكاتب وزوجته " إيجاد مورد جديد للرزق وتدبير أمر الإقامة القانونية في البلاد، في حين يرى القادمون الجدد الى السلطة أننا غرباء ثقلاء على البلاد موالون للنظام السابق إن لم نكن عملاءه كما يدعي البعض ويطالب بطردنا استنادا لذلك، ويحيل اقامتنا الى جحيم عسى أن نهرب في ليل أسود " (ص428). وهذا ما حدا بالمؤلف بكتابة رسالة باللغة العربية الى رئيس الجمهورية التشيكية الجديد وقتذاك الكاتب المعروف فاتسلاف هافل ترجم نصها الى اللغة التشيكية شرح فيها حالتهما الصعبة من جميع النواحي هو وزوجته وأرسل النصين في رسالة مسجلة ولكنه لم يستلم الجواب ولا حتى اشعارا باستلامها (تاريخ كتابة الرسالة : براغ في 7 /1 /1991) (ص428).
ومن الجدير بالذكر أن الكاتب تسلم " تحذيرا "بالقتل أو الترحيل بالقوة بالتعاون مع السفارة العراقية في براغ " ومنظمات ودولة عربية " على حد تعبير التحذير الذي كتبه " وطني " مجهول الهوية والاهداف. حسبما ورد في نص الرسالة (ص431). ومن هنا يتضح للقارئ الظروف الصعبة والوضع النفسي للدكتور مجيد وزوجته.

مواضيع مهمة تناولها المؤلف

يحتوي الكتاب الذي بين أيدينا الكثير من المواضيع المهمة التي تناولها المؤلف والتي تستحق الوقوف عندها والتأمل فيها كونها تتناول تاريخ العراق السياسي بشكل عام وبشكل خاص تاريخ الحزب الشيوعي العراقي والأحزاب الوطنية الأخرى وحركة التحرر الوطني العربية ومنها على سبيل المثال لا الحصر:
- المعارضة العراقية والوضع في كردستان هما الحلقة المركزية في السعي لإقامة حكم ديمقراطي في العراق ص 463.
- قراءة أولية في البيان الختامي لمؤتمر طهران ص 469
- الموقف من حركة الشعب الكردي التحررية ص 474

- حركة التحرر الوطني العربية في ضوء الديمقراطية السياسية ص 477
- الطريق الى حل الأزمة العامة في بلادنا ص 525
- محاولة لتقييم سياسة الحزب الشيوعي العراقي في فترة التحالف مع حزب البعث ص 564.

هذا الكتاب جدير بالقراءة ويستحق الثناء ومن الكتب التي من الضروري أن توجد في المكتبة العربية حتى يكون في متناول يد الباحث والانسان المتعطش لمعرفة صفحات كثيرة من تاريخ العراق وأحزابه الوطنية.

عنوان الكتاب: محنة الوعي في عالم مضطرب
المؤلف: الدكتور مجيد الراضي
الناشر: دار الرواد المزدهرة، بغداد، 2022
عدد الصفحات 600 صفحة.

نصوص قديمة

الثقافة والقمع والديمقراطية*

زهير الجزائري

أبدأ من مشهد تلفزيوني:
الرئيس صدام حسين جالساً على كرسي مذهّب من طراز لويس السادس عشر وأمامه على مسافة أقل قليلاً من المسافة بين نوابه ووزرائه، صفوف من الادباء، بعضهم شاب شعره في عهد البعث والبعض الآخر فتح عينه وتعلم الكتابة تحت حكم الحزب الواحد والقائد الواحد. الرئيس لديه فكرة. وتتفرخ أفكار الرئيس من ذاته، من التأمل، كما الأحلام، ولذلك يحتاج الأدباء بالتحديد، لأنهم الأقدر على فهم التأمل وبلورته. لم يكن هذا اللقاء الوحيد للرئيس بالكتّاب. ففي فترة لا تزيد على الشهر (شباط الماضي) كان قد التقى الكتّاب البعثيين ومكتب الثقافة في الحزب. لهجة الرئيس هذه المرة هي مزيج من الود والحزم:
ما هي الأسباب التي تمنع مبدعي الشعب العراقي من تأرخة ملحمتهم البطولية في اطار ثقافة تاريخية بعيدة نسبياً عن الفكر النظري والستراتيجي وقريبة من الشارع والجمهور؟
السؤال ينطوي على اقرار ضمني بأن الفكر النظري والستراتيجي الذي كان وراء حربين أو كان الغطاء العقائدي لهما، لم يقنع الشارع والجمهور بما آلت اليه الأمور، ولذلك مطلوب من الادباء بما يملكونه من قدرة على التأثير من خلال الكلمة والصورة، أن يردموا هذه الفجوة. ودون أن يدري اعترف صدام للأدباء بسلطة ما، لا تتوافر للسياسي الذي يقود الدولة حتى لو توفرت له القدرة

على التفكير النظري والستراتيجي. فالأديب وفق هذه الفرضية معني بأسئلة الوجود، في حين ان السياسي معني بالأسئلة التي تتعلق بتطبيقات الواقع، وزمن السياسي فيزيائي مباشر، يتعامل مع الحقائق الجزئية، ويصل الى هدفه بالقطعة، في حين ان زمن الكاتب تاريخي يتصل بالحقيقة الكلية.

سلطتان

ليست هذه الفرضية ابتكاراً خالصاً للقائد، فقد ولدت مع ولادة الدولة العراقية. فالملك فيصل الاول القادم من الجزيرة ثم دمشق افتقر الى جذور ملكية في التربة العراقية الصعبة، وقد جمعه مع المثقفين مشروع واحد هو بناء الدولة الحديثة، في مواجهة الحملة الطائفية التي شنها رجال الدين الشيعة، ولمواجهة ضغوط شيوخ القبائل الذين اصطفوا مع سلطات الانتداب ضد مشروع الملك.

لذلك عين الكثير منهم في الوظائف العليا من الجهاز الاداري: الجواهري في تشريفات البلاط، فهمي المدرس عميداً لجامعة آل البيت، الرصافي مفتشاً عاماً في وزارة المعارف، حسين الرحال مترجماً في وزارة الدفاع وزميله محمود السيد سكرتيراً لمجلس النواب. ولم يواجه المثقف خلال العقدين الذهبيين تلك العقدة المستديمة بين ذاته المعارضة ووجوده في جهاز الدولة. الأسماء المذكورة شكلت أبرز رموز المعارضة في زمنها، وامتلكت سلطة معرفة منفصلة وأحياناً متعارضة مع سلطة الدولة.

وقد أدرك المثقف سلطته على الناس الذين ماعادت تكفيهم سلطة الملالي وبلاغة الجامع، وراحوا بعد ثورة العشرين وخلال الحرب العالمية الثانية يبحثون عن الأفندية، قراء الجرائد في المقاهي. ورغم شحة معارف هذا الافندي فإن أية معرفة عندما تصل الناس تثير أسئلة وتحرض وتدخل صلب علاقات الفرد بالجماعة وتتحول الى ممارسة اجتماعية، أي انها تتحول الى سلطة حين تدخل حيز التطبيق. ولكن الثقافة لا تستطيع ان تحقق مفعولها من خلال صومعة التأمل ولا من تجمعات المحلة، انما تحتاج الى أجهزة ومؤسسات، ومن يتحكم بهذه الأجهزة ليس المثقف نفسه.

حين كانت هناك نواة مجتمع مدني في العهد الملكي لم تكن السلطة متحكمة بكل أجهزة المعرفة. لديها قائمة من الممنوعات، لكنها لم تمتلك السلطة الايديولوجية التي تتيح لها التأثير على المثقف الذي يعمل في جهازها، ولذلك كان المثقف قادرا على الوصول لجمهوره من خارج هيمنة السلطة، وكان يمارس عمله الثقافي كهواية بلا مردود، في حين يعتمد على وظيفة مثل التعليم، وتأتي سلطته كمثقف من ثقافته، وليس من علاقته بجهاز الدولة، أي من شعور أكبر عدد من الناس بأن القصائد والقصص والأغاني التي ينتجها تعبر عن أحاسيس الناس الجماعية، التي لم يستطيعوا التعبير عنها.

حامل الرسالة

وطوال ذلك لم يفارق المثقف العراقي الشعور بأنه حامل رسالة اجتماعية للناس. وهذه الرسالة تجمعه مع السياسي ضمن مشروع واحد في بلد شهد انخراط أوسع عدد من المثقفين في العمل السياسي والحزبي. وشكل السجن والتعذيب جزءاً لازماً من سيرة ونتاج هذا المثقف الذي رأى الأهوال. ولكن رغم التضحيات الكبيرة التي قدمها المثقف العراقي

لم تكن فكرة الديموقراطية والتسامح أولية في رسالته هذه. وقد بدّد وقتاً طويلاً وتضحيات كبيرة في الدعوة لأهداف اخرى: الاشتراكية، الوحدة العربية، رفع راية الاسلام، معاداة الامبريالية، ولم تكن الديمقراطية من مفرداته الأساسية رغم انها الطريق الأقل كلفة لتحقيق الاهداف السابقة، وقبل ذلك كونها الشرط الوحيد لممارسة مهنته، الكتابة. يطالب بها حين يكون الضحية ولا يريدها لخصمه. ويشارك المثقف السياسي في مقولة ان الديمقراطية مشروع مؤجل لما بعد تحرير فلسطين، وتحقيق الوحدة، ويقصرها احياناً على الطبقات الكادحة، بينما يعتبرها البعض بدعة كبيرة لا تنسجم مع التقاليد الاسلامية. وكثيراً ما تحول المثقف الى داعية عنف ضد خصومه. لنتذكر قصيدة الجواهري:

فضيق الحبل وأشدد من خناقهم
فإن في بعض ارخائه ضرر

أو قصيدة البياتي:

إنا سنجعل من جماجمهم منافض للسجائر

أو قصيدة مظفر النواب:

جلد إقطاعي خيمتنا على اعظامج يارجعية

ولنتذكر بالمقابل ان استباحة دماء المثقفين اليساريين في السجون والشوارع استندت بالمقابل على فتاوى اصدرها بحقهم مثقفون متدينون اعتبروا الشيوعية كفرا والحادا.

لقد سرق صدام حسين والبعث هذا التوازي بين العنف وثقافته من تقاليد الشارع العراقي، وحَوَلَهُ الى سياسة رسمية للدولة.

مثقف السلطة

نردد دائماً عبارة موسومة لكورنك "كلما سمعت كلمة ثقافة امتدت يدي تلقائياً الى مسدسي". نستعمل هذه الجملة كناية عن عداء نظام فاشٍ للثقافة. بينما الفاشية تفعل عكس ذلك تماماً. فالفاشية وهي فكرة مثقفين خذلتهم ثقافتهم، ترفع الثقافة عالياً فوق كل شيء، وفوق الحياة والعمل المادي، فهي بمثاليتها الصوفية تؤمن بأولوية الروح على الواقع وأسبقية الإرادة على الإمكانية وتريد أن تحل كل شيء بالأيديولوجيا النازلة من فوق، من الرأس، من النخبة المفكرة وفوقها القائد، إلى الجماهير التي تبلع، دون أن تهضم بغض النظر عن صلاحية الزمان ومدى قناعة الجماهير، الحساء المقدم لهم.

كتب هتلر: "التجليات الثقافية، لا الانجازات الاقتصادية تصنع تاريخ الأمم".

وكتب عفلق: "الروح هي الأصل في كل شيء، الدافع الروحي لا يسيطر على المادة فحسب، انما يخلقها".

ترفع الفاشية الثقافة لتستولي عليها مثل أي مجال حيوي. وقد وضعت السيطرة على الثقافة في أولويات أول مؤتمر قطري للبعث العراقي بعد وصوله للسلطة: "ليس مهمة ذات ضرورة حزبية فقط، بل وطنية أيضاً". والوسيلة الأسرع هي السيطرة على الثقافة قبل أن تتحول من ذات المبدع الثقافية الى الآخر (كتابة أو صورة أو اغنية)، وقبل ان تتحول الى مثل وأعراف، لا تستخدمها كقوة ضغط وتأثير على الواقع لصالحهم.

فالسيطرة التامة على المجتمع لا يمكن انجازها من خلال الجهاز الحزبي المحدد العدد والقدرات، ما لم تسنده اجهزة التوصيل الحديثة في بلد يشكل سكان المدن فيه أكثر من 60 بالمائة، ويدرس في الجامعات والمدارس 4 ملايين طالب يزدادون سنوياً بنسبة 14 بالمائة. وهنا ستحتاج الدولة الى المثقفين لتشغيل هذه الأجهزة وفق مشيئتها، وسيحتاج

المثقف الى الدولة التي تملك كل وسائل اتصاله بالناس. فيستطيع المثقف ان يفصل وعيه ونتاجه الثقافي عن عمله الوظيفي في جهاز الدولة. قسم كبير من المثقفين يعملون مثل العمال الاجراء.. يحصلون على أقل القليل مقابل ما يقدمونه ويشعرون باستغلال الدولة التي يكرسونها. ولكن مع توسع جهاز الدولة الايديولوجي في أعقاب الفورة النفطية حدث تحول في الوضع الاجتماعي للمثقفين. استثمرت السلطة عائدات النفط الهائلة لتعويم كل شيء، وعملت بحكم آلياتها على إحداث تفاوت كبير في مستوى حياة المثقفين، فلم يعد انتساب المثقف للطبقة الوسطى وما دونها مسألة أزلية، انما ارتفع دخل بعضهم بسبب توظيف ثقافته لصالح السلطة الى ما فوق المتوسط، وعمل عدد منهم كمقاولين ثقافيين خارج جهاز السلطة. وللحفاظ على هذا المستوى الحياتي، اضطر المثقف للتنازل عن وجدانه الثقافي، أو جزء منه لترسيخ وتبرير النظام المعرفي للسلطة.

يبدأ تراجع المثقف بسبب الخوف من السلطة، ففي غياب البدائل يتحول القمع، عندما يتجرد من اسبابه، الى قدر، ويتحول اليأس الى ظاهرة اجتماعية ترتبط بالرغبة في السير مع الموجة العاتية. وسيسند هذا اليأس مستوى حياتي جديد ومصالح، بحيث يكون المثقف في النهاية خائفاً على السلطة بعد ان كان خائفاً منها. ويصبح أداة رقابة وتخويف بيد السلطة ضد زملائه ورفاقه السابقين.. يكتب التقارير عن المعاني المشاغبة والمتمردة في القصائد والقصص، يُخَوِن الادباء الصامتين خلال الحرب مع ايران، يمنع النتاجات التي لا توافق عقل السلطة. وقد شهدت الحرب مع ايران توظيفاً نموذجياً لثقافة المثقف كداعية حرب، مفتون بقسوة الجندي وحركة المجموعات خلال الهجوم والدفاع، وعلى أيدي ادباء (القادسية) انهارت القيمة الاعتبارية للكلمة، حين وضعوا في مقايسة جائزة مع دم الجندي على الجبهات، وحققوا خلال سنوات الحرب غزارة لم يشهد لها العراق مثيلاً في كمية النتاج الروائي وشعر المعركة وأغانيها. وتبنى هذا "الأدب" تبجيل الحرب، بغض النظر عن اسبابها ونتائجها الكارثية، كقيمة بذاتها باعتبارها اختبار لإرادة أمة ومدرسة أخلاقية للأجيال على نسق التفسير النازي.

القمع والثقافة

لنعد هنا الى صورة البداية، لقاء صدام بالمثقفين، ولنتذكر ان هذا الاهتمام بالمثقفين (ثلاثة لقاءات خلال شهر) يرجع الى بدايات صعوده داخل الحزب والدولة من خلال سيطرته على جهازين:

- مكتب العلاقات العامة الذي انشئ في نهاية الستينات وهو الاسم المُلَطَف للجهاز الامني الذي استطاع صدام من خلاله تصفية خصومه داخل الحزب وخارجه.
- الجهاز الثاني، وهو موضوع اهتمامنا الآن، هو مكتب الثقافة والاعلام الذي ترأسه بعد ازاحة منافسه عبد الخالق السامرائي.

وقد سارت عملية التمركز في الجهازين بوتيرة متساوية ومتوازية. فمع تسنمه الموقع الاول ازيحت الصحف الناطقة بلسان الاحزاب الاخرى على التوالي، لتبقى صحافة الحزب الواحد. دمج مكتبي الثقافة والاعلام الحزبيين في مكتب واحد، ووزارتي الثقافة والاعلام في وزارة واحدة. وألحق اتحاد الادباء العراقيين واتحاد الادباء الاكراد

بوزارة الثقافة والاعلام.
لم يفترق جهازا القمع والثقافة مهما تغيرت المسؤوليات الرسمية الى ان استقرا في صيغتهما الحالية قسمة بين الابنين: تولى الاصغر الصاعد (قصي) مسؤولية الاجهزة الامنية، بينما تولى الابن المعوق الأكبر (عدي) مسؤولية "المُجَمَع الثقافي" الذي يضم الاتحادات الثقافية الخمسة اضافة لقناتين تلفزيونيتين وثلاث صحف.
لم ينفصل الجهازان بهذا التوزيع انما تكاملا وتداخلا. فبالقمع يفرض الأب سلطته المادية من خلال سيطرته على أجهزة المعرفة، ويضمن الهيمنة الفكرية والروحية على المجتمع. يتداخل الجانبان الى درجة يصعب رسم الخط الافتراضي الفاصل بينهما، حيث يتحول القمع إلى أيديولوجية، لانه يهدف الى إجبار المواطنين على قبول فكر السلطة باعتباره الفكر الوحيد، بينما تصبح مهمة المعرفة الأحادية إعطاء القمع مشروعيته باعتباره ضرورة وطنية.
وخارج ذلك ستفرض السلطة رقابة حازمة مسندة بعنف مطلق، يصل حد التصفية الجسدية للمثقف الذي يخالف إرادتها. وهذه السلطة لا تعاقب على الفعل، انما على أي شكل من المعرفة يخالف معرفتها، وتقيس الاستثنائي والشاذ على أساس مرجعيتها، وتنظر الى الحياة باعتبارها نوعاً من التراكم على تلك القاعدة الواحدة، مقدمة القاعدة والقانون على الواقع، وتحول كل المعارف الى شبكة من الحتميات والضرورات، بحيث تصبح مهمة العقل هي البحث عن موقع على هذه الشبكة، مدفوعاً بقوة إرغامه الخاصة. وتصبح عملية المعرفة نظاماً قسرياً يكيّف حركة الفكر ليتطابق مع الفكر، تشيعه السلطة. وتستخدم قوة العادة الاجتماعية والسلوك الجماعي كقوة ضغط للتأثير على فكر الفرد لترويضه وصناعته ضمن السايكولوجية الجماهيرية.

البؤس كملحمة بطولية

ارجع الى صورة البداية فأقول: لا جديد في المشهد، فليست هذه المرة الاولى التي يلعب فيها صدام دور المعلم، وليس جديداً ان يلعب كتّاب قضوا أكثر من نصف عمرهم في الكتابة، رغبوا في ذلك أو اجبروا، دور التلاميذ ليستمعوا الى توجيهاته. الجديد هو ان صدام فاجأ الجميع بأن الملحمة التي طالب الكتاب بكتابتها، كُتبت فعلاً على شكل رواية "زبيبة والملك" وان كاتبها هو صدام نفسه. لا ينبغي اعتبار الأمر مجرد نكتة فجة من طرافات قائد وصل حد الجنون. فاستباقه الكّتاب الى الفعل، اراد ان ينتزع منهم سلطة ليجمع السلطتين (سلطة الحاكم وسلطة الكاتب) في شخص واحد. وينبغي فهم هذه الرواية كرسالة في ظروف العراق الحالية تحت الحصار المأساة التي يعتبرها صدام "ملحمة بطولية" تعطيه مصدر قوة ثالث. فبالاضافة الى تحكمه بالجهاز الامني ومصادر معرفة الناس، سيتحكم من خلال الحصار بطعام الناس وضروريات حياتهم اليومية الاخرى، والطعام يمكن ان يوجّه وعي الناس، على أساس ان المحتاج يسعى الى استرضاء صاحب الحاجة بدلا من ان يثور عليه، اذ يتركز كل وعيه على الحاجة الحيوانية للحصول على الطعام، وتبقى الحاجات الاخرى الروحية والديمقراطية تجريدا ذهنيا وبطراً زائداً عن اللزوم. وفي جو الحصار انهارت الطبقة الوسطى المتعلمة، صاحبة المشروع التنويري. فحدود العراق تنزف كل يوم عقوله

في شكل هجرة واسعة لأفضل عقوله التقنية والثقافية، وتحول القسم الباقي منها الى طبقة رثة من حرفيين وباعة كتب على الرصيف، تخلت عن كل أدوات المعرفة إزاء الحاجة الى الطعام والدواء. الرواية تحيل واقعاً راهناً الى اسطورة موهومة تتعلق بالمصالحة بين ملك ورعيته المظلومة، وصلة المصالحة هنا هي امرأة من عامة الشعب (زبيبة) ووسيلتها هي حكمة الكلمة. الرواية مليئة بالرموز والكنايات الصوفية مثل جمال الروح الذي يفوق جمال الشكل، والتناغم بين قمة الجبل والسهل المنخفض والجمال والفقر. وعادة ما يمهد البؤس الواقعي للخطاب الصوفي الذي يُعلي غنى الروح على بؤس الجسد، وعندما يصل البؤس حد الموت جوعاً، في مثل ظروف العراق المحاصر، لا يعود الجائع قادراً على المطالبة بحلول منطقية لمصائبه، ولا يملك الارادة والقدرة على انقاذ نفسه، لذلك يبقى بانتظار معجزة، ويطلب مخلِصاً من خارجه.

واذا كانت هذه الرواية مقدمة كمثال للاقتداء، والتأكيد في حديث القائد على "الثقافة التراثية" نريد ترحيل الواقعة السياسية من أسبابها ومجالها، فيقصيها الى التاريخ. فالقائد هنا يقدم نفسه باعتباره منحدراً من التاريخ، ويعود الى التاريخ ليدعي النطق والعمل باسم المرجعية التاريخية. وعلى الاديب أن ينكر الواقع ويحل محله تولهاً صوفياً، فيحل الماضي الغنائي المتخيل، ويوحّد الجميع في اسطورته.. الغني والفقير، الجلاد والضحية، الانسان والارض، والأهم هو الجميع والقائد. يخلط الازمنة، فيحيل الواقعة الحالية التي يقوم بصنعها القائد الى التاريخ والاساطير والتراث، فيلهم الجماهير صورا ورموزا تثير حماسها وفق خطه السياسي، لا يكون وسيطا عاطفيا بين عقل السياسي البارد وغرائز الناس.

الديمقراطية أولا

ولكن كلما تطابقت ايديولوجيا السلطة مع جهازها القمعي زاد الصراع بين حكمة المثقف الفردية وجنون السلطة الشامل. وسواء داخل اجهزة الدولة أو خارجها، يحدث تعارض حاد بين عملية الادلجة القسرية التي تريد سلطة الصوت الواحد اشاعتها في المجتمع، وبين حاجة المثقف للفضاء الحر للكتابة.

نعود فنقول ان المثقف العراقي بدد كثيراً من الوقت خارج فضاء الديمقراطية، ودفع غالياً ثمن الخطيئة والخطأ لأن النضال من اجل الديمقراطية لا يحتمل التأجيل. وقد تعقدَ طريق الديمقراطية اليوم أكثر من أي وقت مضى، لأنه يتطلب النضال على ثلاث جبهات معاً: ضد السلطة المستبدة، ضد الحركة السياسية المعارضة، التي اكتسبت خلال الصراع، وهو علاقة جدلية، بعض صفات جلادها، وضد تقاليد الاستبداد في مجتمع كامل. لا يواجه المثقف سلطة الاستبداد وحدها، انما أيضاً تيارات نابعة من مجتمع منهك القوى، مفكك، مدين لدول اقليمية ودولية ستفرض شروطها في شكل الحكم، تيارات نابعة من قاع مجتمع مسدود الافق ستقاوم حرية المثقف بشروط سلفية... ومع ذلك، لا خيار للمثقف المؤمن بالديمقراطية، إلا النضال من أجلها، وسيلة للحكم ونظاماً للمجتمع وطريقة للحياة. لذلك أصبح التزام الكتّاب التزاماً بالديمقراطية. وبعدها ليختلف المختلفون.

*** الثقافة الجديدة، العدد 303، تشرين الثاني – كانون الأول 2001**

نصوص مترجمة

عودة ترامب
من 2016 إلى 2024 *

ماثيو كارب**
ترجمة: سوران قحطان

لم يمثل انتخاب دونالد ترامب عام 2024، في خطوطه الدراماتيكية العريضة، تتمة قاتمة لانتخابات 2016 فحسب، بل شكل العودة الاكثر رعبا في المخيلة المعذبة للبراليين الأمريكان. مرة أخرى، يظهر ترامب بدور المتمرد والمتحدي، ذابح الجمهوريين المؤسساتيين (Establishment Republicans)[1]، والورعين الثابتين، فنان الهراء السافر والمتحدث بما لا يصح ذكره من الحقائق. لقد كان هذا إنجازا استثنائيا من الخداع لرجل كان قد خدم سابقا بوصفه رئيسا الولايات المتحدة مدة أربع سنوات، لرجل لم يتغير جوهر برنامجه السياسي - تخفيض الضرائب، وزيادة التعرفة الكمركية، وحدود صارمة - منذ ان كان هو وجماعته يتولون الرئاسة وكلا غرفتي الكونغرس قبل ثمانية أعوام.

بالطبع، لقد تلقى مساعدة جديرة بالاعتبار في هذا الإنجاز، ليس فقط عبر طلقة طائشة من قاتل متمرس محتمل. لقد ساهم الديمقراطيون بشغف في استعادة هالة التمرد الأسطورية لترامب، محولين إياه من رئيس سابق الى شقي مارق، يستدعي جحافله مرة أخرى للإطاحة بالدولة العميقة. لقد تبعت الحملة الديمقراطية، في كل شيء، نسخة 2016، وما تم تغييره كان فقط لرفع الرهانات. وهكذا، بينما تحدثت هيلاري

كلينتون وحلفاؤها عن "الشخصية" و"التعصب" وتفكيك "المعايير"، كانت الكلمات الرئيسية هذا العام "الإجرام" و"الفاشية" والخطر على "الديمقراطية". في حين حاكم الليبراليون المؤسساتيون في عام 2016 على سلوك ترامب الفظ، أدانته مؤسسات ليبرالية فعلية في عام 2024 بأربع وثلاثين جريمة جنائية لإخفائه مدفوعات أموال لممثلة إباحية، ووجهت إليه اتهامات في اثنتين وخمسين تهمة أخرى على المستوى الفيدرالي والولاياتي. شهدت الانتخابات الأخيرة مشاركة رئيس ديمقراطي فيها، وكما حدث في عام 2016، فرضت قيادة الحزب [أي الحزب الديمقراطي] مرشحها المفضل، وهذه المرة لم تكلف نفسها عناء إجراء عملية أولية ذات مغزى؛ وعندما تبين أن الرئيس بايدن غير لائق بشكل واضح، استبدلوه بنائبة الرئيس كامالا هاريس، التي توجت هي الأخرى بدلاً من انتخابها. ومثل كلينتون (وبايدن في عام 2020)، تفوقت هاريس على ترامب في سباق المال، وحصلت على دعم قوي من وول ستريت، ووادي السيليكون ومعاقل أخرى للرأسمالية في الولايات الزرقاء؛ ومثل كلينتون، اختتمت حملتها بالدفاع عن النظام القائم ضد التحدي الخطير الذي فرضه ترامب.

في السابع من نوفمبر/ تشرين الثاني 2016، وفي فيلادلفيا، نددت كلينتون، وهي محاطة بأوباما وزوجته، بتعليقات ترامب "المهينة والمهينة"، وتفاخرت بخدمتها في حكومة أوباما، ووصفت الانتخابات بأنها خيار "بين قيادة قوية وثابتة أو بين خطر لا يمكن السيطرة عليه، كمدفع مفكك، يمكنه تعريض كل شيء للخطر"[2]. بينما تمسكت هاريس بالوضع الراهن بقوة أكبر، فاختارت إلقاء خطابها الرئيسي الأخير في حديقة ذا إيلابس the Ellipse في واشنطن، خارج البيت الأبيض الذي يسيطر عليه الديمقراطيون والذي خدمت فيه خلال السنوات الأربع الماضية. وإذا كانت كلينتون قد أصرت على أن "أميركا لم تتوقف أبدًا عن كونها عظيمة"، فإن هاريس ذهبت إلى ما هو أفضل: "الولايات المتحدة الأمريكية هي أعظم فكرة ابتكرتها البشرية على الإطلاق". قدمت نائبة الرئيس نفسها كوصي على الحرية الأمريكية ضد "من يطمح ان يكون دكتاتورا" و"طاغية صغير"، وشخصية من فوضى، وزعيم لغوغاء مسلحة "غير مستقر، مهووس بالانتقام، مستغرقة بالظلم وتسعى إلى السلطة غير المقيدة ... أمريكا، أنا هنا الليلة لأقول إن هذه ليست طبيعتنا! هذه ليست طبيعتنا! هذا ليست طبيعتنا!"[3]

التفكك

في الجوهر كما في الشكل، أعادت انتخابات 2024 تشكيل السمات الأساسية لعام 2016. فاز ترامب بأول انتصار له من خلال الحفاظ على قاعدة الجمهوريين، التي عززها جورج دبليو بوش، الناخبون البيض في المناطق الريفية والبلدات الصغيرة والضواحي الخارجية، مع إضافة شريحة استراتيجية من الدعم في الغرب الأوسط الخالي من الصناعة. ومع ذلك، إذا كانت حملة (جعل أمريكا عظيمة مرة أخرى) الأولى قد ألهمت حماسة حقيقية في بعض الأماكن، بما في ذلك ساحل الخليج

في فلوريدا ومنطقة الفحم الأنثراسايت في بنسلفانيا، الا إن نجاح ترامب الحاسم في حزام الصدأ (Rust Belt)[4] في عام 2016 تحقق إلى حد كبير بسبب انهيار معدل مشاركة الديمقراطيين.

في أوهايو، وميشيغان، وويسكونسن، وأيوا، ومينيسوتا، حيث انخفض معدل المشاركة الإجمالي، كان عدد الناخبين الذين صوتوا لصالح كلينتون أقل بنحو 1.3 مليون ناخب عن إجمالي عدد الناخبين الذين صوتوا لصالح أوباما في عام 2012. وقد استقطب ترامب نحو 400 ألف ناخب من هؤلاء الناخبين، معظمهم من البيض ومن العمال؛ ولكن الحصة الأكبر، التي بلغت نحو 900 ألف ناخب، انسحبت ببساطة من جمهرة الناخبين[5]. ولم يكن الدعم غير المسبوق الذي اكتسبته كلينتون، بين سكان الضواحي المتعلمين تعليماً جيداً وبين الموسرين، كافياً للتعويض عن هذه الانشقاقات والتلاشيات. في الأساس، كان فشل الديمقراطيين في تحفيز الطبقات المتدهورة اقتصادياً في ائتلاف أوباما التصويتي سبباً في تسليم الرئاسة الى ترامب، كما هو واضح في وسط مدينة ديترويت أو في ميلووكي، او ساندوسكي أو ساجينو[6].

من النظرة الأولى، تبدو خريطة انتصار ترامب الثانية مختلفة إلى حد كبير عن الأولى. فلم تأت "الانتقالات الحمراء" الأكثر دراماتيكية هذا العام في حزام الصدأ، بل، وبشكل غير متوقع، في مجموعة من المواقع البعيدة: منطقة الحدود المكسيكية في جنوب تكساس (حيث تحولت مقاطعة هيدالغو، التي يسكنها 92 ٪ من الهسبان، لصالح ترامب بفارق 20 نقطة)، المنطقة الخارجية لمدينة نيويورك (حيث تحولت الدوائر الانتخابية ذات الأغلبية الآسيوية في كوينز بفارق 34 نقطة)، والحزام الأسود في ألاباما (حيث تحولت مونتغمري، مهد حركة الحقوق المدنية، بفارق 16 نقطة)، ومقاطعات يوبيك في ألاسكا على طول بحر بيرنغ (16 نقطة أيضًا)[7]. وفي ولاية كارولينا الشمالية المتأرجحة الحاسمة، لم يحدث أكبر تحول لصالح ترامب في بيدمونت الريفية التي يقطنها البيض، او من ضواحي شارلوت الصاخبة، بل في مقاطعة روبسون في الجنوب الشرقي المليء بالمستنقعات، موطن أكبر قبيلة أمريكية هندية شرق نهر المسيسيبي. دخلت روبسون، التي تتكون من حوالي أربعين في المائة من السكان الأصليين من الـ (لومبي) وعشرين في المائة من السود، بهدوء المصوتين الى ترامب في عام 2016؛ وفي هذا العام تضخمت هوامشه بمقدار تسع نقاط أخرى، أي أربعة أضعاف التغيير على مستوى الولاية.

في منافسة تهيمن عليها بطاقات الاقتراع بالبريد والتصويت المبكر، أصبحت استطلاعات الرأي عند الخروج من مراكز الاقتراع أقل موثوقية من أي وقت مضى. وكان أفضل تحليل ديموغرافي مبكر هو استطلاع Vote Cast الذي أجرته وكالة أسوشيتد برس، والذي أجرى مقابلات مع أكثر من 120 ألف ناخب أمريكي في الأسبوع الذي سبق الانتخابات. لقد أكدت الأرقام فرضية التحول المتعدد الإثنيات نحو الحزب الجمهوري. حيث كان الناخبون البيض في حقبة MAGA[8] متسقين بشكل ملحوظ: أيد 55 ٪ ترامب في عام 2016،

و55 ٪ في عام 2020، والآن 56 ٪ في عام 2024. بينما من الناحية العرقية والإثنية، جاءت مكاسب ترامب الحاسمة هذا العام بين الأمريكيين من أصل إفريقي، حيث قفز دعمه من 8 % إلى 16 ٪، واللاتينيين، حيث نما من 35 % إلى 43 ٪.

وتشير مجموعة من التحليلات الإضافية إلى أن ترامب حقق أيضًا تقدمًا وطنيًا كبيرًا وإن كان غير متساوٍ بين الناخبين الآسيويين والأمريكيين الأصليين[9].

إن هذه الأرقام تمثل الحفنة الأخيرة من التراب فوق التابوت المهشم لتحالف قوس قزح الذي شكله أوباما. وبصورة نموذجية، فإن منظري المنتصرين الذين كانوا ينظرون "الأغلبية الديمقراطية الناشئة"، حيث تضمن التركيبة السكانية العرقية جيلاً من القوة الحزبية، إلى منتقدين لاذعين للغطرسة الديمقراطية[10]. ومع ذلك، ليس من الواضح كثيرا إذا ما كان عام 2024 يمثل "إعادة اصطفاف عرقي". فمقاطعة روبسون ليست مجرد "اغلبية لأقلية"، بل إنها ثاني أفقر مقاطعة في ولاية كارولينا الشمالية من حيث متوسط الدخل[11]. تشير الأنماط السائدة في بيانات الانتخابات، التي تم النظر فيها على مدى العقد الماضي، ليس إلى إعادة تشكيل عرقية ثقافية بل إعادة تشكيل اقتصادية للناخبين الأميركيين.

إن صعود الاستقطاب التعليمي، حيث يكسب الديمقراطيون المزيد من الناخبين من حاملي الشهادات الجامعية، في حين يكتسب الجمهوريون الدعم من الأقل تعليما، أصبح الآن عنصرا أساسيا في الصحافة السائدة والتحليل اليساري. وهذا الاستقطاب لا يعد ميزة فريدة للولايات المتحدة فقط. فكما أظهر توماس بيكيتي وآخرون، فقد شهدت كل دولة ما بعد صناعية تقريبا في العالم تحول حزب يسار الوسط الرئيسي من حزب يستند الى العمال المنظمين إلى حزب قائم على "جزء متأهل تخصصيا من الطبقة العاملة"، أي المهنيين المتعلمين[12].

واستمر هذا الاستقطاب بوتيرة سريعة في عام 2024، مع احتفاظ هاريس إلى حد كبير بالدعم التاريخي الذي تحصل عليه بايدن بين خريجي الجامعات، وتوسيعه بين أولئك الذين يحملون درجات علمية متقدمة. وفي الوقت نفسه، حصل ترامب على المزيد من الأصوات من أولئك الذين لا يحملون شهادات جامعية، من البيض وغير البيض على حد سواء.

أن صياغة بيكيتي تضع "اليسار البراهمي" المعاد تشكيله في مواجهة "يمين التجار" المؤيد للأعمال التجارية في جميع أنحاء العالم[13]. ان هذه الصياغة ربما توضح رؤية ترامب السياسية بصورة كافية، والتي أصبحت الان أكثر من أي وقت مضى في قيامها على عالم الاعمال والتجارة، وبدعم من أشهر رأسمالي احتكاري في العالم ولكن ليس ائتلافه الذي تم تجديده. وحتى وقت قريب في عام 2012، ظل الجمهوريون الحزب الرئيسي للأميركيين الأثرياء، ليس فقط المانحين الكبار في لجنة العمل السياسي (PACs)، بل والقطاع العريض من الناخبين الذين يكسبون أكثر من 100 ألف دولار سنويا والذين فضلوا بوش ورومني بهامش مزدوج الرقم. ولكن هذا لم يعد الحال. ففي عام 2016، جمعت كلينتون أموالا خارجية أكثر كثيرا من ترامب، ونجحت في جذب حتى الأسر التي

يتكون دخلها من ستة ارقام، وتفوقت عليه في الضواحي الثرية من شمال فيرجينيا إلى جنوب كاليفورنيا. وبحلول انتخابات التجديد النصفي لعام 2018، احتفظ الديمقراطيون بمقاعد في كل واحدة من أغنى عشرين منطقة انتخابية في البلاد. وبعد عامين فاز بايدن بأصوات أصحاب الدخول المكونة من ستة أرقام على الفور؛ في هذا العام، كانوا من بين الفئات السكانية القليلة جدًا التي تحولت نحو هاريس. إن اليسار البراهمي في الولايات المتحدة اليوم ليس متعلمًا تعليمًا عاليًا فحسب، بل إنه أيضًا مرتفع الأجر؛ ولا يزال نفوذه مستمرا داخل أقوى الصناعات والمؤسسات في البلاد: صناديق التحوط، وشركات الذكاء الاصطناعي، وشركات الأدوية الكبرى، وصحيفة نيويورك تايمز، ورابطة ايفي (Ivy League) للجامعات[14].

من ناحية أخرى، فإن اليمين التجاري الأميركي يعتمد بشكل أساسي ليس على الأقل تعليماً فقط ولكن أيضاً على الجزء الأقل دخلاً من الطبقة العاملة. لقد تراجعت الميزة التاريخية التي يتمتع بها الديمقراطيون، وهي دعم الثلث الأدنى من توزيع الدخل، أي الاسر التي تكسب أقل من 50 ألف دولار سنوياً، منذ عام 2012 (انظر الشكل المرفق). في هذا العام، ومع اندفاع الناخبين من ذوي الدخل المرتفع نحو هاريس، أعطت المجموعة ذات الدخل المنخفض أفضلية ضئيلة لترامب. وإذا نظرنا إلى سلم الدخل ككل، فإن المكاسب الجمهورية كانت الأكبر من قاع السلم، حيث تضاءلت مع كل درجة صاعدة: اثنتي عشرة نقطة من الناخبين الذين يقل دخلهم عن 25 ألف دولار، وعشر نقاط من أولئك الذين يكسبون بين 25 و50 ألف دولار، وسبع نقاط من أولئك الذين يكسبون بين 50 و75 ألفا، وخمس نقاط من أولئك الذين يكسبون بين 75 و100 ألف[15].

حتى مع هذه المكاسب، فإن الميزة الإجمالية التي يتمتع بها ترامب لا تزال ضئيلة: ذلك أن الجزء الأعظم من الطبقة العاملة الأميركية منقسم بشكل شبه كامل بين الحزبين. وكما لاحظ تيم باركر، فإن التصويت "دليل على التفكك dealign¬ment ، وليس إعادة التنسيق realignment" [16]. ومع ذلك، ان هذه التقلبات، التي تصدرت عقدا اتجاها دام عقدا من الزمان، لا يمكن ان يتم تجاهلها. وفي الوقت الحالي، لا يوجد سبب يذكر للاعتقاد بأن أيا من الحزبين لديه القدرة، أو حتى الرغبة، في منع التحول المزدوج للتعليم والدخل من الاستمرار، في كلا الاتجاهين.

أزمة الديمقراطيين

أعاد سباق 2024 تمثيل عام 2016 في بُعد أكثر أهمية: حيث لم يتميز بموجة عالية لـ MAGA بقدر ما تميز بانخفاض غير متوقع في الإقبال الديمقراطي. على الصعيد الوطني، أدلى حوالي 64 في المائة من الناخبين المؤهلين بأصواتهم، وهي نسبة عالية جدًا وفقًا للمعايير الأمريكية الأخيرة، على الرغم من الانخفاض الطفيف عن أعلى مستوى في عام 2020 [17]. في الغالب، ماثل ترامب الدعم الذي تحصل عليه قبل أربع سنوات، بينما أضاف بشكل كبير إلى مجموع اصواته من تكساس وفلوريدا وشمال شرق البلاد. وقد ساعدت

الجهود التي قادها الديمقراطيون لتوسيع نطاق الوصول إلى بطاقات الاقتراع في الولايات المتأرجحة، وهي ساحة المعركة الفعلية، الجمهوريين عن غير قصد، الذين يفوزون الآن بأكبر حصة من الناخبين غير المنتظمين. قال أحد خبراء استطلاعات الرأي في حملة ترامب لصحيفة نيويورك تايمز: "كانت الاستراتيجية تشبه إلى حد كبير عام 2016، وهي جذب الناخبين العاديين الذين اعتقدوا أن البلاد تسير على المسار الخطأ"[18].

ولكن، على المستوى الوطني، ان أصوات ترامب الإضافية التي بلغت 2.5 مليون صوت لا تمثل شيئا مقارنة بـ 7.1 مليون ناخب لبايدن لم يصوتوا لهاريس. وكان هذا الانهيار الديمقراطي أكثر وضوحا داخل القاعدة الحضرية للحزب. ففي المدن الكبرى في جميع أنحاء البلاد، حصلت هاريس على أصوات أقل بكثير من بايدن، 1.1 مليون صوت أقل في مدينة نيويورك ولوس أنجلوس وحدهما. وفي بوسطن، سجلت أدنى إجمالي تصويت للديمقراطيين منذ عام 2008؛ وفي ميامي وكليفلاند وسانت لويس وهونولولو، كان الأدنى منذ حملة جون كيري المحكوم عليها بالفشل في عام 2004. وفي نيويورك وشيكاغو، تأخرت هاريس حتى عن كيري في كل من إجمالي الأصوات وحصة الناخبين.

وبفضل صندوق الحرب الذي تبلغ قيمته مليار دولار الذي قدمته هاريس، صمد الدعم الديمقراطي في أتلانتا وبيتسبرغ وغيرهما من مدن الولايات المتأرجحة بشكل أفضل من أي مكان آخر. وفي ميلووكي، تحت قيادة المنظمة الديمقراطية الأكثر كفاءة والأكثر إثارة للضجة في البلاد، ارتفعت معدلات المشاركة [19]. ولكن في فيلادلفيا وديترويت، تراجعت أصوات الديمقراطيين إلى مستويات عام 2004، الأمر الذي ساعد في إبقاء بنسلفانيا وميشيغان خارج المنافسة.

وكما حدث في عام 2016، كان هذا التراجع الحضري العام ذا طابع طبقي واضح. فبينما احتفظت هاريس بمكانتها في أحياء بروكلين الثرية والمتعلمة مثل بوروم هيل وبارك سلوب، اختفت عشرات الآلاف من أصوات بايدن، من مناطق ذوي الياقات الزرقاء في بينسونهورست وبراونزفيل. وفي مختلف أنحاء الجانب الجنوبي المضطرب من شيكاغو، انخفضت معدلات الدعم الديمقراطي والإقبال الإجمالي بشكل حاد. وينطبق نفس الشيء على الدوائر الانتخابية الفقيرة، تلك التي يقطنها السود في الغالب، في غرب فيلادلفيا وجنوب شرق واشنطن وشمال سانت لويس وأكرون في ولاية أوهايو.

في نيويورك وعدد قليل من مراكز الولايات الزرقاء [أي الديمقراطية] الأخرى، امتد إحباط الطبقة العاملة تجاه الديمقراطيين إلى اندفاعة صغيرة الى الـ MAGA، حيث فاز ترامب بأصوات أكثر في برونكس من أي جمهوري منذ ريغان في عام 1984. وفي الدائرة التي تضم أكبر مجمع سجون في شيكاغو، وصل التحول نحو ترامب إلى 45 نقطة[20]. ومع ذلك، في معظم المدن والضواحي الأقل ثراء والمناطق الريفية الأكثر فقراً، كان العامل الرئيسي مرة أخرى هو تلاشي أصوات الديمقراطيين. كما هو الحال في مترو سياتل، ومعظم

السهول الكبرى، وولاية ميسيسيبي بأكملها، حيث انخفضت حصيلة هاريس في 81 من أصل 82 مقاطعة. في فيرجسون بولاية ميسوري، مسقط رأس حركة (حياة السود مهمة) قبل عشر سنوات، لم يكتسب ترامب أي دعم جديد لكن هاريس حصلت على أصوات أقل بنسبة 25 في المائة من بايدن أو كلينتون.

الفجوات بين الجنسين

في أعقاب فوز ترامب، ركزت التعليقات السريعة على العوامل الظرفية التي أدت إلى انخفاض مكانة الديمقراطيين. ان ارتفاع الأسعار بعد الوباء ارتد بالفعل ضد الحكومات القائمة من هولندا إلى نيوزيلندا. ومع قيام ثلثي الناخبين الأميركيين بتقييم الاقتصاد دون المستوى، لم يكن هناك سبب يذكر لإعفاء نظام بايدن-هاريس من رد الفعل العنيف العام. ساهمت الصراعات بالوكالة المزعزعة للاستقرار في أوكرانيا وإسرائيل/فلسطين، والتي تم تمويلها بسخاء من قبل دافعي الضرائب الأميركيين ولكن بدعم ضئيل خارج النخبة السياسية، في إثارة القلق العام. وقد كلفت الديمقراطيين دوائر انتخابية رئيسية، بما في ذلك الأميركيون العرب في ميشيغان والناخبين الأصغر سنا في كل مكان. وكما حدث في عام 2016، عندما ترشح ترامب ضد سجل كلينتون التدخلي في العراق وليبيا وسوريا، سمحت له خلفية الحروب التي يدعمها الديمقراطيون بالتظاهر بأنه مرشح "السلام".

وقد زاد الطين بلة على الديمقراطيين، الارتباك الذي حصل في عملية حصول بايدن الناعمة على ترشيح الحزب، والذي أعقبه انهياره المفاجئ واطاحته الفوضوية، حيث كانت هاريس نفسها غير مستقرة وربما مميزاتها وقدراتها لا يمكن معرفتها: خلال حملتها التمهيدية في عام 2019، تحت شعار "كامالا من أجل الشعب" وراية حمراء صفراء أرجوانية متوهجة، وهي الألوان التي تم رفعها من غلاف طبعة ورقية من كتاب "معذبو الأرض"، اتهمت بايدن بالدفاع عن الفصل العنصري ودعمت نسخة صديقة للصناعة من "الرعاية الطبية للجميع"، ما أدى إلى تنفير كل أنواع الديمقراطيين تقريبًا قبل انسحابها قبل انتخابات أيوا التمهيدية. اما حملتها الرئاسية لعام 2024 فقد تمت ادارتها بصورة أقرب للحزب، كما كانت أكثر وفاء لعقيدته في كل تفاصيلها من الأسلحة لحرب نتنياهو على غزة (المطلوبة بشكل عاجل) إلى "بودكاست تجربة جو روجان" (غير مقبول على الإطلاق). لقد جلبت القليل من الأصول التنافسية إلى السباق. وفي الوقت نفسه، حقق ترامب، بفضل الحظ الذي حالفه بسبب جرح في شحمة أذنه وصداق عروس كبير من أغنى رجل في العالم، ارتفاعات شخصية في شعبيته في استطلاعات الرأي، وكانت رياح الحظ تحيط به.

إن الرياح وان كانت تموج سطح النهر، إلا أنها لا تحدد اتجاه التيار. ان التكرار الدقيق لأعمق أنماط عام 2016، وتفكك الطبقات قبل كل شيء، يشير إلى أن القصة الحقيقية لانتصار ترامب الثاني لا يمكن اختزالها في الظروف المباشرة لعام 2024. ومن المفارقة، أن بعض الأدلة الأكثر وضوحًا هنا يمكن العثور عليها من خلال النظر فيما

اعتبره الكثيرون الحدث السياسي الأمريكي الأكثر أهمية بين الانتخابات الأخيرة، وهو حكم المحكمة العليا في قضية دوبس في يونيو/ حزيران 2022. ووفقًا للرأي المتفق عليه، كان قرار المحكمة التاريخي بإلغاء قضية روي ضد وايد (Roe vs Wade[21])، السابقة القديمة التي كرست حقوق الإجهاض الدستورية، انتصارًا أيديولوجيًا للجمهوريين ولكنه هدية انتخابية للديمقراطيين، نظرًا لأن حوالي ثلثي الجمهور الأمريكي يؤيد الإجهاض القانوني. في الاستفتاءات على الولايات حول هذه القضية منذ القرار، كانت الأغلبية دائمًا لصالح حقوق الإجهاض، حتى في الولايات الحمراء مثل أوهايو وميسوري. بالنسبة للعديد من المعلقين الليبراليين، بدا "عالم ما بعد دوبس" متحيزًا هيكليًا لصالح الديمقراطيين، ما عزز قبضتهم على الناخبات. وبدا أن هروب الحزب من "الموجة الحمراء" في انتخابات التجديد النصفي لعام 2022 يبرر هذه الثقة.

كان نقض حكم روي ضد وايد بمثابة نعمة خاصة لهذا النوع من الديمقراطيين، حيث سمح للحزب بتبني موقف من الغضب الأخلاقي الشديد دون الدعوة إلى أي شيء أكثر جرأة من العودة إلى الوضع السابق. جعلت هاريس حقوق الإجهاض محور حملتها، حتى أنها اقترحت أن الديمقراطيين قد يتجاوزون عرقلة مجلس الشيوخ من اجل تدوين قرار روي في القانون الفيدرالي. في غضون ذلك، كان التهديد بحظر الإجهاض على المستوى الوطني بمثابة خط هجوم رئيسي ضد ترامب والجمهوريين.

ولكن كان لهذا تأثير قليل. حيث تصرف ترامب، الذي أظهر براعة تكتيكية أكثر من أي ديمقراطي، بسرعة لتحييد القضية. طارحا، في المؤتمر الجمهوري، برنامجا حزبيا يفتقر بشكل واضح إلى المزيد من الالتزامات بتقييد حقوق الإجهاض؛ وفي وقت لاحق، تحدى العقيدة اليمينية وتعهد باستخدام حق النقض ضد أي حظر فيدرالي للإجهاض يصل إلي مكتبه كرئيس[22]. وعلى الرغم من الثرثرة الليبرالية حول "القومية المسيحية"، يبدو أن عددا كافيا من الناخبين صدقوه أو راهنوا على إمكانية تأمين الإجهاض على مستوى الولاية، بغض النظر عن السياسة الفيدرالية. وفي ساحة المعركة في ولاية أريزونا، هزم ترامب هاريس بسهولة، حتى مع تأييد 60% من الناخبين لإجراء يحمي حقوق الإجهاض في دستور الولاية. وعلى الصعيد الوطني، أدلى ثلث الناخبين المؤيدين لحق الاجهاض بأصواتهم لصالح ترامب[23].

لا ينبغي ألا يمثل هذا مفاجأة كبيرة، نظرًا لعقم الدعم الديمقراطي لما يسمى "الحقوق الإنجابية". كالعادة، كان هذا يمثل في عام 2024 الإجهاض وتنظيم النسل وقليلًا غير ذلك. لكن، لا إجازة أبوة، أو رعاية صحية عامة، أو احتياط اجتماعي ديمقراطي أوسع للحياة الأسرية. كان الائتمان الضريبي للأطفال الذي اقترحته هاريس أقل سخاءً في الواقع من الدعم الذي طرحه نائب الرئيس المنتخب جيه دي فانس[24]. لقد فشلت سياسات الحقوق الإنجابية، والتي تركز على تهديد رد الفعل اليميني بدلاً من الإصلاح الحقيقي، في تحريك الناخبين. في عام 2020، فاز بايدن بتأييد الامهات لأطفال في سن المدرسة بفارق اثنتي

عشرة نقطة؛ هذا العام، وفقًا لـ Votecast، أعطت "الأمهات" ترامب اصواتهن بفارق بنقطتين[25]. بل وحتى النساء دون سن الخامسة والأربعين، اللاتي تم الترويج لهن باعتبارهن مجموعة انتخابية أساسية داعمة حقوق الإجهاض، قد تحولن للتصويت بقوة لترامب. وحتى الشباب الذين حاول الديمقراطيون اجتذابهم بإعلانات شبه إباحية تحذر من ان الحزب الجمهوري سيقوم بحضر حبوب منع الحمل البعدية (morning-after pill)، اثبتوا انهم اقل تقبلا لهذه التحذيرات، فلقد بلغت نسبة تأييدهم لترامب اثنتين وعشرين نقطة بشكل ملحوظ.

بايدنوميكس؟[26]

وفوق كل شيء، وكما حدث في عام 2016، تحولت الانتخابات إلى فشل الحزب الديمقراطي الحاكم في الاحتفاظ بدعمه داخل الطبقة العاملة المتدهورة اقتصاديا: الذكور والإناث، والبيض والسود واللاتينيين والآسيويين والسكان الأصليين. ومع غياب الثقة بأن كلينتون/هاريس قادرتان على تغيير الوضع الراهن لأوباما/بايدن، فقد اختارت نسبة كبيرة من الناخبين البديل الملموس الذي اقترحه ترامب، مهما كان كاذبا وغير كاف في الممارسة العملية، وهو حماية التجارة ومراقبة الحدود، بينما ظلت نسبة أكبر منهم في المنزل.

وبالنظر إلى الأرقام القياسية المثيرة للإعجاب التي حققها الاقتصاد الأميركي، في التوظيف والأجور والإنتاجية والنمو، فقد وجد بعض الخبراء الليبراليين هذا الأمر محبطاً بشكل خاص. فقد سعى بايدن، بعد كل شيء، إلى الإعلان عن تغيير في نظام الاقتصاد السياسي لواشنطن، رافضاً، بشكل، واضح التركيز في عهد أوباما على خفض العجز. لقد استقبلت حزمته الضخمة من التحفيز لما بعد الجائحة، التي أعقبها إنفاق كبير، وإن كان ضئيلاً، على الطاقة الخضراء، والبنية الأساسية، وتصنيع أشباه الموصلات، بقدر كبير من الضجة حول "نهاية العصر النيوليبرالي". وعمل بايدن بجد لتسويق نفسه باعتباره "الرئيس الأكثر تأييداً للنقابات في تاريخ أميركا"، حتى أنه ظهر في خط اعتصام لعمال السيارات في ميشيغان. كما عززت تعييناته، في مجلس العلاقات العمالية الوطنية، ولجنة التجارة الفيدرالية، ولجنة الأوراق المالية والبورصة، الذي استقبله المعلقون اليساريون الليبراليون بإعجاب عام، فكرة أن هذه كانت رئاسة ديمقراطية من نوع مختلف.

ولكن على أرض الواقع في معظم أنحاء البلاد، لم يكن الأمر كذلك. في الحقيقة، كان التحفيز المباشر للوباء الذي أقره ترامب أكبر من حزمة بايدن؛ وكانت مشاريع القوانين الأخرى للإنفاق، مع آفاق ميزانيتها التي تمتد لعشر سنوات، متواضعة للغاية وموزعة بشكل ضعيف للغاية بحيث لا تحدث فرقًا كبيرًا في حياة معظم الأميركيين غير المنخرطين بشكل مباشر في حفنة من القطاعات المستهدفة. ومهما كان ما قاله بايدن أو فعله من أجل العمل المنظم، فقد استمرت كثافة النقابات في انحدارها المستمر منذ عقودًا في عهده [27]. ومن خلال أذرعها التنظيمية، سجلت الإدارة عددًا من الإصلاحات المفيدة: خفض سعر

المعينات السمعية، القضاء على الرسوم الاستهلاكية المخفية، وملاحقة الاحتيال في العملات المشفرة. لكنها لم تحقق أي شيء تقريبًا يترك بصمة بنيوية على الاقتصاد أو علاقات القوة، أو قد يولد كتلة انتخابية سياسية مستمرة.

وإذا كان البيت الأبيض قد روج لنجاح البايدنوميكس، واختارت حملة هاريس لشعار هو "الفرح"، وأيضا، احتفال بعض خبراء الاقتصاد التقدميين بـ "أعظم اقتصاد على الإطلاق"، الا ان معظم الأميركيين، الذين يكافحون خلال أيام صرف رواتبهم، شعروا بخلاف ذلك[28]. ولم يتطلب الأمر مثقفًا يساريًا، أو ناخبًا متأرجحًا من حزام الصدأ، ليشم رائحة العوز المختبئة خلف عناوين اخبار الاقتصاد الكلي. وبينما ألقى الليبراليون باللوم على "المشاعر العدائية" للحزبية وللدعاية، حكمت الغالبية العظمى من الأميركيين من أصل أفريقي، والذين لا يزالون العنصر الديموغرافي الأكثر ولاءً للقاعدة الديمقراطية، على الاقتصاد بأنه مقبول أو سيئ [29]. حتى ان مجلة الاطلنطي The Atlantic، بعد الانتخابات، وهي المعقل الرائد في عكس وجهة نظر واشنطن، تمكنت من إدراك، أن بايدن فشل ببساطة في تحسين حياة الطبقة العاملة: "لقد انخفض متوسط دخل الأسرة الحقيقي مقارنة بذروته قبل وباء الكوفيد.. كما ارتفع معدل الفقر، وكذلك معدل البطالة. وارتفع عدد الأميركيين الذين ينفقون أكثر من 30% من دخلهم على الإيجار. وارتفع معدل التخلف عن سداد أقساط بطاقات الائتمان، وكذلك نسبة الأسر التي تكافح من أجل تحمل تكاليف ما يكفي من الطعام المغذي، وكذلك معدل التشرد... وانتهت صلاحية كل من زيادة قسائم الطعام، وتوسيع ائتمان ضريبة الأطفال، ومدفوعات التأمين ضد البطالة الكبيرة. ولم يمرر البيت الأبيض قط تدابير اقتصاد الرعاية الدائمة التي كان قد وعد ان يأخذها بعين الاعتبار"[30].

وكما في عام 2016، سيكون التضخم في عام 2024، هو المتهم الاقتصادي المباشر، بسبب ركود الأجور، وعدم المساواة، وفقدان الوظائف في قطاع التصنيع في حزام الصدأ[31]. لكن الواقع الاشمل هو أن معظم الأميركيين من الطبقة العاملة لم يعودوا يرون الديمقراطيين كحزب يمثل مصالحهم. خلال نصف القرن بين أيزنهاور وكيري، كانت هذه هي السمة التي أحبها الناخبون أكثر من غيرها في الحزب، اي أنه يبدو وكأنه "حزب الطبقة العاملة"[32]. ان هذا التصور، الذي كان دائما متساهلا من ناحية سياسية ومشكوكا فيه من ناحية اجتماعية، لم يبق كما هو في رئاسة أوباما. وعلى الرغم من تبنيه في بعض الأحيان لخطاب "شعبوي" خلال الحملة الانتخابية، وخاصة ضد المدير التنفيذي والمستثمر رومني في عام 2012، فإن الإنجاز الأكثر ديمومة الذي حققه أوباما في البيت الأبيض كان تأكيد الهوية الجديدة للديمقراطيين باعتبارهم حزب رأس المال المدن الكبرى: تشكيل سياسي يتسم بالقرابة الوثيقة مع وول ستريت ووادي السيليكون، وبسيطرة التكنوقراطي على الحكومة، والتعددية النخبوية في الثقافة. ان الهالة القديمة المتمثلة في أولويات وقيم "الطبقة العاملة"، تلك التي كانت لدى روزفلت وترومان وجونسون وهامفري، كانت قد

اختفت منذ فترة طويلة؛ ولكن فقط في عهد أوباما تم استبدالها بشكل حقيقي بشيء آخر. ولم يتمكن كلينتون ولا بايدن ولا هاريس من إحيائها[33].

ولم يأتِ سعي الحزب الديمقراطي لاستبدال الناخبين من ذوي الياقات الزرقاء الذين فقدهم بمهنيين متعلمين دون ارباح: فقد أدى إلى تحسين أدائهم في انتخابات التجديد النصفي ذات الإقبال المنخفض، في حين عزز النفوذ داخل الحزب لوسائل الإعلام التابعة، وجماعات المناصرة وجماعات الضغط التجارية في الولايات الزرقاء [الولايات الديمقراطية]. وفي ظل ظروف مواتية، كما في عام 2020، عندما احتشد عدد كاف من العمال في الولايات المحورية تحت الضغط الهائل للوباء لدعم بايدن، كان ائتلاف الحزب المعاد تشكيله لا يزال قادرا على تحقيق النصر. ولكن مع تمثيل خريجي الجامعات لأقل من أربعين في المائة من الناخبين الأميركيين، فرض هذا التحول الكبير سقفا منخفضا وصعبا على مدى قدرة الديمقراطيين على الوصول الانتخابي. ولم يعد من الممكن تصور حدوث انتصار ديمقراطي على نطاق عام 1992 أو 2008 ـ ناهيك عن عام 1936 أو 1964.

بعد عام 2016، عزى الديمقراطيون أنفسهم بفكرة مفادها أنهم هُزموا بسبب اندفاعة قبيحة من التعصب الشعبي، تغذيها "معلومات مضللة" من قِبَل اليمين ووسائل إعلام ساذجة، وليس بسبب أي تغييرات أعمق في الناخبين.

ولا شك أن هذا التفسير الجذاب سوف يضفي نكهة خاصة على العديد من التحليلات التي تلي الانتخابات في عام 2025. ولكن ينبغي للجميع خارج الفقاعة أن يبحثوا في مكان آخر.

*** نشرت المادة في العدد 150 من دورية New left review وهو عدد شهري تشرين الثاني/نوفمبر وكانون الأول/ديسمبر 2024.**

https://newleftreview.org/issues/ii150/articles/matthew-karp-trump-redux

**** ماثيو كارب (Matthew Karp): أستاذ مشارك متخصص يعمل في جامعة برينستون. حاصل على الدكتوراه في التاريخ عام 2011. وهو يدرس عدد من المواضيع من بينها: الحرب الاهلية، والعبودية، الغاء العبودية. بدأ اهتمامه بالاشتراكية وبالاشتراكية الديمقراطية مع ازمة عام 2008. نشر اول كتابه له عام 2016 تحت عنوان "هذه الإمبراطورية الجنوبية الشاسعة".**

الهوامش

(1) establishment Republicans الذين اخترنا لهم ترجمة "الجمهوريين المؤسساتيين"، او ربما الجمهوريين الراسخين، جناح من الحزب الجمهوري، يمثل باعتدال رؤى الحزب التقليدية المحافظة ماليا واجتماعيا. كان هو الجناح السائد لفترة طويلة منذ ان حلوا محل الجمهوريين المحافظين Conservative Republicans بعد عام 1992 ولغاية استلام ترامب السلطة اول مرة عام 2016. كانت أبرز التحديات التي واجهوها قبل وصول ترامب هو حركة حزب الشاي 2009 وكذلك اليمين المتدين من الجمهوريين. بسبب اعتدالهم في القضايا المحافظة يطلق عليه أحيانا الجمهوريين اللبراليين او "الجمهوريين بالاسم فقط". [المترجم]

(2) Clinton speech at a rally in Philadelphia; transcript available at cnn.com.

(3) Katie Rogers and Reid Epstein, 'In Closing, Harris Casts Herself as the Unifier and Trump as a "Petty Tyrant"', New York Times, 29 October 2024. Full transcript of Harris's Ellipse speech published in The Black Wall Street Times, 30 October 2024.

(4) حزام الصدأ (Rust Belt): مصطلح يشير الى منطقة تقع الى شمال شرق الولايات المتحدة، كانت هذه المنطقة معروفة سابقا باسم قلب المنطقة الصناعية الأمريكية، لكن الصناعة تراجعت في المنطقة منذ منتصف القرن العشرين لأسباب متعددة. وعانت المنطقة من التدهور الاقتصادي، الفقر، وانخفاض عدد السكان، واضمحلال المناطق الحضرية. بالتالي فإن المصطلح يشير الى هذا التدهور [المترجم]

(5) Nate Cohn, 'The Obama–Trump Voters Are Real. Here's What They Think', nyt, 15 August 2017. All five states gained population from 2012 to 2016, so the 900,000 vanished voters cannot be accounted for in terms of demographic decline. On the Rust Belt wipeout see Mike Davis, 'The Great God Trump and the White Working Class', Catalyst, vol. 1, no. 1, Spring 2017.

(6) Two reported bulletins from Milwaukee remain essential reading for understand¬ing this failure: Sabrina Tavernise, 'Many in Milwaukee Neighborhood Didn't Vote—and Don't Regret It', nyt, 20 November 2016; Malaika Jabali, 'The Colour of Economic Anxiety', Current Affairs, 3 October 2018.

(7) Matthew Thomas, 'The Red Wave in Queens Was Years in the Making', Vulgar Marxism, 18 November 2024. The Alaska figures are for state house districts 38, 39 and 40.

(8) MAGA مختصر شعار (جعل أمريكا عظيمة مرة أخرى Make America Great Again). شعار حملتي ترامب الرئاسيتين 2016 و2024. نشأ عام 1979 وارتبط بحملة ريغان الرئاسية عام 1980. وضع ترامب له علامة تجارية وكان ذلك عبر ارتداء القبعات التي تحمل الشعار. [المترجم]

(9) Neely Bardwell and Marlon WhiteEagle, 'Post-Election Survey Shows Trump-Harris Split, Reservation Divide', Native News Online, 16 November 2024; Neetu Arnold, 'Why Asian Americans Are Moving Right', The Free Press, 22 November 2024.

(10) John Judis and Ruy Teixeira, The Emerging Democratic Majority, New York 2002; John Judis and Ruy Teixera, Where Have all the Democrats Gone? The Soul of the Party in the Age of Extremes, New York 2023.

(11) The median household income in Robeson County is $39,393, nearly half the nationwide median of $75,000, while the poverty rate is over 27 per cent: Samuel Stebbins, 'These Are the Poorest Counties in North Carolina', 24/7 Wall St, 10 April 2024, which draws on the us Census Bureau's 2022 American Community Survey.

(12) Thomas Piketty, Capital and Ideology, Cambridge ma 2022, pp. 744–74; Dylan Riley and Robert Brenner, 'Seven Theses on American Politics', nlr 138, Nov–Dec 2022, p. 17.

(13) مصطلحي (اليسار البراهمي -Brahmin Left) و(يمين التجار -Merchant right) نحتهما الاقتصادي توماس بيكتي وزملائه. اشتق المصطلحان من النظام الطبقي الهندي. حيث يبدو بحسب بيكتي، ان الانقسام في الصراع السياسي الحديث في الديمقراطيات الغربية يتبع شكلا مشابها. اليسار البراهمي يصف انخفاض تصويت الطبقة العاملة لأحزاب اليسار الغربية مقابل الهيمنة المرتفعة لتصويت المصوتين ذوي التعليم العالي والنخب. وقد نشأ اليسار البراهمي عبر عقود طويلة. ومن بين احزابه/، بحسب بيكتي، الحزب الديمقراطي الأميركي. [المترجم]

للمزيد الاطلاع:

Amory Gethin, Clara Mart´inez-Toledano, Thomas Piketty, Brahmin Left Versus Merchant Right: Changing Political Cleavages in 21 Western Democracies, 1948–2020, The Quarterly Journal of Economics (2022), 1–48:

https://doi.org/10.1093/qje/qjab036.

(14) The best guide to the relations between capital and party coalitions in the us today remains Dylan Riley, 'Faultlines', nlr 126, Nov–Dec 2020. For a cursory map of political fundraising by industry in 2024, see Matthew Karp, 'Power Lines', Harper's, October 2024.

(15) According to VoteCast, Trump's support among voters under thirty climbed from 36 to 47 per cent: this cohort seems likely to have driven much of the lower-income shift between 2020 and 2024.

(16) Tim Barker, 'Dealignment', nlr–Sidecar, 11 November 2024. The fullest statisti¬cal portrait of the phenomenon in us politics is Jared Abbott, 'Understanding Class Dealignment', Catalyst, vol. 7, no. 4, Winter 2024.

(17) Turnout in 2020 was over 66 per cent; the pandemic election reforms of that year seem to have raised the floor of participation in national elections. Michael McDonald, 'Turnout Rates in the 2024 General Election', Election Lab at the University of Florida.

(18) Ashley Wu et al., 'Key to Trump's Win: Heavy Losses for Harris Across the Map', nyt, 19 November 2024.

(19) Elena Schneider, 'Wisconsin Democrats Built a Winning Machine. Now Comes Its Greatest Test', Politico, 3 April 2022.

(20) Andrew Stanton, 'Trump Beat Harris Among Pretrial Detainees in Chicago's Biggest Jail', Newsweek, 19 November 2024.

(21) قضية رو ضد وايد (Roe vs Wade) قرار من المحكمة العليا الامريكية عام 1973 قضت فيها بأن دستور الولايات المتحدة يحمي حرية المرأة الحامل في اختيار الإجهاض دون قيود حكومية. وقد ألغى القرار العديد من قوانين الإجهاض الفيدرالية والولائية في الولايات المتحدة. وقد نقضت ذات المحكمة هذا الحكم في يونيو/ حزيران 2022. وهي محكمة يغلب عليها اليمينيون الذين عينهم ترامب في فترة رئاسته الأولى. بموجب الحكم الأخير فإن ولاية أميركية باتت حرة في سنّ تشريع خاص بها للسماح بالإجهاض أو حظره. تعد قضية الإجهاض واحدة من أكثر القضايا إثارة للانقسام في المشهد السياسي الأميركي.

(22) They rolled us', lamented one veteran anti-abortion activist at the rnc. It was the first time since 1992 that a Republican platform did not include 'any pro-life language': Matt Smith, 'rnc Platform Committee Approves Trump-Backed gop Agenda in Milwaukee', wisn 12 News, 9 July 2024.

(23) A Center for Working-Class Politics study of Pennsylvania found that Democratic appeals to abortion rights were considerably less effective than rhetoric with an economic populist bent: Jared Abbott et al., Populism Wins Pennsylvania, New York 2024, pp. 10–20.

(24) A disingenuous suggestion, given congressional Republicans' demonstrated opposition to such a credit, but indicative of the increasing muddiness around the politics of family welfare. The American Enterprise Institute, once the dominant think tank on the right but largely left in the cold by Trump, scoured both propos¬als: Alex Brill, Kyle Pomerleau and Stan Veuger, 'Presidential Candidates' Duelling Tax Credit Expansions', Tax Notes Federal, vol. 185, 7 October 2024.

(25) 'Dads', by contrast, shifted one point toward Harris.

(26) بايدنوميكس Bidenomics اختصار، خصوصا من قبل العامة، لـ: السياسة الاقتصادية لإدارة جو بايدن. وغالبا ما يتم التهكم عليها من قبل مناوئيه بتحريفيها الى Badenomics

(27) Andrea Hsu, 'Union Membership Grew Last Year, But Only 10 Per Cent of us Workers Belong to A Union', npr: All Things Considered, 23 January 2024.

(28) Dean Baker, 'Joe Biden Has Given Us the Greatest Economy Ever', Center for Economic Policy Research blog, 19 May 2023.

(29)'Cross-Tabs: October 2024 Times/Siena Poll of the Black Likely Electorate', nyt, 12 October 2024.

(30) Annie Lowrey, 'The Cost-of-Living Crisis Explains Everything', The Atlantic, 11 November 2024.

(31) Dylan Riley, 'American Brumaire?', nlr 103, Jan–Feb 2017

(32) Mark Brewer, Party Images in the American Electorate, New York 2008.

(33) Perry Anderson, 'Passing the Baton', nlr 103, Jan–Feb 2017, pp. 62–4 and Matthew Karp, 'Party and Class in American Politics', nlr 139, Jan–Feb 2023.

أدب وفن

حول منحة الأدباء والفنانين والصحفيين

حسب الله يحيى

معلوم أن شغيلة الفكر والثقافة والإبداع في العراق، شغيلة تعاني من ثقل الحياة ووطأة الوضع الاقتصادي عليها، إلى جانب اتهام هذه النخب بـ (المستوى الهابط) تارة، وتغييب عدد منهم تارة أخرى. كما أن انكماش المطبوع الورقي، بسبب حضور مواقع التواصل الاجتماعي بقوة، شكّل ظاهرة سلبية على عدد كبير من الصحفيين والإعلاميين. وهو الأمر الذي جعل من مهنة الصحافة وما يرافقها من مطبوعات، مهنة تغيب عنها الأضواء يوماً بعد آخر. إزاء هذه الظروف المحيطة بالثقافة والإعلام، تنبهت الدولة الى هذه الشريحة المهمة في المجتمع، وأصدرت جملة قرارات من بينها: معالجة المرضى وتقديم منحة سنوية لهم وتخفيف أجور السفر. إلا أن حقيقة ما يجري، يكشف عن عمق الخراب والدمار والزيف والفساد الذي يثقل هذه الشغيلة الواعية؛ فالمشافي في المستوصفات الرسمية، لا تستقبل هذه الشغيلة ولا تعمل على مساعدتها ولا إعفائها من أجور العلاج، ولا أجور العمليات ولا تسفير من هم بهم حاجة للسفر خارج العراق لغرض العلاج. كما أن أجور السفر على متن الطائرات العراقية، لا ترحب – بل تعرقل – سفر هذه الفئة الاجتماعية، وتضع شتى العقبات للحيلولة دون دفع نصف أجور السفر المقررة رسمياً.

وتخضع عملية منح العاملين في شؤون الثقافة والفنون والصحافة، الى كثير من الإجراءات الروتينية العقيمة.. على الرغم من قلة مبلغ هذه المنحة التي لا تتجاوز في حدها الأعلى (935) ألف دينار، فيما تتسلم الفئة الوسطى من هذه الشغيلة مبلغ (700) ألف دينار، والفئة الثالثة (600) ألف دينار.

ومثل هذا التقسيم الفئوي، سوى كان على حسب الانتماء لاتحاد الأدباء او لنقابتي الفنانين والصحفيين، او على حساب الكفاءة والعطاء، يعد تقسيماً تعسفياً، لأن الهدف من هذه المنحة - على فقرها ومحدوديتها – لا يراد منها تقييم هذه الشريحة الاجتماعية، وانما تقديم المساعدة اليها لإعانتهم على هذه الحياة الصعبة التي يواجهونها، وعلى وجه الخصوص البطالة والشيخوخة والمرض التي تلاحق معظم العاملين في هذا الميدان. إنّ المنحة دعم لإنسانية الانسان.. ولذلك من المعيب جداً تقسيمهم الى ثلاث فئات، فيما الحاجة واحدة لدى الجميع. لذلك يحسن بالمسؤولين عن إقرار هذه المنح، تثبيتها في جدول الموازنة وتوزيعها بشكل عادل على جميع أفراد هذه الشغيلة بطريقة تنصف وتسهم في تقديم المساعدة إليهم، والعمل على مضاعفة مبالغ هذه المنح. ذلك أنها لا تذهب هدراً لفئة لا تستحقها وإنما هي انتباهة طيبة الى هؤلاء الذين أفنوا أعمارهم لتوعية الناس وتحقيق المتعة والفرح في صفحات حياتهم. الأمل أن يعاد تقييم مبالغ المنحة وتوزيعها على الجميع بشكل عادل وتفعيل معالجة المرضى مجاناً والسفر المخفض لهذه الفئة التي تستحق ما هو أكثر من ذلك.

إبراهيم الكوني والسرد البيئي

د. نادية هناوي

الكتابة السردية تجاه الطبيعة عامة والحيوان خاصة تبدو محدودة عربيا، وعلى الرغم من ذلك، فإن للتجريب الفني دوره في التوجه ببعض القصص والروايات توجها أخلاقيا، تتساوى فيه الشخصية الحيوانية مع الشخصية البشرية أو تندمج سردية الحيوان بسردية البيئة في تجسيد ما للحيوان فيها من مركزية على الصعيدين الموضوعي والفني. فأما الموضوعي فلأن علاقة الإنسان بالحيوان والبيئة إيجابية وبلا حدود. وأما الفني فلأن المتخيل الحيواني يشغل حيزا زمانيا ومكانيا خاصا من الأحداث. الأمر الذي يجعل الإنسان بلا مركزية تماشيا مع وجهة النظر البيئية التي لا تراه يقف على قمة التسلسل الهرمي للأنواع الحية، بل هو متساو مع الكائنات الحية في القيمة الوجودية. ولا تعني محورية الحيوان التركيز على التكيف البيئي حسب، بل تعني أيضا التعامل مع الحيوان بوصفه كائنا حيا له مشاعر ينبغي أن تراعى، كما له حقوق ينبغي أن تحترم، وله تاريخ هو جزء من تاريخ البشر وتطورهم الاجتماعي على مدى آلاف السنين. وهذا ما يجعل الشخصية الحيوانية منتجة لإبداع ما بعد بشري[1].

وقليلا ما نجد روايات عربية تتناصف فيها البطولة بين الشخصية الحيوانية والشخصية البشرية فتستقي الأخيرة تجاربها وتعكس مشاعرها ومعاناتها من خلال الأولى. والمغزى في أحيان كثيرة هو أخلاقي وفيه يكون للنظام البيئي حضور في عمليات التساوي في الكينونة والمحاكاة الموضوعية للواقع. وفي ذلك دليل على تأثر الكاتب العربي بشكل مباشر أو غير مباشر بالمنظورات المستحدثة في مجال الدفاع عن حقوق الحيوان وحماية البيئة ونظامها الطبيعي من زاويتين: الأولى صلة الشخصية البشرية بالشخصية الحيوانية، والأخرى صلتهما بالبيئة الطبيعية.

وكما أن المركزية للحيوان، فإن للبيئة مثل ذلك أيضا، ومن ثم تكون القصص والروايات المندرجة في هذه الاتجاه - على قلتها - ليست من السرد غير الواقعي الذي فيه يسوح التخييل في مناطق اللامعقول

والاستحالة الواقعية، بل هو سرد واقعي يعتمد أساليب فنية مطورة أو مستحدثة في التعامل مع البشر والحيوانات مما يسميه ديفيد هيرمان (الخيال الإبداعي) وبما يوثق الروابط الاجتماعية والنفسية بين عوالم الحياة البشرية وعوالم حياة الحيوانات فيكشف عن الأبعاد الأخلاقية أو يطرح أسئلة النوع الاجتماعي والهوية والآخر والهيمنة.. الخ[2].

ويعد الروائي إبراهيم الكوني مثالا متقدما بروايتيه (التبر) و(ناقة الله)، والكوني معروف ببراعته في تجسيد سردية الصحراء فهي بيئته التي عاش فيها وخبر أنماط العيش في كنفها، وطرق التكيف معها وأساليب التعامل مع حيواناتها. وفي هذه الرواية تمتلك الشخصية الحيوانية استقلالها ولها كيانها فلا يسند السارد إليها حدثا أو قولا إلا كما يسنده للشخصية البشرية.

والصحراء هي القاسم المشترك بين الشخصيتين وفيها تدور أحداث الرواية، وتبدأ بالمهري الأسود وقد تعرف إليه اوخيد وسماه الأبلق وعاشا سوية وبمرور الوقت تشكلت بينهما علاقة روحية كبيرة، فكان كل واحد منهما يعرف أحوال الآخر وتفاصيل حياته في مغامراته وإخفاقاته، فرحه وحزنه إلى درجة أن كل واحد منهما كان يقتفي أثر الآخر. وأدى التصوير الواقعي دورا مهما في إنتاج متخيل حيواني جسد عن قرب تفاصيل تعلق الأبلق باوخيد فمثلا كانت نبرات صوت الأبلق ذات دلالات يفهمها اوخيد. وحرص السارد العليم على محاكاة ترددتها بالرسم كتابيا (يرد عليه متمايلا ينثر الزبد ويمضغ الرسن في عدوه السعيد: أ و –ع-ع-ع فيضحك اوخيد ويستمر في مداعبته)[3]. وكررها كثيرا معززا بذلك الصورة الواقعية لطبيعة هذه العلاقة الوجدانية والروحية بين الأبلق واوخيد (في بعض الأحيان يشتكي في بؤس آ- آ-آ- ع-ع-ع)[4] كما أضفى استعمال الحوارات والمونولوجات غير المباشرة فاعلية واقعية على المتخيل الحيواني(قل لي بالله: كيف أنر عقلك إذا كنت أنا نفسي مثلك احتاج إلى من يعينني على تنوير عقلي؟ الغشاوة قدرنا والمصائد هي التي تعلم الحيلة آه الغفلة الغفلة. اقترب المهري الحزين وتسمح بذراعه تألم اوخيد مغيرا لهجته لا يهم لا يهم لا تكترث. يعيِّرك الحمقى بالجرب لا تعرهم اهتماما.. إذ رأسه في حضنه ووقف طويلا في المرعى يعزيه)[5].

وتستمر الرواية على هذا المنوال في عرض المشاعر النفسية المتبادلة، وفجأة يتغير مجرى الأحداث بإصابة الأبلق بالجرب وهو المرض الخطير الذي يصيب الإبل وينتقل إلى الحيوانات التي تخالطها. ومحنة الأبلق الجسدية هي نتيجة متوقعة لمخالفته نظام الطبيعة. إذ أن للصحراء أنماطها التي إن خولفت من لدن الإنسان أو الحيوان، كان وبالها خطيرا. ولقد خالف الأبلق نوعه الاجتماعي من جراء مغامراته مع النوق فأصيب بهذا الداء. وصعب على اوخيد معالجته فليس التشافي من الجرب بالهين. واستعمل مختلف أنواع الأعشاب الطبية ولكنها لم تنفع في مداواة الأبلق. ولم يستطع اوخيد ان يمنع نفسه من توجيه العتب للمهر معبرا عن عواطف جياشة حيال ما ألم بصديقه ورفيقه، وراح يكثر من توظيف المقاطع الحوارية (الآن ستخبرني ماذا فعلت لك حتى تفعل بي ما فعلت؟ الآن

ستقول لي لماذا شوهتني بالعار كان عليك أن تشكرني بدل أن تفعل بي ما فعلت.. اشتكى المهري محاولا أن يشيح وجهه ولكن اوخيد اعترضه وصاح غاضبا لا تتهرب يجب ان نتحاسب اليوم)[6] وأحيانا تبدأ الحوارات في شكل مناجاة نفسية ثم تنتهي بمنولوجات حرة غير مباشرة.

ولم يعد من سبيل أمام اوخيد سوى أن يتوجه بالأبلق إلى ضريح ولي صالح كان قد شهد بداية الفتوحات ومات عطشا في الصحراء وهو يجاهد في سبيل الله. وخلال الرحلة تعن له ذكريات حبيبة إلى نفسه (تذكر كيف رعاه ورباه.. كان يسرق الشعير من الخباء ويطرحه في راحتي يديه ويقدمه له..)[7] وحين وصلا الضريح أناخ ابلقه قرب الضريح ونذر ان يذبح جملا سمينا أن هو شفي. وهنا يصور السارد بعضا من ميثولوجيات ما يؤمن به البدو؛ فهم حين لا يجدون علاجا ناجعا لأمراضهم وأمراض حيواناتهم، يمارسون هذا الطقس الشعائري في التداوي الجسدي، معبرين بذلك عن طبيعة تعايشهم الروحي مع البيئة الصحراوية. ويعد الحلم جزءا رئيسا من طقس التداوي ولذلك كان واجبا على اوخيد المبيت عند الضريح وبالفعل بات، ورأى في المنام أن سيلا يأتي في الليل ويجرف الأبلق ويبتلعه. وما أدهشه هو أن الماء داكن وفيه (شياطين يشدون مهريه من ذيله إلى أسفل عازمين أن يرموا به في هاوية ظلماء. أفاق من نومه ورأى الوهج الأول يشق ظلمات الفجر)[8] وكان واجبا أن يجد من يفسر له الحلم. والتفسير هو جزء آخر من أجزاء طقس التداوي الذي ساهم في تصعيد درجة المتخيل الحيواني. ويجد اوخيد التفسير عند أحد العارفين ومفاده أن يقوم برحلة إلى سدرة المنتهى، فيها يكون الشفاء بالجنون لكن الأبلق لا يقبل بذلك، تأكيدا لاستقلالية الحيوان وأن له أن يختار مصيره. وأدرك اوخيد أن الأبلق يفضل الموت على الاستمرار بالمعاناة في هذه المحنة. ويصور السارد العليم هذه المحنة ممزوجة بقسوة الصحراء (رغى بصوت فجيع أليم أحس اوخيد بالوخزة في قلبه.. اصبر اصبر الحياة هي الصبر.. ولكن المهري لم يصبر اشتكى بصوت عال اليم آ آ آ تردد الصدى في القمم المعزولة في الفلاة الأبدية)[9] وتجري مطاردة حامية، بطلاها اوخيد والحيوان المجنون. وفي ذروة انهيار الأبلق لم يتخل اوخيد عنه لأن ما بينهما هو عهد وفاء أبدي (التحم الجسد بالجسد واختلط الدم بالدم في الماضي كانا صديقين فقط اما اليوم فإنهما ارتبطا بوثاق أقوى بالدم. إخوة الدم أقوى من إخوة النسب)[10] وخاتمة المطاردة أنهما سقطا في بئر من آبار الصحراء. وهنا يظهر الشيخ الحكيم فيقول: إن كل شيء سيعود إلى الأصل، في إشارة إلى أن الفطرة هي القانون الأول الذي يحكم علاقة الإنسان بالحيوان فيستبشر اوخيد خيرا ويخاطب رفيقه (ستعود أبلق كما كنت ألا يسرك أن ترى نفسك أبلق جميلا نادرا. اغرورقت عينا الأبلق بالدموع فاحتضنه اوخيد. مكثا طويلا متعانقين في المدى الأبدي قبل أن يتكاثف المساء)[11].

وإذا كانت الرابطة الروحية بين الإنسان والحيوان في رواية (التبر) قد جسّدت عهد الوفاء كقيمة أخلاقية من قيم التآلف مع البيئة الصحراوية، فإن رواية (ناقة الله)

للكاتب نفسه جسدت قيمة أخلاقية مضادة هي خيانة العهد. وبطلة الرواية ناقة اسمها تاملالت تربطها بالبطل علاقة عاطفية قوية تنسيه أن الناقة حيوان فكان يعاملها معاملة خاصة (لم يجد لنفسه مخلوقا يفهم له منطقا غيرها.. وقد أنساه منطق المخلوق الذي يسميه أبناء الصحراء ناقة كل منطق آخر أنساه منطق الأنس والجن والطير)[12] والقاسم المشترك بينهما أن لا هوية تفصل بينهما(هو سعيد بهوية اللاهوية في حين تبدو سعيدة في وجودها في برزخ اللاهوية فإنكار الهوية وحده ضمان الحرية)[13] لكن للبيئة الصحراوية نظامها الذي يوجب على الإنسان والحيوان الخضوع له. وبسبب قوة العلاقة بين الناقة وصاحبها يجد الأخير نفسه أمام مفارقة ساخرة لكنه ملزم بقبولها وتتمثل في خيانة ناقته من أجل أن ييسِّر عليها حياتها. وأحست الناقة بما يدبره لها (كانت تقتفي خطاه كالعادة ولكنه لاحظ كيف تتفحصه بإيماء مريب هذه المرة كأنها أدركت انه يخفي سرا) [14] فتودد إليها واستسمحها مرارا، مرددا إنه لم يفعل ما فعل إلا لتحريرها من الألم. ولقد اعتاد البدو مسايرة النظام الطبيعي ولكن عمق معرفتهم بهذا النظام جعلتهم يكتسبون خبرات متنوعة ومختلفة، ساعدت في تسهيل مصاعب حياتهم وقد تكون في أحايين كثيرة على حساب حيواناتهم. وكان البطل على دراية بتلك الخبرات وبدروس الصحراء وأولها التحمل والصبر (احترف الصمت لأن الصحراء شجعته على الصمت وعندما شاركه تاملالت الصمت استمرا الصمت فكانت بينهما ترجمانا للألسن)[15] ومن دروس الصحراء أن للإبل طباعا، على الإنسان أن يحذر منها وأن الإبل تؤمن بأن في دماء أهل الصحراء تجري دماء الجن.

وبهذا يتساوى البشر والإبل في معرفة أحدهما بالآخر. وهو ما يصب في صالح التكيف البيئي مع الصحراء و (لم تكن لتنطلي عليه، لأنه أعلم بها من نفسها كما كانت هي أعلم به من نفسه. إنها الصفقة المتبادلة التي تجعل من الخداع عملا مستحيلا للقطبين)[16] واستقلال الناقة هو نتاج ما تملكه من عقل يفكر تماما كالإنسان (يستطيع أن يعترف لها الآن بالبطولة لأنها تألمت بصمت وتصدت للداء بشجاعة، أهلتها لأن تكون إنسانا في حين حطت منه البلبلة ليدب على الأرض حيوانا)[17].

ولأن الشعور بالخيانة ممض، قرر البطل هجرها، ولكنها بالنسبة إليه هوية وطن ولا ملاذ له من دونه، لذا عاد إليها وطلب الغفران منها فهي ناقة الله وعليه أن يحبها كما يحب نفسه ويعنيها على محنتها بدل أن يرتكب في حقها آثاما، فالرباط بينهما ليس جسديا حسب، بل هو روحي ومن الواجب أن يصون هذا الرباط وإلا فإن الضياع مصيره كما ضاع من قبله قوم صالح حين عقروا الناقة.

إن ما جسّده إبراهيم الكوني في روايتيه (التبر) و(ناقة الله) يمثل مرحلة متقدمة في توظيف السرد البيئي والاستعانة بالمتخيل الحيواني في تجسيد البيئة واستثمارها سرديا بكل ما فيها من حيوات وموجودات.

الهوامش

(1) Corinne, Donly, Toward the Eco-Narrative: Rethinking the Role of Conflict in Storytelling, Humanities journal, 6(2), 2017, P21- 43.

(2) Herman, David, Creatural Fictions Human - Animal Relationships in Twentieth- and Twenty-First-Century Literature, Palgrave Macmillan, First published, UK, 2016, p 2-3.

وكتب هيرمان مقدمة الكتاب تحت عنوانه (أدب ما وراء الإنسان Literature beyond the Human)

(3) التبر رواية، إبراهيم الكوني، بيروت: دار التنوير للنشر، ط3، 1992، ص14.

(4) الرواية، ص26

(5) الرواية، ص22

(6) الرواية، ص64-63

(7) الرواية، ص20

(8) الرواية، ص31-30

(9) الرواية، ص35

(10) الرواية، ص47-46

(11) الرواية، ص59

(12) ناقة الله رواية، إبراهيم الكوني، بيروت: دار سؤال للنشر، ط1، 2015، ص15-14

(13) الرواية، ص16

(14) الرواية، ص18

(15) الرواية، ص24

(16) الرواية، ص47

(17) الرواية، ص51

والمجلة قيد الطبع

علمنا بغياب كوكبة جديدة من مفكرينا ومبدعينا التقدميين الكبار، الذين صاغوا الكلمات من أجل إشاعة الوعي بين الناس، فقد رحل المناضل الكبير والباحث: مكرم الطالباني، كما رحل الفنان المسرحي والسينمائي عبد الوهاب الدايني، والطبيب النفسي والشاعر والكاتب البارز: د. ريكان إبراهيم. كما غاب عنا الروائي المناضل محمود سعيد. ولاحقا ودعنا كلا من: الإعلامي والكاتب المسرحي علاء حسن العتابي، والروائي الكبير أحمد خلف، والشاعر والروائي ارشد توفيق، والكاتب والمسرحي د. ثائر العذاري

لأرواحهم السلام والطمأنينة والذكر الطيب على الدوام

الثقافة الجديدة

حبيب الروح والحرب في الشرق

أحمد فضل شبلول*

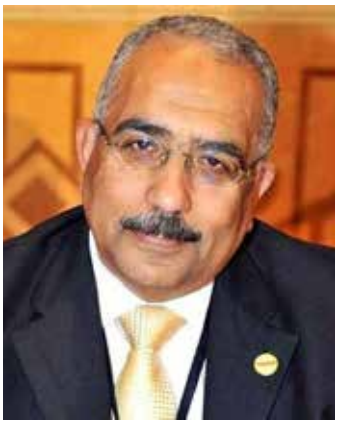

يتساءل المرء، حين ينتهي من قراءة رواية "الحرب في الشرق" الروائي د. زين عبد الهادي: هل هي سيرة الطفل أم سيرة أمه زينب، أم سيرة مدينة بورسعيد؟ بورسعيد التي أهدى الكاتبُ روايتَه لها فقال في عتبة الإهداء: "من أجل شهداء قناة السويس ومدنها، ومن أجل شهداء مدينة بورسعيد الصغيرة (مدينة عموم القناة)، (بوابة الرشق)، و(المدينة الباسلة) التي احتضنت الجميع وعانت كثيرًا مِنْ كُلِّ مَنْ أحبَّها ومِمنْ لم يُحبها". متمنيًا أن يعود لها حقُّها وقيمتُها التاريخية كمدينة مصرية ذات صبغةٍ عالمية من أجل الإنسانية كلِّها في يوم قريب.

وهو يذكرُ في إهدائه كلَّ الحروب المعاصرة التي راح ضحيتها الملايين، بما في ذلك ضحايا شقِّ قناة السويس التي افتتحت في 17 نوفمبر سنة 1869، وكأنها كانت حربًا من نوع آخر، وصراعًا مع الحفر والسوط والتراب والماء والجوع والإهانة، راح ضحيته 120 ألف مواطن مصري.

زين عبدالهادي لم يكُنْ يتخيلُ، ولم يكنْ يوثِّقُ وهو يكتب روايتَه، بل كانت روحُه هي التي تكتبُ من أجل مدينته الباسلة، لذا نرى تقنيات روائية تتناسب وحالة الفقد والحنين (نوستالوجيا) والشجن والأنين، وكأنه يعزف على ناي الوجع والألم والبكاء، وينزفُ شعرًا، فنرى حالات شعرية وغنائية تعلو فضاء النص الروائي على مدى فصوله السبعة والعشرين، بداية من فالس حبيب الروح في مواجهة فصل الشتاء ذي المذاق المختلف عن شتاءات العالم، إذْ يتكاثفُ الضبابُ كل صباح، وينطلقُ سريعا كفارسٍ قديم مُتسلقا البيوتَ والقبابَ، فتتراءى روحُ العالَم القديم، وتنبعث الحضارات المتوسطية من فرعونية وإغريقية وفينيقية وبدائية، كلها تركضُ في مباراة حماسية تُثبتُ فيها ولاءها لهذه الشطآن والشوارع، بينما على الأرض تتجمعُ قطراتُ المطر، مُعلنةً عن موسم جديد للشتاء.

نحن إذن أمام بداية روائية شعرية حالمة، تحاول أن تستحضرَ روح العالم في كفِّها، فنشعر بعالمية تلك المدينة بل بكونيتها، على الرغم من حداثة عهدِها نسبيًا.

لعل البداية بضمير المتكلم على لسان الطفل في "الحرب في الشرق" تذكرنا ببداية رواية

"السراب" لنجيب محفوظ حيث يتحدث الطفل كامل رؤبة لاظ، مع اختلاف موضوع الروايتين اختلافًا بينًا، بطبيعة الحال.

للأغاني والألحان والموسيقى والألوان، حضورٌ طاغٍ في الرواية، ومنذ الفصل الأول نرى ألفونوغرافَ الذهبي ذا الفوهة التي تشبه ميكروفونًا يدويًا كبيرًا، والذي كان يصدح بأغنيات من اليونان وأمريكا وبريطانيا وإيطاليا، ما يشي بعالمية المدينة البحرية وانفتاح أهلها على الفنون المختلفة والبلاد المتنوعة، كأنها نزعت البساط من تحت أرجل مدينة الإسكندرية، هذا عدا أغاني عبدالوهاب ومحمد فوزي وفريد وليلى مراد وأسمهان وأم كلثوم وحورية حسن، ما يؤكد الشعور الإنساني ورهافة أحاسيس ومشاعر تلك المجموعة من البشر التي ستعاني الأمرين بعد ذلك، جرَّاء الحرب على الشرق، أو الحرب في الشرق.

وفي الوقت نفسه نرى انفتاح تلك الأسرة على جيرانها من الجنسيات المختلفة، فالجار ينِّي يوناني يبيع الورد، تعوَّد أن يُهدي أسرة السارد، أسطوانات بعد عودته من أجازته التي يقضيها في أثينا. والأسطوانات كانت هي المعبر أو الحامل أو الوسيلة التي يتعامل بها الناس للاستمتاع بالفن وقتها. وليست الأغاني وحدها هي التي تجذب الأب والجدة وبقية أفراد العائلة لعالم الفنون، ولكن أيضا السينما، وخاصة سينما الأهلي القريبة من البيت، وأفيشات الأفلام.

على هذا الجو، أو على هذا النحو، نشأ الطفل منذ أن كان جنينًا، لأم فنانة، تعلمت الرسم والموسيقى والتلوين والتنغيم، وعملت في أحد مصانع الشاي، وفضَّلت أن تتزوج حبيبها محمد – الذي يصغرها بخمس سنوات - على أن تمضي قُدمًا في حياة الفن والغناء الذي كانت تجيده تماما وتُطرِب كل من يستمع إليها. لقد فضلت حبيبها على الضابط الذي تقدَّم لها. فضَّلت زينب الحبَّ على الاشتغال بالفن، وعاشت حياتها في ضنك مادي استعاضت عنه ببث روح الحب والفن والحنان في زوجها وأفراد عائلتها، وصار شعارُها في الحب والفن هو أغنية "حبيب الروح" لليلى مراد، بل أطلقت هذا المسمَّى على زوجها، فهو "حبيب الروح" الذي يعمل في مصنع الغزل والنسيج والذي يتمتع بحسٍّ أدبي وجمال روحي، والذي يكتب الروايات والقصص القصيرة، ولكنه لا ينشرها، مفضلا أن يحتفظ بها في أعلى رفٍّ في الدولاب.

لم تكن زينب لطفلها السارد وبطل الرواية – ولأولادها الآخرين - مجرد أم، بل ملاكا كامل الأوصاف في الوداعة والجمال، لم ينل من جمالها الخلاب المطرُ والشمسُ. اختارت أن تكون أمًا بصوت جميل. تُغني له ولحبيب روحها وأولادها، وفي أفراح بعض صديقاتها ومعارفها.

وعلى هذا يتمحور الفصل الأول الذي يشعُّ جمالا وحنانًا وحلمًا وفنًّا وحُبًا وسعادة، يجعلنا نحزن ونتحسر وننقم ونتأسَّى ونبكي على روح تلك المدينة، عندما تحلق طائرات العدوان الثلاثي وترمي قذائفها وحرائقها عليها وعلى شعبها المسالم المحب للحياة.

إنه الشرق الروحاني الصوفي الإنساني تحت قصف عدو غاشم عنيف لا تهمه سوى الماديات والأرباح التي يجنيها من قناة السويس، وعلى الرغم من عدم ارتياحي أو تأييدي لعنوان الرواية "الحرب في الشرق" كعنوان مباشر وتقريري فإنني أراه مناسبًا

لتوصيف الحالة، فهي حرب على – وفي - الشرق، وعلى كل هذا الجمال المتجسِّد في شخصية "زينب". إنه عدوان وحرب على زينب نفسها، بكل ما تمثله من قيم نبيلة وأخلاق رفيعة، وعطف وحنان وفن وحب لا نهاية له تحمله لأفراد أسرتها الصغيرة التي ترمز لمصر كلها في تلك الآونة.

تحاول بقية فصول الرواية، استعادة تلك اللحظات الإنسانية الجميلة التي كان عليها الطفل في منزله ببور سعيد. إنها نشيدُ الحنين، والذكرياتُ المبلَّلةُ بالشهد والدموع، التي تجذب الراوي ليحقق ذلك التوازن النفسي بعد أن تغير كل شيء في الحياة جرَّاء الحرب والتهجير والانتقال من عالم إلى عالم، ومن حال إلى حال.

وهكذا تكشف الرواية عالم ما وراء الحرب، أو ما تخلِّفه الحرب من مآسٍ وجراح وتفكك وانهيار، وفي الوقت نفسه تكشف روح التحدي والتصدي الكامنة في البشر. إن الرواية لا تتحدث حديثًا مباشرا عن الحرب، مثلما رأينا في رواية "عاصفة على الشرق" للروائي السعودي د. نبيل المحيش – على سبيل المثال - والتي تتناول الواقع السياسي العالمي الآن، عن طريق عدد محدود من الشخصيات تكشف عمَّا يمور به الفكر السياسي وما يُدبر للشرق الأوسط من مخططات وسيناريوهات تهدف أولا وأخيرا إلى الحفاظ على أمن إسرائيل وأمانها، ورغبة الدول الكبرى في الشرق والغرب في تقسيم الكعكة العربية الكبرى على بعضهم البعض، كل حسب قوته و"فتونته" وما يملكه من أسلحة فتاكة وقنابل ذرية ورؤوس نووية وأساطيل بحرية تعربد في المياه الإقليمية العربية.

"الحرب في الشرق" لا تتحدث عن هذا، على الرغم من أن هذا الأمر بالتأكيد لا يبعد عن فكر الراوي أو السارد العالق بين الذكريات والأحلام، والحنين والأوهام، أو عن فكر المؤلف نفسه زين عبد الهادي، ولكن أرى أنها - أي "الحرب في الشرق" - معنية بالجانب الإنساني الذي تخلفه الحروب جرَّاء القصف والفتك والقتل والدم والدمار والخراب، ومحاولة القضاء على الروح الإنساني النبيل والجميل، كما رأيناه في زينب وجدة الطفل الراوي، وأبيه. وبالتالي فلا مجال للمقارنة بين الروايتين: "الحرب في الشرق"، و"عاصفة على الشرق" رغم تشابه العنوانين.

لم يلجأ الكاتب إلى السرد التقليدي الخطي المعتاد، بل استثمر في تقنية تشظي الزمن، أو اللعب بالزمن تقدمًا أو تحركًا إلى الأمام (Moving Forward) ورجوعًا إلى الخلف أو الاسترجاع (flash back)، وتحولات المكان، فمن مساكن عمال مصنع الغزل والنسيج في "القابوطي" والتي تتكون من طابقين، إلى شقة ضيقة (مساحتها ستون مترًا فقط، يسكنها ثلاث عائلات في ثلاث غرف وحمام مشترك) بالمساكن الشعبية في حي العرب (هذا الاسم الذي قد تكون له دلالة رمزية، رغم وجوده الواقعي في المدينة) تسلموها من حكومة الثورة، يتكوّم فيها جميع أفراد العائلة بما فيهم الجد والجدة (أو سيدي وستي) والعمة أمينة وأولادها وكراكيبها، وكأنه نوع من التعذيب الجماعي الذي يستمتع به الإنجليز.

من المتوقّع أنه في مثل هذه الأجواء، وتكوِّم الأجساد على الأجساد، أن تنتشر الرذيلة وتعاطي المخدرات والعلاقات الجنسية، كما لاحظنا في روايات أخرى تحدثت عن

الأحياء الشعبية وازدحام المساكن والشقق بالكتل البشرية، كما رأينا في روايات مصطفى نصر، وخاصة في سنوات التهجير، كما رأينا في رواية "الخروج" للكاتب محمد عبدالله عيسى، وهي أيضا عن خروج أهالي مدن القنال للمحافظات المجاورة بعد 1967. وغيرها من الأعمال التي تناولت تلك الحقبة مثل ثلاثية الخروج والتكوين والرؤية لماجد موريس.

ولكن كاتبنا زين عبدالهادي لم يدخل من هذا الباب، فالسارد يرى أن هذا البيت الجديد يضجُ بحياةٍ لا حدود لها، وموتٍ ينتظرُهم في كُلِّ خُطوة. ودواعي الموت كثيرة، منها الحرب القادمة، ومنها البؤس والشقاء والمرض وكثرة الذباب الذي يهجم عليهم، وكأنه معادل موضوعي للأعداء، ومع هذا لم يقدم لنا السارد مشهدًا خارجًا أو منافيًا للآداب. ولا أدري أهذا يحسب للسارد، أم يحسب عليه؟

ومن أمثلة اللعب بالزمن، أو الجمع بين زمنين في عبارة واحدة دالة، لها بعدها الرمزي ذي المغزى السياسي قول السارد: "عجلات ماركة نصر التي صنعها عبد الناصر في المصانع التي فتح أبوابها على مصراعيها للشعب، أغلقت جميعها بعد ذلك في زمن آخر". ليفتح السارد بذلك قوسًا للمقارنة بين عصرين أو بين زمنين.

لقد عانت تلك الأسرة أو تلك الشريحة المصرية في بور سعيد من متاعب الحياة من حكومة الثورة ثم الحرب في الشرق، ففي أثناء انتقالهم من القابوطي إلى المساكن الشعبية كانوا يسيرون رافعي رؤوسهم المنهكة من التعب والمرض والحر والفقر والروماتيزم والتهاب المفاصل والرطوبة التي اخترقت أجسادَهم جميعا دون استثناء. ولعل عبارة "رافعي رؤوسهم" تتواءم مع صيحة الزعيم وقتها: "ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعباد"، ولكنَّ هذه الرأس المرفوعة مجازًا منهكةٌ من التعب والمرض والحر والفقر والرطوبة، فكيف ستُرفع في عزةٍ وكرامة وإباء وشموخ كما رغب أو كما نادى الزعيم؟ إنه رفع يوازي الخفض أو الانحناء يذكرني بكلمات سبارتكوس الأخيرة لأمل دنقل:

مُعَلَّقٌ أنا على مشانقِ الصَّباحْ
وجبهتي بالموتِ مَحنِيَّهْ
لأنني لم أَحْنِها.. حَيَّهْ!

وكأن هذه المجموعة من البشر الذين يسيرون رافعي الرؤوس المنهكة في بورسعيد، هم الذين يخاطبهم أمل بقوله:

يا إخوتي الذينَ يعبُرون في المِيدان مُطرِقينْ
مُنحدرين في نهايةِ المساءْ
في شارِع الإسكندرِ الأكبرْ
لا تخجلوا.. ولترْفعوا عيونَكم اليّ
لأنكم مُعلَّقونَ جانبي.. على مشانِق القيصَرْ.

إنها المدينة الباسلة التي قال عنها الراوي: "مدينة كان نصفها ينتمي للبحر المتوسط وللعصر الملكي، والنصف الآخر ينتمي للعوز والفقر والعصر الثوري".

من يقرأ سيرة السارد الطفل، يكتشف أننا أمام طفل ذكي لمّاح خبر الحياة عن طريق جولاته وتجواله ورحلاته - وهو في الرابعة من عمره - مع جده الأمي على عربة الخضار الذي يحفظ من الشعرِ عشرة آلاف بيت، ومن أحاديث الإمام محمد عبده الكثير، ويحب أم كلثوم وعبد الوهاب وصوت زينب حين تغني. وهو يقول عن تلك الجولات والرحلات: "لقد كانت تلك الرحلاتُ العجائبيةُ ممتلئة بكل ما

يخطر على البال من الأعاجيب المدهشة".
لقد كبر الطفل وأصبح أستاذًا جامعيًا، ولكن أشباح الموتى وصورة عزرائيل تطارده في كل مكان، كانوا يخرجون له من بين أشجار الغابات الكثيفة، ومن بين قمم الجبال التي يتلبسها الجليد، من قلب الكهوف الغائرة في الصخر، أو من تحت السطح المتجمد في القطب الشمالي، أو فوق أمواج البحار والمحيطات، في الحانات الدافئة في كل المدن، من تحت مظلات مقاهي أوروبا، من خلف زجاج محلات الهدايا التذكارية والألعاب وزجاجات العطور والخمور، فوق طاولات مطاعم الأكلات البحرية، من باحة كنيسة مونمارتر في باريس أو كاتدرائية روتشستر في لندن القديمة الشاهقة الارتفاع، من الحصون والقلاع التي تعود للعصور الوسطى.
هنا نرى رؤية أخرى للعالم وللأشياء، ونرى صعودًا لفكرة العالمية التي كانت متجسدة قبلا في مدينة بور سعيد، لتتسع الرؤية وتتخطى المدينة الصغيرة وتحلق في سماء العالم الغربي، ولكن البذرة تكون دائما من مدينة الرشق، ليعود السارد مجددا إلى طفولته، ويحكي لنا عن تلك الأشباح التي تيقنت جدته في يوم من الأيام أنه يراها وأنها تحلق على الحائط، بعد أن قالت له: "يا وله. أنت مش ها تبطل التهيؤات دي؟!".
إنه لم ينس أن يحكي لنا عن شقيق جده، وعمته أمينة وأزواجها المصريين والأجانب (وهي في الحقيقة عمة أمه وأخت جده) التي تمتهن مهنًا غريبة مثل بيع الروبابكيا، والتي كانت تمتلك خاصية لا تمتلكها سوى الثعابين، فهي لم تكن تُغلق عينيها أبدا. كانت عيناها بلا رموش، سقطت الرموش بفعل الزمن والبؤس والرمد المتكرر الذي لم تعالجه قط إلا بكمادات الشاي الساخن، كما أنها كانت دائمة الركض في الشوارع بحثًا عمَّا يسد أفواه أطفالها السبعة. فهي لم تشعر أبدًا بالمعنى الحقيقي للزواج سوى إنجاب الأطفال.
وهكذا ينتقل بنا السارد من زمن إلى زمن، ومن شخصية إلى شخصية، ومن مكان إلى مكان، فمن 1910 إلى 2020 (أكثر من قرن من الزمان). في كل يوم تراوده الذكرى ويهيمن الحنين للعودة إلى موطنه الأصلي بورسعيد، العودة إلى شاطئ البحر، هروبا من القاهرة التي استقر فيها فيما بعد، ويشبِّه العودة أو الزيارة بأنها حجٌّ من نوع خاص حيث تتساوى هذه الفكرة والوجود في تلك اللحظة، ولا يمكن الهرب منها، ولا مراوغتها، إنها تقبض على الروح فلا يجد منها فكاكا.
وأثناء الذهاب بالقطار ينفتح دفتر الذكريات، وينهمر شلال المرئيات، حيث تبدأ الحياة في بورسعيد من عام 1869 مع افتتاح قناة السويس، تلك المدينة التي بُنيت على عجل، والتي أصبحت لؤلؤة الرشق، والتي أضحت مركزًا لحروب طويلة مرَّ بها العالم في النصف الأول من القرن العشرين، وأصبحت تمثل مقبرةً ومسجدًا وكنيسةً ومعبدًا لكل أرواح السكان في الألم، إنها رمز للإنسانية في مواجهة عذاباتها وبهجتها وآلامها وبسمتها.
وهنا أتذكر قول أحمد شوقي لابنيه (علي وحسين) في كتابه "أسواق الذهب" عن قناة السويس أثناء عبورهم فيها من ميناء السويس إلى منفاه بإسبانيا عام 1915: "القناة، وما أدراكما ما القناة؟ حظ البلاد الأغبر، من التقاءِ الأبيض والأحمر؛ بَيَد أنَّها أحلام الأوَل،

وأماني الممالكِ والدول، الفراعنة حاولوها، والبطالسة زاولوها، والقياصرة تناولوها، والعَربُ لأمر ما تجاهلوها؛ إلى أن جرى القدر لغايتِه، وأتى إسماعيلُ بآيته، فانفتح البرزخُ بعنايته، والتقى البحران تحت رايتِه، في جُمع من التيجان لم يشهده إكليلُه، قد كن يُتوِّج فيه لو شهدتْه جيوشُه وأساطيلُه؛ وما إسماعيل إلا قيصر لو أنَّه وفِّق، والإسكندر لو لم يُخفِق؛ تَرك لكم عزَّ الغد، وكنز الأبد، والمنْجم الأحد، والوقفَ الذي إن فات الوالد فلن يفوت الولد".

إن السارد يستدعي فناني العالم مع أبيه وأصدقائه في مصنع الغزل والنسيج، ليضعوا اللمسات الأخيرة على صورة بورسعيد متمثلةً في صورة عروس البحر النائمة في دلال على الشاطئ، محلاة بالأصداف، جدائل شعرها المسترسل. وهنا تبدو ثقافة السارد التشكيلية، ولكن المخربين لم يتركوا هذا الجمال على حاله. فقد تعرضت حورية البحر الصغيرة عدة مرات للتخريب. فقدتْ رأسها مرتين، بمجرد أن تم قطع ذراعها، وسُكب عليها الدهان عدة مرات ولكن في كل مرة يتم إنقاذُها واستعادتُها، حتى تتمكن من البقاء في مكانها بجوار الماء كي ترحب بالمسافرين.

إن عروس البحر هنا هي المعادل الموضوعي لمدينة بورسعيد نفسها.

هكذا يكون التآمر على محو الجمال في تلك المدينة، إن لم يكن محوها هي أيضا، ولكن في كل مرة يقف المخلصون من أبنائها وعارفي قدرها وفضلها للدفاع عنها وعن جمالها المتفرد.

وتنهمر الذكريات، ويمر شريط الأزمات ما بين موت وحياة، ويستعيد السارد أيام صباه، التي هي أيام المدينة نفسها بحلوها ومرها، بحربها وسلمها. ويعيد علينا حكايات 1956 بعد قرار التأميم الشهير الذي اتخذه الرئيس جمال عبدالناصر في خطابه يوم 26 يوليو في المنشية بالإسكندرية. وهو قرار يعادل ميلاد السارد نفسه (يُذكر أن الكاتب ولد في 1 ديسمبر من عام 1956) بعد أن احترق بالكامل حي العرب، وبعد أن احترق جزء كبير من حي المناخ، وبعد أن فعلت قنابل النابالم الحارقة مفعولها.

في مثل هذه الأجواء، تلد زينب الساردَ في مياه الكنال، ليصرخ الجميع من مشهد بقعة مياه البحر التي تحولت للون الأحمر حولها الذي فرشته الدماء، وهكذا كان أول ما تذوقه السارد من الحياة تلك المياه الحمراء المالحة، ويظن أنه رأى جنيات صغيرات في تلك اللحظة، التي حاول أن يفتح فيها عينه في الماء.

هذا التماس بين ميلاد السارد، وميلاد الكاتب، على الرغم من اختلاف الاسمين (سيد وزين)؛ يوحي لنا بأن العمل فيه الكثير من السيرة الذاتية للمؤلف، وأن الرواية تدخل في نطاق السيرة الذاتية للكاتب، فضلا عن أنها سيرة أيضا للمدينة نفسها.

هذا التشابك أو التشابه بين السيرتين، يشكل حالة إبداعية غنية بالمؤثرات والتجاذبات الإنسانية، ثم هذا التشابك أو المقارنة بين خروج رائد الفضاء الأمريكي أرمسترونج وزميله باز ألدرين، من الجاذبية الأرضية ليصلا إلى سطح القمر – عن طريق المركبة الفضائية أبوللو 11 - ويمشيا فوقه عام 1969 بينما يتحرك السارد – في عشوائية وفوضى - مع صديقيه الكبيرين خارجين من بورسعيد كلها، بعد حرب 1967 وما تلاها من حرب

الاستنزاف، لها دلالة كبيرة؛ إلى أين يسير العالم المتقدم، وإلى أين يسير الشرق الأوسط المتأخر، في حروبه وفجائعه وعدم استقراره وعدم أمانه وأمنه؟

سنجد عربات الكارو وماكينة الخياطة السنجر والموتوسيكل، في مقابل المركبة الفضائية، سنجد التفكير العلمي مقابل العشوائية والفوضى، سنجد الهجرة إلى الماضي وسط ضباب الرؤية، مقابل الهجرة إلى المستقبل وسط نصاعة الأحلام البشرية للوصول إلى اكتشافات جديدة في الكون، سنجد رواد الفضاء المتجهين نحو القمر، مقابل الطيارين الذين يقذفون بالقنابل العنقودية والنابالم، الشعب المصري العربي في بورسعيد، وغيرها من المتناقضات والأضداد بين العالَمين.

وهكذا تستمر رحلة الحياة، ويكبر الصبي السارد، ويرسم العصافير ويحرك الطائرات الملونة، على الرغم من اختناق الهواء. إنه يحب الحياة، مع أنه لم يترك شيئا لم يكرهه في العالم، فلا يستحق هذا العالم أي ذرة حب داخله. ولكن العبارة التي صرَّح بها رائد الفضاء الأمريكي أرمسترونج وهو على سطح القمر: ”هذه خطوة صغيرة لإنسان، لكنها خطوة عظيمة للإنسانية“ كان له مفعول السحر، لقد استطاع أن يحتفظ بتلك الجملة، التي كانت تعني له الكثير في حياته بعد ذلك.

كان آرمسترونج يتحرك بقدميه على سطح القمر، بينما السارد يتحرك مع صديقيه الكبيرين خارجًا من بورسعيد كلها، بورسعيد كوكبُه الحزين، مُتشحًا بصوت غناء ليلى مراد: ”يا أعز من عيني .. جلبي لجلبك مال“ الذي كانت تردّده إحدى قريباته في المستشفى، تناغمًا أو تجاوبًا مع فالس ”حبيب الروح“ في بداية الرواية، وما بينهما كانت أغنية شادية من كلمات مجدي نجيب وألحان بليغ حمدي: ”قولوا لعين الشمس ما تحماشي، أحسن حبيب القلب صابح ماشي“.

*** أحمد فضل شبلول شاعر وروائي من الإسكندرية بمصر. له 65 كتابًا مطبوعًا في الشعر والرواية والدراسات الأدبية والنقدية وأدب الأطفال وأدب الرحلات والمعجمية العربية. حصل على جائزة الدولة للتفوق في الآداب عام 2019 وجائزة الدولة التشجيعية في الآداب عام 2008.**

النقد المسرحي بين الموضوعي والعشوائي
انتقال من الفعل إلى الانفعال

أ.د. جبار خماط حسن*

تحاول الفنون ان تخلصك من شراك الواقع المأزوم، بفرضية جمالية لها بنيتها وإيقاعها الذي يخرج لنا بواقع جديد له زمان ومكان وأبعاد إنسانية، تسمح لنا ان نعيش لحظات متخيلة جديدة، نلتذ بها، نخزنها في ذاكرتنا طويلة الأمد، نواجه بها موجة السبات الفكري والشعوري.

يقول سقراط: "الحياة التي لا تخضع للنقد لا تستحق ان تعاش، حتى لو انتهى بك المسار الى الموت، هناك يمكن أن تلتقي بمن تحب. هناك لا يمكن ان يكون جزاء من يطرح الأفكار هو القتل!"[1].

والحديث في النقد المسرحي، له طبقاته المتنوعة، بحسب تطور المعالجات المسرحية، منذ الشعائر والطقوس، مرورا بالعروض التي تحمل في بنيتها، حياة النصوص الدرامية، وصولا الى ما بعد الدراما وما بعد الحداثة. كلها تعمل بإيقاع يخالف إيقاع الحياة من حولنا، لان الفن بذاته، خبرة متخيلة. ماذا يعني تصديك للروائع الدرامية؟ هل الدافع تعديل أم إضافة؟

يمكن عد التلقي بأنه تداخل حق القارئ مع حق النص في نزاع وتداخل لا ينتهي في التعرف وامتلاك المعنى، يمثل حيوية القراءة وديمومتها[2]. هنا، تتحقق مقولة التفاعل بين العرض المسرحي والجمهور،

من خلال محمولات العرض البصرية والسمعية والحركية، تجتمع في صورة مسرحية تنتظر من يقوم بتحليلها وإعادة تركيبها في متن التلقي والفعل النقدي، وتحفيز الحواس نحو الامتلاء بكل ما هو مفيد ومبهر، فالعقل والشعور يتغذيان من الكلمة والحركة والإشارة والإيماءة، لتكون وحدة المتناقضات في عقل الجمهور، فالمقولة اللفظية لها مفعول التأثير العالي على تغيير القناعات، وإيجاد ما هو جديد في الوعي والوجدان، تلك هي الغاية ومقاصد العرض المسرحي، تواصله الفعال مع الجمهور، ضمان لاستمراريته بيننا.

يقول الجرجاني: "قد نرى الصورة تكمل شرائط الحسن، وتستوفي اوصاف الكمال، فانها أدنى للقبول واعلق بالنفس وأقرب

الى القلب"[3]. ليس من الضروري أن نقدم الافكار المسرحية والمعالجة الفنية، بأسلوب فلسفي معقد، بل الافضل، أن تكون بأسلوب بسيط يحمل عمقا، يتفاعل معه الجمهور، وتقبله شريحة واسعة من المجتمع، وهذا هو الهدف الذي يسعى له المسرح والمسرحيون. وبإزاء هذا التحقق الجمالي للعرض المسرحي وعلاقته بالجمهور، يبرز دور القارئ العليم/ الناقد المسرحي، الذي يحلل مخرجات العرض المسرحي، بعلمية وسلاسة، تبني ولا تهدم، تقرب لا تبعد، نجدها في النقد المسرحي التي تتناول العروض المسرحية، نقدا يراد منه، تطوير وتنوع مخرجات العملية المسرحية.

هل يقترح لنا النقد او يعطي لنا مواصفات العرض المسرحي الناجح؟

من شرطية العرض المسرحي وضمانية تداوله الناجح في ضرورة او فاعلية الخطاب الذي كلما كان يسيرا بعيدا عن التعقيد، كلما تحقق منسوب الإقبال المتنامي لدى الجمهور على التواصل والتفاعل من غير تحفظ يقيد تواصل الجمهور[4].

إن انتقال المعرفة النظرية في النقد المسرحي، من المستوى النظري إلى المستوى التطبيقي يسهم إسهاما مفيداً في تحليل العروض، على نحو نمو متنام في معرفة الأساليب او مخرجات الحالة المسرحية العالمية، تنظيرا وتطبيقا، لكنها في الوقت ذاته، تعاني من التفكير الانفعالي اكثر من كونه فعلا إنتاجيا منظما، فما يحصل الآن، خبرات إبداعية متناثرة، وليست هوية أسلوبية محلية او عربية يشار لها ببنان التميز والفرادة، فالمسرح في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الماضي كان اكثر بحثا ونصوصا وعروضا حققت تفاعلا مميزا من حيث المشهد البحثي الاكاديمي والصحفي على حد سواء.

أسماء كثيرة كانت تتجول في الوعي المسرحي لدى الشباب. المسرحية والرواد على حد سواء، يجمعهما حوار الإبداع النابض بالفعل الجمالي ما بين العرض والجمهور. اذ كلما زاد منسوب العطاء الابداعي للعرض، كلما تحقق ناتج التذوق الفني لدى الجمهور، وما فعل النقد الا بوصلة تشير الى نجاح تلك المعادلة الفنية الاتصالية او إخفاقها. لا استعراض مصطلحات مقعرة، ولا ترتبط بصلة للعملية النقدية، الامر الذي دفع كل من هب ودب ليعلن عن حضوره ناقدا! اذ يرى (ياكبسون) ان النقد، هو قدرة جذب الانتباه نحو الرسالة الفنية بذاتها، وليس لشيء حولها أو خارجه، إذا ان الرسالة الفنية تكون جمالية، على ان لا ينجذب الى ما خارج تلك الرسالة الفنية.

الغريب ان المؤسسات الراعية للنشاط الفني المسرحي لا ضوابط لديها، وقد فضلت المحاباة والنفاق النقدي، على الحكم النقدي السليم، الذي من سماته، تحليل رسائل السمع والبصر والحركة الواردة من العرض المسرحي، وإعادة تركيبها من الداخل ليكون الناتج اسئلة ضرورية يمكن إجمالها بالآتي: لماذا هذا العرض المسرحي فيه إبداع وتميز فني؟ كيف تحقق هذا الإبداع؟ ماهي الظروف القنية الموضوعية التي أوصلته الى النجاح الفني؟

يعيش النقد المسرحي حالة من الانفلات النقدي او التعصب النقدي، يجعله عبئا على صانعي العروض قد تدفع بهم الى ترك شغفهم بالمسرح، والذهاب الى حقول

أخرى او الاعتزال نهائيا! حتى وصل الحال -أحيانا- الى تعطيل الحوار والانسداد التواصلي، ما بين القراءة النقدية والعرض المسرحي، بسبب عدم الوصول إلى الثقة بتصورات الناقد ومخرجاته النقدية، لان الناقد لديه مقولات جاهزة وانفعالات مضادة، لا تمت بصلة للعرض المسرحي.

يمكن وضع خلاصة لمراحل تطور النقد إلى ثلاثة:

النقد السياقي = النص + المؤلف

النقد البنيوي = النص بذاته

النقد ما بعد البنيوي = النص+ القارئ

توجهات علمية صاغها النقد ضمن تصورات فكرية في حدود زمنية، أفرزت تلك التصورات، لكنها حققت نتائج ناجحة في الفعل النقدي، ينبغي على النقد المسرحي الاعتماد عليها، ليكون الناتج النقدي له ضمانة التأثير المقنع على صانعي العروض المسرحية على نحو خاص، وعلى الحراك المسرحي على نحو أعم. لكن الملاحظ في كثير من النقد المسرحي، بروز ما يمكن تسميته (النقد المؤخرج) حالة غريبة مشوهة، نجد ان الناقد في النقد المسرحي يتحول الى مخرج ثاني للعرض، يقترح ويضيف ويحذف، والمخرج الأول، تحيط به الدهشة والانزعاج. شعور بالامتعاض والتقصير لمهمة الناقد، هذا الإحلال القسري من الناقد، ليكون مخرجا يفترض ما لا يقبل افتراضه، ويعطي مقترحات يجدها سليمة، لو طبقها مخرج العرض المسرحي، لتحول عرضه المسرحي على صورة اخرى أكثر جدوى وتأثيرا.

وهنا ينبغي تبيان مهمة الناقد الموضوعية، الذي من صفاته، عدم مغادرة البنى التكوينية للعرض المسرحي، من دون افتراضات جاهزة يؤمن بها الناقد، أو إسقاطات من مشاهدات لعروض سابقة مجاورة، لا تمت بصلة للعرض المسرحي المراد تقويمه نقديا، نقد جاهز لا يمت بصلة للعرض الذي تم تقديمه على خشبة المسرح او الفضاءات المفتوحة.

فهل نسمح للناقد العمل بمنطق الوصاية المسرحية على الآخرين؟ هل نرضى من الناقد أن يكون فكره فوقياً، على الجميع الانتباه له والتفاعل معه؟! قطعا لا. فإصدار الحكم النقدي لا يأتي الا من أربع لحظات حددها الفيلسوف كانت (1724-1804) اجدها خارطة طريق سليمة، لمن سار في درب النقد المسرحي. تلك اللحظات: ”كم وكيف واتجاه وإضافة“، فالحياة كم من الخبرات، ما على الوعي الفني لدى الفنان، اختيار ما يتوافق مع فرضية المبدع. هل نجح في النظر والتعرف على تيار الحياة. هل تمكن من اخذ ما يفيده ليكون مادة للعرض المسرحي، تتحرك على وفق عناصر ثلاثة: ”بصرية وسمعية وحركية“، ذلك هو الكيف الذي نتناوله تحليليا، لنعرف هل حقق اضافة اسلوبية في تراكم الحياة المسرحية المحلية والعربية، ذلك هو الاتجاه، وفي الاخير حين يتوفر الكم الثري والكيف النوعي والاتجاه الاسلوبي الفريد، قطعا يترك اضافة جمالية وفكرية في إدراك ووعي الجمهور؟ هذا هو النقد الأكاديمي التطبيقي.

النقد ليس انطباعات جاهزة تصلح لجميع العروض، ما عليك فقط تغيير اسم المخرج وعنوان المسرحية .النقد حراك فكري جمالي خلاق، يحقق اضافة معرفية، تعمل على تطور وتطوير الحياة المسرحية.

فالنقد عملية إبداعية، تقوم على أساس معرفة ما كان من عطاء مسرحي. قراءة العرض المسرحي، ينبغي ان تقوم على ركن منهجي منظم، من الاسباب، لماذا العرض.. كيف ظهر العرض المسرحي.. اين تحقق وجوده.. هل تحقق بالعلم المسرحي والدربة الفنية على التعامل مع مكونات العرض المسرحي البصرية والسمعية والحركية؟

كل هذه الاسئلة ينبغي ان تكون في جعبة الناقد العلمية، ليتجنب العشوائية في حكمه، فالناقد - بما يفعله نقديا- يمثل عملية التعرف على الصورة المسرحية اولا، وتحليل البناء التكويني للعرض المسرحي، كما انه توصيف العلاقة الاتصالية ما بين الشخصيات، ثالثا، فضلاً عن الكشف عن مكامن الإبداع والجودة والوقوف على أسباب وعوامل التمكن، يحدث كل هذا، عن طريق رؤية نقدية واضحة، ذات أصول وقواعد راكزة، تربط الأسباب بالنتائج، وصولاً الى الحكم النقدي (الجودة أو الرداءة).

مع تطور الحياة المسرحية ومخرجاتها الفكرية والجمالية، محليا وعربيا وعالميا، لم يعد الناقد محض قارئ محايد، بل تحول الى قارئ انموذجي، يتقن فك رموز المتن الفني للعرض المسرحي، فاعلا ومؤثرا في تطور النتاج المسرحي فكرا وأسلوبا، فهو لم يعد محايدا، بل مشاركا في انتاج متنه النقدي بوصفه متنا ثقافيا قابلا للتداول، فالناقد المسرحي، ينبغي ان يتقن القراءة التحليلية التي تتعلق بالفهم العميق لما يقال وما يتحقق من اشتغال للصورة المسرحية للعناصر المادية المكونة لبيئة العرض المسرحي، والقراءة التحليلية للناقد المسرحي، تعني الاقتراب من بنية العرض الظاهرة والمرشدة لبنية المعنى للعميقة، هذا التعالق العضوي لمكونات العرض المسرحي، ينبغي ان يكون ناضجاً، لان الناقد يمتلك القدرة على التعامل مع المعلومات البصرية والسمعية والحركية الواردة في العرض المسرحي. إنه يتعلق بالفهم العميق لما يقال وبأية طريقة. تساعد هذه الطريقة في فهم الوسائل التي يستخدمها المخرج والممثلون والتقنيون، للوصول إلى هدف معين، وهو صناعة الفرجة المدهشة التي تزيح المألوف العادي، وتنقل الجمهور الى طقسية جديدة في التواصل مع العرض المسرحي.

ولهذا كلا الصانعين - المخرج صانع للعرض، والناقد قارئ للعرض - كلاهما ينبغي ان يمتلك الرؤية الذكية التي تصل بنا الى التشويق والدهشة.

هل لدينا مثل هذا الناقد العليم الخبير في النقد المسرحي.. هل من يتصدى للنقد ويفكك العرض ويعطي للجمهور اسئلة المغايرة وأجوبة التميز.. هل نتفاعل مع المدح المجاني.. ام نتفاعل مع النقد الموضوعي.. على قاعدة رحم الله من أهدى لي عيوبي!؟

ان تحديد هيكل العرض المسرحي ووضع الملاحظات من الناقد، لا بد لها من الركون الى المقولة الاساسية للمذهب التجريبي، وتتلخص بأن الانسان لا يمكن ان يعرف او يفهم الأشياء الا بعد المشاهدة والملاحظة والتجربة، وهذا ما يؤسس له النقد المسرحي بوصفه متنا تجريبيا، يقوم على المشاهدة والملاحظة. ولكل ناقد قراءة وتأويل اذ لو تساوت وجهات النظر النقدية لبارت العروض المسرحية.. فالقراءة التحليلية

تعني تحديد نوع العرض المسرحي، نوع الفضاء المسرحي، نوع المعالجة التي حولت النص الى عرض. وهذا مهم لعدة أسباب، تؤثر نوع النصوص وكيفية تحويلها الى عروض، والأشكال المستخدمة فيها.

ينبغي التعرف على الاسئلة الاتية: هل كان العرض يتوافق مع بنية المعنى وصيغ المعالجة.. ما هي الرسالة الرئيسية والموضوع؟ كيف تعامل المخرج معها؟ هل كانت صور التعبير عنها موفقة وواضحة؟ هل التفكير المنطقي لنقد العرض المسرحي، أظهر نجاحا وفاعلية انتاج جديد لحياة مسرحية ناجحة؟ هل افرز النقد المسرحي، قراءات قوامها الابداع وهدفها ربط العرض بحاجات الجمهور الجمالية والفكرية والاجتماعية؟ ماذا لو كان المخرج يعمل بمنطق افقي منغلق، لا يحاور او يتوافق مع التجارب العالمية المجاورة؟

ماذا عن الناقد حين يكون قاسيا من دون حجج مقنعة؟

أسئلة ينبغي ان يعلمها او يتصدى لها كل من كتب أو وقف واعتلى منصات النقد المسرحي، ليكون الناتج العملي لمخرجات قراءة الناقد، مفيدا ونافعا، يحمل طاقة ايجابية لدى القائمين على علل العرض المسرحي، من دون التقدير اللاموضوعي الذي قد يخرب العملية الفنية برمتها، او تدفع صانع العرض/ المخرج، الى اعلان التوبة المسرحية، والتعهد بعدم خوض تجربة مسرحية جديدة، تفاديا لسياط الناقد من دون حق!

إن تعدد الاتجاهات النقدية، يتطلب من الناقد الإلمام بها، ليتسنى له التواصل المتوازن مع اسلوب وطريقة تقديم العرض المسرحي، إذ ثمة من يقرأ العرض المسرحي بوصفه انعكاسا لحياة المخرج المسرحي وبيئته، وناقد آخر يقرأ العرض بوصفه بنية جمالية مستقلة، في المقابل نجد من يقرأ العرض المسرحي، بمقدار استجابة المتفرج وفاعليتها، وهناك من يهتم بالنقد الدراماتورجي، بوصفه شراكة ابداعية متسلسلة مع المخرج من البروفة (التمرين) الى العرض المسرحي. كل هذا تفرزه حياة النقد المسرحي.

هكذا هو حال النقد المسرحي مع العرض الذي يمكن التعرف عليه بوصفه عملية ابداعية يتم فيها تشغيل وسائل تعبيرية، تحتوي على لغات سمعية وبصرية تتحول الى علامة كبرى هي العرض المسرحي[5].

وبإزاء هذا التحقق الجمالي للعرض المسرحي وعلاقته بالجمهور، يبرز دور القارئ العليم الذي يحلل مخرجات العرض المسرحي، بعلمية وسلاسة، تبني ولا تهدم، تقرب ولا تبعد، ينبغي حضوره الفاعل في تناول العروض المسرحية نقدا يراد منه، تطوير العملية الفنية المسرحية.

تعد المعرفة النظرية في النقد نسقا متداخلا ما بين المستوى النظري، المستوى التطبيقي اللذين يسهمان في تحليل الناقد للعروض المسرحية، التي تنمو وتتطور مع تطور مخرجات الحالة المسرحية المحلية والعربية العالمية، تنظيرا وتطبيقا، في الوقت ذاته، تعاني بعض العروض المسرحية، من غياب القدرة على تنظيم العمل للمنظومة الداخلية في العرض المسرحي بسبب تعذر الوصول الى معالجة سليمة، تحقق تواصلا فعالا مع الجمهور، كلما زاد منسوب العطاء الابداعي للعروض المسرحية، كلما تحقق

ناتج التذوق الفني وازداد اثره الايجابي لدى الجمهور. ما يفعله النقد المسرحي للناقد العليم، انه يعمل بانضباط مرسلته التكوينية الجامعة للعرض المسرحي ومكوناته التنظيمية والجمالية.

ان ما يجعل الحوار الايجابي، عصيا او وعرا، ما بين النقد والعمل الفني، هو الانسداد الفكري الذي يعطل التواصل الفعال ما بين القراءة النقدية والعرض المسرحي، بسبب عدم الوصول الى الثقة بتصورات الناقد ومخرجاته النقدية - لان للناقد مقولات جاهزة وانفعالات مضادة، لا تمت بصلة للعرض المسرحي.

يمكن الوصول الى الخلاصة حول فاعلية النقد الموضوعي العلمي، بعيدا عن عشوائية التصورات الجاهزة والحكم النقدي الانفعالي، حين يتبنى النقد ثلاث مراحل:

1 - المرحلة الحسية: وهي التفاعل والشعور العاطفي المرتبط بالفكر الذي افرزه العرض المسرحي من الشعور بالرضا والارتياح.

2 - المرحلة التواصلية: وهي تفاعل الجمهور مع العرض المسرحي عن طريق الرموز والاشكال والافعال التي يستقبلها الجمهور ويتفاعل معها.

3 - المرحلة الارتباطية: وهي قدرة التعبير على اختزال وتكثيف ما يكون في الواقع، الى كم من المعلومات التي تتعلق بالعمل الفني، والتي يتمكن الجمهور من استيعابها.

من بين هذه النقاط التي تمثل خارطة طريق ناجحة للناقد ونقده على حد سواء، تبين بوضوح، ان النقد ليس انطباعات جاهزة تصلح لجميع العروض، ما على الناقد سوى تغيير اسم المخرج وعنوان المسرحية. النقد حراك فكري جمالي خلاق، يحقق اضافة معرفية، تعمل على تطور وتطوير الحياة المسرحية.

*** أ.د. جبار خماط حسن: أكاديمي ومخرج وناقد مسرحي**

المصادر

(1) محمد المزوغي، نيتشه، هيدغر، فوكو، تفكيك ونقد، دار نيبور للطباعة والتوزيع والنشر، العراق، 2014، ص 94.

(2) بول ريكور، نظرية التأويل وفائض المعنى، ت: سعيد الغانمي، مكتبة بستان المعرفة للطباعة والنشر، 2003.

(3) القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق ابو الفضل ابراهيم، وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البادي الحليبي، القاهرة، 1951،

(4) فوتون البيرت، كتاب السينما آلة وفن، ط1، ت، صلاح عز الدين، وفؤاد كامل، مكتبة مصر، القاهرة ،1985،

(5) حسن يوسفي، قراءة النص المسرحي، دراسة في مسرحية (شهرزاد) لتوفيق الحكيم، ط1، مكتبة عام المعرفة، المغرب، الدار البيضاء، 1995.

القاتل المتسلسل في السينما

منار غالب حسين /جدة*

نحن مدينون لليأس في الكشف عن هذه القلوب التي أتعبها التوحُّش! معنى القتل المتسلسل هو قتل ثلاثة أشخاص فأكثر على فترات زمنية ومكانية مختلفة لأسباب نفسية. أول بداية قتل متسلسلة في الميثولوجيا هي قتل الذكور في قصة فرعون، وكان المبرر لهذا القتل المنضب هو خشيته من ان يأتي مولودا ذكرا فيسرق منه مكانته الاجتماعية والسياسية، كما جاء في الرؤيا التي رآها فرعون وفسرها له الكهنة. تلي هذه الجريمة الكثير من الجرائم عبر تاريخ التشوه البشري بسبب الفقر والجهل والاضطهاد الفردي والجمعي والتغيرات عبر التاريخ السياسي وما تسبب من قتل وتجويع، تحت مبررات سيادة عرق او فكر او مذهب عقائدي او اضطراب سلطوي لدى الحاكم.

القتل لأفراد آمنين من دون معرفة الدافع والسبب في اختيار الضحايا، يختارهم عشوائيا أو لأسباب في ذهنه مجهولة عن المجتمع.

هذا ما يثير الرعب. في قتل النساء المتسلسل، ما الذي يخشاه القاتل، ما الذي يخيفه؟ سلطة المرأة؟ السباق على المراكز هو سباق في التفكير والذكاء والقيادة حسب الأسس والقوانين التي وضعها الرجل في رحلات الاستكشاف أو المخطوطات الادارية والقيادية والاكاديمية، وكل ما تسعى اليه المرأة هو الانتصار لنفسها على سنوات القمع والعنف والتهميش، هلا سمحوا لها بالشعور بالنصر إذا كان بهذا القبول والتسهيل سيحل الخلاف بين رجل وامرأة، يكاد يكون أبديا بسطحيته وسذاجته! ترى، ما الذي يجنيه القاتل المتسلسل من قتل النساء؟ البحث عن الاسباب من وراء مثل هذه الحوادث المتكررة التي اشغلت العالم.

في القرن التاسع عشر، جرائم جاك السفاح الأكثر غموضا ورعبا، تم صنع أكثر من اربعة عشر فيلما وثائقيا او تم مزج شخصية جاك السفاح في أفلام شارلوك هولمز. لو أردنا البحث والنظر في القتل المتسلسل نبدأ بجاك ريبر او جاك السفاح، كلمة ريبر بالإنجليزية تعني المغتصب، الذي ابتدأها بالعاهرة ماري آن نيكولز ثم تركها مقتولة ومشوهة حدثت الجريمة في منطقة وايت تشابل في 31 اغسطس 1888م ثم توالت الجرائم لمومسات كن يعشن ويعملن في الاحياء الفقيرة في لندن، تعرضن للقتل العشوائي من قبل جاك، اشتهرت باسم جرائم وايت تشابل التي ظلت غامضة ولم

تحل الى اليوم، لقد كان يقتل بنات الليل تحديدا ويأخذ شيئا للتذكار معه من جثثهن، وانتهت الحقبة بموت جاك. ربما، ظلت الاحتمالات والشكوك بدون قرائن، حتى آخر وثائقي تم اصداره في عام 2020 لم يؤكد هوية جاك ريبر ولكنه أطلق فكرة جديدة بأن جاك توقف عن القتل في لندن لأنه هاجر الى امريكا بسبب جرائم تشبه طريقته في القتل وتم التعرف على ذات الاسلوب في الجريمة، بان التقى المحقق الامريكي بالبريطاني، ببعض التفكير والتقريب، توصلوا الى ان الجرائم توقفت في لندن مع هجرة الطبيب الملكي السير ويليام ويثي غول في الفترة الفيكتورية كان استاذا في علم وظائف الاعضاء ورئيسا للجمعية السريرية، كما ان طريقة اقتطاع جزء من الجثث كانت بمبضع جراحه، وبذلك الاحتمال يكون قد اسدل الستار على قصة جاك السفاح.

ابتدأ القتل المتسلسل تزامنا مع فترة تمرد فتيات المصانع والمطالبة النسوية في حق المرأة في الانتخاب والمساواة في الاجور للعاملات مع العمال، كذلك الاحقية في العيش بكرامة ثم مطالبتها بالحق في التعليم وتعديل بنود التشغيل ومطالبهن كحق انساني، فكيف لامرأة عزباء بلا معيل ان تعيش بكرامة من دون أن تتحول الي عاملة منزلية او خياطة أو عاهرة كي تعيل نفسها وابناءها، الحلم بالتعليم الجامعي وتكاليفه الباهظة في تلك الفترة التي كان معيبا على المرأة البسيطة أن تقرأ وتكتب والحلم بالعيش باستقلالية بعيدة عن سلطة الرجل المطلقة! في فترة الخمسينات والستينات، تكررت قضايا القتل النسائي وبأعداد مثيرة للدهشة، القتل للإناث يكون اما بسبب لذة شاذة في التمتع بميتة او مخنوقة او مقتولة، رؤيتها في اشد حالاتها ذلا وهوانا وضعفا وخضوعا. لكن ما الذي يدفع بالقاتل لقتل امرأة مسنة، هل يرى القاتل فيها (معنفته) حين كان في سن صغيرة والان يتمنى بقتله المسنات ان تموت لمرات متعددة ولا يكتفي، ربما القسوة التي ولدت عنفا وغضبا لا يمكن ايقافه، فلا يشبع من تكرار المشهد مرة بعد مرة، ما الذي يخشاه كرجل تم اذلاله، أم انه يخشى عودة المعنِّفة لإذلاله، كما كانت تفعل معه في طفولته، ماهي اللذة النابعة من هذه الغريزة الوحشية؟! لقد أساءت الثورة النسائية للأمان الانثوي، لأنها تجاوزت الخطوط الحقيقية للحقوق التي كانت فعلا مستلبة من المرأة منذ اواخر القرن الماضي ومعاملتها على انها لا شيء لا عقل ولا روح أو مشاعر.

ما الذي ينقص المرأة الآن بعد ان حازت على امتيازاتها الجسدية والمعنوية؟! نعود الى القتل الذي لا يصل بنا الى اي نتيجة تمكننا من دراسة الدوافع خلف هذا العنف. جون بيركويتز الذي أرعب نيويورك، عام 1977 قتل المئات من الفتيات اللاتي شعرهن بني طويل ويقوم بعد القتل بقص شعرهن وصبغة بالاشقر! صمويل ليتل قتل 93 امرأة بيديه خنقا بين عامي 1970 و2005 م، كن اما بائعات هوى او فقيرات او مدمنات. تيد كازينسكي ويلقب بالقاتل العبقري ويلقب بالعبقري المجنون ومعجزة الرياضيات من هارفارد، استهدف الأكاديميين وشركات الطيران الذي كان يقتل بالطرود المفخخة صنع عنه فيلم. في عام 2021 TED K وفيلم الشبكة the net في عام 2003. هناك مسلسل تلفزيوني عرض في موسمين يتحدث عن عقلية الصياد mindhunter الذي جمع زمرة من القتلة المتسلسلين لقراءة نمط تفكير القاتل المتسلسل مأخوذا عن ملفات القتلة في أرشيف المحققين، ومن مذكرات القتلة أنفسهم وعن تسجيلات الاطباء النفسيين في جلسات

مع المجرمين وذلك بهدف فهم تفكيرهم في حل القضايا الصعبة للقتلة المتسلسلين وأظهر مدى التباهي لدى هؤلاء بما فعلوه وكيف أصبحوا مشاهير اعلاميا بعد أفعالهم البشعة. ان أغلب الجرائم حدثت في فترة السبعين وهي الفترة التي كان فيها التحقيق على بدائيته فقد تمكنوا من القبض على المجرمين، فهل يمكنني القول إن حب الشهرة هو ما أعمى هؤلاء المجرمين وربما سمحوا للمحققين في الوصول اليهم ليعيشوا شعور الشهرة ومتعة المعجبين حيث كان لهم فعلا معجبون ومعجبات. الشعور بالسلطة للرجل في قتل النساء المتكرر، ولا اقصد انه مبرر للوحشية. أنا احصي الاسباب والدوافع لدى المرضى النفسيين لهذه الجرائم، المخابيل اجتماعيا (سايكو) وانحرافات جنسية ورغبات شاذة، بعد مشاهداتي لافلام وثائقية تتحدث عن تيد باندي المحامي ورجل المجتمع الذي قتل أكثر من مائة امرأة عشوائيا، معبرا عن التلذذ والشعور بالحب الذي قد يشعره بالضعف الذي بحث عنه في ضحاياه ولم يجده في امرأة تعاملت معه بسادية أو هجرته على الرغم من حبه الشديد لها. حياة الطفولة المعقدة تعرضه لاضطهاد نفسي من والدته أو مربيته او مرض والدته بالفصام او تلوث ذهني أو ادمان.

الفيلم الوثائقي انتاج 2021 عن تيد باندي بأجزائه وتفاصيل مرعبة. لقد نشر الذعر في قلوب النساء لفترة السبعينات. الشاب الوسيم اللبق المرشح لمقعد حاكم لإحدى الولايات، كتبه وأخرجه دانيال فاراندس. الفيلم يروي عبر تسجيلات التحقيق والشهود، كيف استدرج عشرات الشابات الى غابات نائية ليقوم بقتلهن والاعتداء عليهن، ليلقب بالبعبع الامريكي. قتل أكثر من خمسين شابة كلهن عشرينيات! فيلم "خانق بوسطن" Boston strangler تأليف واخراج مات روسكين انتاج عام 2023م ، تمثيل كيرا نايتلي وكاري كون، الخانق الذي اشغل الناس في بوسطن ونشر الرعب في المجتمع النسائي والمسنات على وجه التحديد، ثم انتقل الى متشيغن ليكرر فعلته مع شابات، في عام 1962 كانت المقالات الاسبوعية تشير الي ان القاتل يدخل بيوت المسنات بدعوى الصيانة، ثم يباغتهن من الخلف، يقوم بخنقهن بالجوارب النسائية الشفافة وعقدها حول رقبتها، ثم تركها بوضعية مقززة فما الذي تهدده امرأة مسنة لرجل أربعيني اسمه البرت ديسالفو، نعم تم القبض عليه بمساعدة صحافيتين ريتا ماكلوين وجين كول في جريدة أمريكان ريكورد، قامتا بالتحري وبذكاء استطاعتا الاستدلال عليه. رجل مختل عقليا، اخلاقيا، انسانيا استهدف مسنات يعشن وحيدات بسلام. بتحليل (DNA) الذي اكتشفه العالم السويسري فريدريش ميشر عام 1869م، على الرغم من قدم هذا الاكتشاف الا انه لم يتم استخدامه في قضايا القتل المتسلسل الا في عام 1990 م، تم التأكد من قيامه بجرائم القتل الوحشية، وربطه بجرائم أخرى.

بهذا الاكتشاف حلت الكثير من القضايا من أدلة البصمة والشعر واللعاب والسائل المنوي فقد أعيد فتح قضايا سجلت ضد مجهول والتي اشغلت الرأي العام لوقت طويل، ليكون ردا على المتعاطفين مع المجرمين بحجة عدم كفاية الأدلة! يظل السؤال حاضرا، لماذا الأنثى ضحية القتل المتسلسل، في مختلف الأعمار؟!

***كاتبة قصص وسيناريو سعودية**

اللارواية في "المدعو إلى مساء السيدة" لـ علي بدر

د. عالية خليل إبراهيم *

تكاد تكون رواية "المدعو إلى مساء السيدة" هي الأكثر راديكالية ضمن نتاج (علي بدر) الروائي في نظرته للتاريخ مثلما هي نظرته لجنس الرواية. بدر الذي عود قارئه على موجهات محددة تقنية ودلالية تحكم نتاجه السردي، ذلك ما يصرح به، بأنه استيعاب لاثر موجات ما بعد الحداثة في الكتابة الروائية من تلك الموجهات اهتمامه بالدراسات الثقافية، مدخله المفضل للولوج إلى عوالم السرد وليست الحكاية من تغريه بداية، فالمحاكاة لديه تأخذ بعدا تدنيسيا ساخرا بينما يبرز النسق النقدي الأدبي والثقافي جليا، فتعد رواياته بذلك ناقدة وشارحة قبل أن تكون أدبية بمفاهيم الاداء اللغوي والوظيفة الجمالية. ويظهر الراوي في اغلب سردياته لا أدريا أو عدميا تجاه مرجعيات الخطاب الاجتماعية منها الدينية والاخلاقية، نظرة رواته للحب والمرأة والجسد يشوبها التكرار، ولا تتعدد بتعدد رؤى الشخصيات والبيئة والأحداث، وإذ لا يصح عند دراسة فنون المتخيل أن نعكس ايديولوجيا الراوي على قناعات المؤلف ذلك ان تقنية التكرار ما يشي بهوية سردية نصية جامعة لنصوص المؤلف، وقد بلغت ذروتها في هذه الرواية الصادرة عن دار الكا العراقية 2022 والتي سأجيب عن سبب وصفي لها بالراديكالية؟

النص التأسيسي للرواية هو مسرحية "في انتظار غودو" (لصاموئيل بيكيت) المضمون هو العطالة والخمول من وجه ثان. الانتظار العبثي بما يحمل من دلالة غياب للفعل وعدم اكتراث بالزمن الحاضر وتشكيل وهم جماليات الزمن الاتي، انزياح أول من الرواية إلى المسرح ومن فن الكتابة النخبوي إلى الفنون الشعبية ومنها الدراما المسرحية، فقد قدمت القصة من خلال تبادل الحوارات الشفاهية من البداية وحتى النهاية وحوارها ليس عبثيا على شاكلة مسرح اللامعقول بل بالضد تماما جاءت الحوارات واضحة ومباشرة وذات طابع سجالي مع ملاحظة المكتوب على صفحة غلاف النص عبارة "جورنال ليوم واحد في" احالة مباشرة على الصحفية الحجاجية الواضحة. الراوي وهو الشخصية الرئيسة.. رجل اربعيني من

اب عراقي يساري وأم روسية، هوية الرجل هجين من ثقافات عدة على شاكلة شخصيات المؤلف الذكورية في رواياته السابقة ليست بالشرقية ولا الغربية، يعمل الراوي صحفيا غادر العراق هربا من نظام البعث الذي يتهمه وعائلته بالانتماء للحزب الشيوعي، يعيش الرجل غير المسمى رحلة اغتراب عن البيئة والثقافة العراقية يجوب اصقاع العالم مرتحلا باحثا في تلافيف وعيه المحبط عن فكرة يكتبها وامرأة يغازلها وكأس يتناوله "ابقى الليالي ساهرا في صوفيا حيث رائحة المطاعم التي تذكر باسطنبول، السكارى في محطات القطارات، المرأة التي ودعتني، السلم المليء بالزهور في أمسيات بودابست قالت أنت تسافر كثيرا ومن يسافر كثيرا يذكر بماركو بولو"/24، يدور الكلام عن ماركو بولو وكتابه الشهير في أدب الرحلة، فالرواية من هذا المدخل سياحة أدبية في دول البلقان والتي تتشابه ظروفها السياسية والاقتصادية مع بلدان الشرق الأوسط. سيدة الرواية التقاها الراوي في رحلاته إلى رومانيا وعاش معها قصة حب، المرأة بالأحرى عشيقته، لربما واعد المدعو السيدة في المقهى أو توهم ان هناك موعدا بينهما؟ وظل ينتظر حضورها حتى النهاية ولم تأت! تبقى للمواعدة الغرامية ومكان الانتظار المقهى دلالة رئيسة يتحرك مؤشر النص قريبا أو بعيدا عنهما فالأوهام والكتب والايديولوجيا تطوح بالشخصيات بعيدا نحو تاريخ قادم مختلف لا يحمل قبحيات الزمن الحاضر بينما التحقق الواقعي لا يعدو امتلاء الحواس بالحب واستمرار الهذيان في المقاهي. أعد علاقتهما الراوي والسيدة تمثيلا لعلاقة الشرق بالغرب وعلاقة اليسار العربي بنظيره في أوربا الشرقية وروسيا.

في حالة غياب السيدة عن الحضور يتبادل الراوي الأحاديث مع صديقيه جان بيير وهاني، كلاهما يساريان، كان لهما نشاط سابق في المنظمات اليسارية المسلحة وباتا الان متقاعدين، يسلي الراوي نفسه معهما بالنقاشات السياسية وحكايا الشعراء والفنانين، نقاشات متواصلة من دون وجود حكاية تذكر، فالحكاية قرينة ذاكرة ومخيال المقهى ورواده من المثقفين المتقاعدين عن العمل والذين يعتاشون على تبادل الاراء والاتهامات بينهم عن اليسار واليمين، الغرب والشرق، الزعماء والنساء والكتب.

وإذ يسترجع الراوي بداية علاقته بالسيدة يعيد صياغة أحاديثهما المتواصلة عن مآلات الفكر اليساري وسيرة قادته منذ لينين مرورا بستالين وغوربتشاوف ويليسن حتى بوتين رجل روسيا الحاضر والاتي والذي يبتغي اعادة امجاد الاتحاد السوفيتي، ويرجع العالم إلى توازن القطبين بعدما شوهته احادية القطب الغربية بزعامة أمريكا، وبما أن الراوي قابل السيدة في رومانيا فقد جرى الحديث بينهما

عن دكتاتورية تشاوشيسكو ودرجة الشبه بين حكمه ونظام صدام في العراق قبل سقوط الأول 1989.

دارت الأحاديث بينهما عن شخصيات فكرية وأدبية روسية، فضلا عن السياسيين، من أبرز تلك الشخصيات المفكر "الكسندر دوغين" الملقب بعقل بوتين وقد أفرد الراوي لافكاره جزءا من الرواية "تتلخص فكرته أن روسيا حضارة تللورية، حضارة متحصنة في أرضها ومكانها، يقوم وجودها على المحافظة على تقاليدها". المفكر في دعوته لنظرية سياسية رابعة تتغلب على الشيوعية والليبرالية والفاشية عنوانها الأوراسية وتتضمن تحالفا جيو سياسيا بين اسيا وأوربا الشرقية ضد الهيمنة الأمريكية، وحلف شمال الأطلسي، بإمكانها أن تنعش احلام اليسار بالتعددية الثقافية والتوازن الدولي كتبت رواية "المدعو إلى مساء السيدة" من اجل استعادة اليسار العالمي وجاءت على شرف "الكسندر دوغين" الذي لا يعرف القارئ العربي عنه الكثير وهو المفكر الروسي الثائر ضد الليبرالية الغربية وهيمنتها الاقتصادية والسياسية على العالم. من الشخصيات الأدبية التي اتت الرواية على سيرتها الشاعر الاميركي اليوت وعلاقته بزوجته فيفيان سلبيات وايجابيات كل منهما، الشاعر والروائي الروسي ادوارد ليمونوف الصعلوك المتمرد الديمقراطي المختلف تماما عن دوغين الدوغمائي، والروائية الفرنسية فرانسوز ساغان، وقد خصّ الراوي رواياتها بنقد أدبي "لقد كانت وصفتها سحرية بحق، الجذب عن طريق النثر الحي الواضح والسريع، والمخيلة الخصبة والصراحة الفجة والانشاء المغامر المعبر من دون تزييف". حضر النقد الأدبي مثلما حضرت الاشارة لمسرح العبث والكلام عن أدب الرحلة والسيرة والصحافة، تلك سياحة أدبية وثقافية ممتعة ومسلية تتمحور حول مآلات أفكار اليسار العالمي بما يقنع المتلقي بأصالة هذا الفكر، وأن لا غنى عنه للجمهور والنخب في حاضرها ومستقبلها، وإن رافقت تاريخه الممتد الاخطاء والتراجع والنكبات، هل آذنت أفكار ما بعد الحداثة بموت الحكاية بضمنها الروائية والقصصية؟ وإذ يذكر علي بدر اليسارية (فرانسوز ساغان) بإعجاب.. هل يطمح أن يكتب سردا مشابها لما كتبته في ستينيات القرن العشرين، سرد فيه من التلقائية والشفافية والخروج على التقاليد الروائية. قدم علي بدر في روايته هذه تصوره الشخصي الخاص لسرديات ما بعد الحداثة في قلة ارتهانها للتجنيس وعدم اكتراثها بالحكاية والحبكة واستيعابها لأنماط تدوينية كتابية وشفاهية مختلفة.

•أكاديمية وناقدة عراقية

هاشم تايه نحاتا
الفائض عن الحاجة من المادة

خالد خضير الصالحي

مع رحابة النظرة الفنية المعاصرة اتسعت فرص الفنانين لاستثمار مواد غير تقليدية في إنجاز أعمالهم بطرق عكست أثر تلك المواد المستثناة سابقا من استثمارات الفن في تحقيق تكوينات مبتكرة لم يكن ميسورا الحصول عليها باستخدام مواد فن تقليدية، فقد كنا نتساءل عن إمكانية تصنيف الفن استنادا الى مادته، واستثناء بعض انماطه من صفة الفن بسبب توظيفه مادة استثنائية، وهو امر لا نرتكبه منفردين فقد كان الناقد البريطاني (هربرت ريد) يفرض انتقائية تستبعد فنانين عن بعض كتبه على اساس الموضوع، ويمايز أيضا بين أنواع الفن على أساس المادة؛ فقد استثنى ريد انماطا من الفن في كتابه (النحت الحديث.. تاريخ موجز) اهمها: ”الريليفات والبنائيات التي تتأرجح بغموض بين حرفتي الرسم والنحت“ -هربرت ريد، النحت الحديث.. تاريخ موجز، بغداد 1994، ط؟، ص 5 - من فن النحت؛ لكن لم تكن تلك الاستثناءات على اساس المادة الا من الناحية الاولية، بينما كان السبب الاكبر الذي واجه هربرت ريد في مشكلة (الريليفات والبنائيات)، هو مشكلة الإجناسية، اي اين وكيف نجنس منحوتات تستخدم مادة استثنائية ومهملة، فكانت تلك (الريليفات والبنائيات) تبدو وكانها تشكل عقبة عصية تلقي بثقلها عليه، وهي ”تتأرجح بغموض بين حرفتي الرسم والنحت“؛ وبذلك فهو يصنفها بسبب مادتها ابتداءً فإذا به يحاكمها لموضوعها، الذي يعيد اذهاننا الى ما اعتبرناه (تخوم الرسم) معتمدين في تصنيفنا لتلك التخوم على المادة الاولية واختلاطاتها؛ وان افتراض وجود تخوم للفنون المختلفة، ولفن الرسم تحديدا باتجاه مختلف انماط الفنون الاخرى يفترض وجود تخوم بينه وبين الفنون المحايثة القريبة كالخط والتصميم مثلا؛ وهي مماثلة لتلك التي بينه وبين النحت.

كانت مناطق التخوم تزخر باعمال تجمع صفات الرسم والنحت معا: السطح واللون والبعدين، مع المادة المجسمة الناتئة في

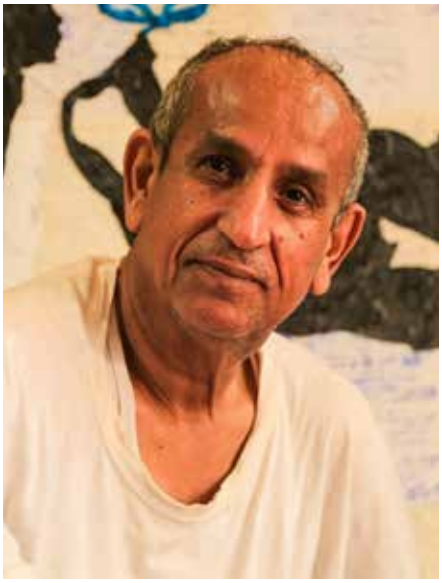

هاشم تايه

عمل واحد، وآخر هذه التجارب التي اطلعنا عليها من خلال المعرض الشخصي الرابع للنحت الذي اقامه الرسام هاشم تايه في البيت الثقافي في البصرة، انها لم تكن تجربة رسم استطالت أذرعها لتطال تخوم منطقة النحت، بل هي تجربة نحت استعارت آليات اساسية من فن الرسم، فلم ينهج ما درج عليه الرسامون السابقون في مناطق التخوم حينما كانوا يحاولون (احترام) قواعد اللعبة لكلا الفنين، فإن هاشم تايه في محاولته هذه، يدير ظهره لقوانين فن النحت، وأهمها ذلك (القانون) الذي وضعه النحات رودان، والذي يقرر فيه فاعلية الواقعة الشيئية لفن النحت (= ماديته) حين يقول "إن البروز، لا الخطوط الخارجية، هو الذي يقرر التضاريس"، وهو يعني بالبروز المادة، بينما يلقي هاشم بمهمة (تحديد التضاريس) ليس على المادة بل على الخط ، بعد ان تحوّلت المادة بيده الى خط ! او ربما هو الخط وقد تحول بيده الى مادة صلدة!، فلم تعد حركة لنقطة على سطح، او حدّا (= محيطا كفافيا) بين لونين، وهو امر لم يكن جديدا، فقد كان حتى في اعماله الزيتية السابقة مخلصا لمادة العمل، فقد كانت تلك الاعمال زيتية بفعل مادتها، بينما هي في نتيجتها النهائية اعمال ذات بنية كاليغرافية (تتخندق) مع الأعمال التخطيطية، وكأن اللون فيها لم يتنافذ كفاية مع بناء اللوحة، وكأنها تخطيطات تمت اضافة اللون إليها في مرحلة لاحقة، فلم تغير تلك الإضافة من العمل شيئا، وبذلك نجد العذر لأنفسنا ان كنا نعاملها وكأنها لوحة تخطيطية من وجهة النظر الطوبولوجية؛ حينما فرضت نفسها بتكوينها الشكلي الكاليغرافي، فكان هاشم تايه فيها يؤسس أعماله على تنافذ استعاري بين مستويي العمل لديه وهما البساطة والقوة: البساطة التي لا نعني بها التخلص من الشوائب الزائدة في الشكل فقط بل وبساطة المادة المستخدمة، كانت البساطة توجها تقليليا، يحاول الاكتفاء بأقل الخطوط الضرورية لبناء الشكل، وهو ما أسس عليه هاشم تايه بناه الهيكلية، بينما يتجسد البعد الآخر للتكوين (القوة) في جرأة الخط، أو جرأة النقطة، وهي تتحسس طريقها في المنحوتة بثقة، كما كان يصنعها في لوحاته سابقا، فتبدو وكأنها تعرف مسبقا خط سيرها، لذا تترك لها أثرا، خطا قويا محفورا على بياض الورقة، انه الطموح الأزلي للخط إلى الاندفاع من نقطة تجاه أخرى بخط مستقيم، هو الان، وكما قلنا، خط حقيقي، يمتلك حدة واضحة وثقة ومقدرة على فصل مساحتين من اللون

(الأبيض) نفسه، وليس فقط اختراق مساحة لونية، انه إذن خط (حقيقي) يختلف عن المحيطات الكفافية الوهمية التي تفصل مساحتين لونيتين مختلفتين عن بعضهما، وذلك راجع إلى أن التكوين الخطي عند هاشم تايه، تصنعه خطوط حقيقية (محفورة) على بياض الورقة، خطوط يصنعها المداد الأسود الفاحم.

لقد كان ذلك هو التكنيك الذي عامل به هاشم تايه اعماله النحتية كذلك، فقد كان الخط العنصر الذي عشقه كثيرا، وخبر قدراته، وقدم فيه معارض خاصة، وبنى تجربته في الرسم، وفي جزء كبير منها، على هذا العنصر، فإذا به الان، وخلافا لقواعد اللعبة، يقدم تجربة في النحت مؤسسة على عنصرين: استثنائية المادة، وهيمنة الخط بصفة اساس، فكانت منحوتاته قد منحت هذا العنصر (جوهرا صلبا) حتى صار جزءا مكونا جوهريا (لبنية الشيء الكامنة) في النحت، والتي سيتم ـ استنادا الى تركيبتها المتخيلة ـ تجميع assem-blage اجزاء (النحت) المؤلفة من مواد قد لا يكون لها تاريخ مرتبط بفن النحت، فهي مواد قد تصحّ تسميتها (جاهزة الصنع) ready made بل هي منبوذات من سقط المتاع يعيد معالجتها لتتأهل فتكون صالحة للنحت، مواد كتلك التي صنع منها بيكاسّو منحوتاته التجميعية المعدنية، بل اشد انتماءً

الى عالم (المزابل): اوراق تالفة، قناني بلاستك فارغة، وانابيب ماء تالفة وغيرها مما قد لا يخطر على بال، وبذلك يتم، من خلال هذه الفعّالية التجميعية، منح هوية جديدة للعمل النحتيّ النهائيّ بشكل يجعله منقطعا عن اجزائه، فالكل هنا لا يساوي مجموع اجزائه، فإذا كانت "اشكال بيكاسّو الحديدية قد امتلكت بعض الخواص العاطفية المحددة، كونها شريرة، وغامضة، وفكاهية احيانا" كما يقول هربرت ريد – المصدر السابق، ص 51 -، فإن اشكال هاشم تايه تكتفي بصفة واحدة جامعة مانعة تماما، هي انها غريبة حقا، بمادتها اولا، وفي شكلها وبنيتها، واخيرا في اهدافها، مع انها تماثل ما يسمى (الرسم في الفضاء) وربما الأدق هنا تسميتها (التخطيط في الفضاء)، وهو الذي يتحقق هنا بشكل يجعله اتجاها لرفض القيم الراسخة في فن النحت التقليدي: الصلابة والثقل، تلك القيم التي لم تكن الا ماكيتا (= مصغرا) مخططا في الفضاء، وهو ما يسمى بالاقفاص الفضائية)، ذلك النمط من (النحت) الذي تنتمي اليه منحوتات: جايكوميتي (القصر في الرابعة فجرا 1932)، وبيكاسو (بنائية الاسلاك 1930) وجواد سليم (السجين السياسي). يبقى اذن ذلك السؤال الملحاح الذي يفرض سطوته علينا: هل نجنس هذه الاعمال باعتبارها إحدى مراحل التخوم بين انماط الفن التشكيلي او تحديدا مرحلة متوسطة بين الرسم والنحت، وهو ما كان يبدو واضحا من خلال رفض تجنيس الاعمال المماثلة من قبل العديد من الفنانين، لذا فانا اعد البنية الخطية دلالة على بقايا تواشج نسقي الرسم في النحت، ما يخلق فضاء يسد مسدَّ المادة المفقودة هنا، ويخلق حركة ناشئة من تواشج فضائيّ (داخل - خارج) المنحوتة، فتلك الخطوط تسيِّج مساحات الفضاء المفتوح كونها (داخل) المنحوتة، وفضاء اخر بوصفه (خارج) المنحوتة، فتكمن في البنائيات النحتية والاقفاص الفضائية حاجة للحركة الفضائية (تغيير علاقات الفضاء نتيجة الإفتقار للمادة الصلدة التي كانت في ما مضى جوهر النحت)، وهو ما دفع كالدر الى تركيب اجزاء متحركة من المنحوتة لتخلق بحركتها تغييرا في علاقات الفضاء، وهو أمر نجده احيانا في الرسم ولكن بأهداف اخرى، وذلك حينما كانت الرسامة هناء مال الله تضيف للوحاتها اجزاء متحركة يمكن للمتلقي ان يغيرها حسب ما يقترحه هو؛ وبذلك يكون المتلقي مشاركا وصانعا للوحة في جزء منها وذلك بتغيير العلاقات اللونية هذه المرة، ويبدو ان الحاجة الى تغيير علاقات الفضاء كمعادل لردم الفضاء هو نزوع أصيل في هذا النمط من المنحوتات، نتيجة البناء النصبي لهذه المنحوتة، وفي غالبيتها مشاريع نصُب ضخمة مقدّر لها ان تحتل مساحات عامة يتعايش الناس معها بشكل تلقائي ويومي، وهو ما يجعلنا نزعم ان المتلقي سيكون جزءا من التكوين، قد يكون ضئيلا بحجمه ولكنه يشكل بؤرته المركزية التي تلتمّ حولها التفاصيل كافة الأخرى حسب موقعه المتحرك داخل التكوين، وبذلك يفارق المتلقي الذي يطوف حول العمل النحتي، ان العمل النحتي الان هو الذي يطوف حول المتلقي على الرغم من الثابت والمتحرك .. المتلقي.

زاوية نقدم فيها أحدث نص الى جانب أحدث كتاب اصدره .. وذلك بهدف تشكيل صورة عن الكاتب ومنجزه ..

هكذا كان الوقوف أمام الواجهات الزجاجية في الشارع الأوّل

ريسان الخزعلي

أمامَ الواجهات ، وقد كانت زجاجيّةً، مرّاتٍ ومرّات وقفنا. طوافُ العيون يدور يغمزُ ما عُلّق أو تدلّى. يدور، ويمسك لونَ وعطر كلِّ ما يوقظُ الرغباتِ – حيثُ صبيّاتُ المحلّاتِ ارتدينَ مالا يستر الركبتين، وقد حلَّ الدوار. دارَ الطوافُ، ودارتْ بنا الواجهاتُ، كانتِ العيون أصابعَ تمسك من خلفِ الزجاج كلَّ ما يُشترى – كلَّ مالا نشتري .

فهل أوهمنا، توهّمنا ..؟

إنَّ الزجاجَ ألبسَنا وعطّرَنا، وكانَ الشارعُ مزْهوّاً بما كنّا عليه.

يا شارعاً

ياشارةً قبلَ انكسارِ التاجِ

الواجهاتُ..،

الآنَ أطلال تدوسُ نثارَها العربات – تحملُ كل ما يمحو الوجوهَ معَ الزجاجِ.

وقصدت أسأل..،

هل لظلّي من بقايا..؟

فوجدتُهُ خيطا على ماءٍ أُجاجِ.

ياشارعا

هل كانَ يُكفيكَ احتجاجُكَ واحتجاجي..؟...

اللغة والتموضع الدلالي
في نصوص الشاعر العراقي ريسان الخزعلي

علاء حمد/ الدنمارك

نعتني بخصائص النصّ، وعندما يكون التشفير من المهام اللغوية، فالدلالات التي نقصدها يتراوح تفعيلها بين اللغة والمعنى، وبين تشفير اللغة ومفاهيمها، فالتغييرات التي تحدث، تعتلي السلم التدريجي للمفاهيم النصّية، ومن هنا تبدأ حركية اللغة باتجاه المتاح، والمتاح الذي نقصده، هو ما يتعلق بالنصّ الشعري من لغاتٍ تواصليّة ولغاتٍ تموضعيّة بعلاقاتٍ دلاليّة؛ حيث يكون الرابط التركيبي، رابطاً دلاليّاً، وفي الوقت نفسه عندما نكون في هذه المنطلقة كيف نبدأ؛ هل من الدال أم من المدلول؟ وعندما نغوص في هذا المنحى نجد أنّهم أكّدوا على أنّ العلاقة بين الدال والمدلول، هي علاقة تطابقيّة، وهذا ما يقودنا إلى لغة الأشياء، فعند سماع الكلمة نتوصّل إلى دلالتها[1]؛ ولكن هذا لا يكفي عندما يكون التفكر اللغوي خارج لغة الأشياء، مثلاً التموضع اللغوي – الدلاليّ، حيث يتمّ الاعتماد على حركة اللغة من خلال الأفعال، والتي تساهم في تنشيط النصّ من جهة، وتساعد على تحريكه من جهة أخرى، ومن الطبيعي أنّ كلّ فعل يحوي على معنى دلالي، فتكون العلاقة بين اللغة والنصّ علاقة فلسفيّة؛ فهناك مستويات معرفيّة تجانس اللغة النصّية من الناحية الفنّية؛ وهي كما حدّدها ابن رشد:

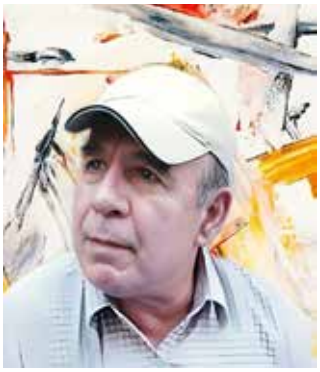

الحسّية منها، والحدسيّة، والكيانيّة، ومن خلال مصطلح الجوهر بالذات[2]. ويوصلنا القول إلى أنّ العلاقة بين (الدال والمدلول) هي المفتاح الأساسيّ في فهم المعاني وبناء الفهم والاستدلال في فلسفة اللغة حسب ما اتفق عليه الفلاسفة.

لا يتخلّى القطب اللغويّ في اللغة الشعرية عن القطب الجمالي، فالأوّل هو النسيج التفاعليّ مع النصّ، وهو المنتوج المحقق والمتطابق مع اللغة تماماً في إنتاج النصّ، لذلك تكون المعادلة بشكل أوّلي:

لغة الإبداع الجمالي + الخلق النصّي = النصّ المكتوب.

إنّ وظائف اللغة كثيرة فضلاً عن تعدّدها من قبل رومان جاكبسون (1896 – 1982)؛ ومنها: العاطفيّة والإقناعيّة

والشعريّة والانفعاليّة... إلخ. وتبقى رسالة الباث (الشاعر) تختلف عن التعدّديّة التي يلاحقها بعض الكتاب والشعراء، فالرسالة التي يعنيها الشاعر تعتمد التشفير، ولكي يكون المتلقي مع هذه الرسالة فإنّه يستطيع أن يفكّ شيفرات النصّ من خلال متابعته أوّلا وثقافته الشعريّة – النصّية ثانياً؛ ويعد المتلقي أداة من أدوات النصّ، لذلك يكون الإجراء، هو إجراء أستطيقي مثير للجدل اللغوي، حيث أنّ النظام النصّي، هو أسلوب الشاعر، ويعد الأسلوب متعلقا بعناصر النصّ وهو أقرب إجراء وقائي لظهور الدلالات السياقية.

ذهب "هيالمساليف إلى أنّ الأسلوب يمكن أن يحدّد من زاوية علاقة الألفاظ بالأشياء، كما يحدّد أيضاً من خلال روابط الألفاظ بعضها ببعض، وكذلك من خلال علاقة مجموع الألفاظ بجملة الجهاز اللغوي الذي تتنزّل فيه، فالأسلوب في نفسه دال يستند إلى نظام إبلاغي متصل بعلم دلالات السياق، أمّا مدلول ذلك الدال، فهو ما يحدث لدى القارئ من انفعالات جمالية تصحب إدراكه للأرسال[3].

قطرةُ
الماءِ
في
سطحِ
الموجةِ
لا يعلوها الطوفان ...
*
في التفاصيلِ
لا يكمنُ الشيطانُ
يكمنُ السّر ...
*
مهما
كانَ البحرُ واسعاً..
الوردةُ لا تنتظرُ غيرَ الندى ...

من قصيدة: قناعات – ص 12 – كتاب (النزهات).

جلّ ما يسعى إليه الشاعر هو أن يصل إلى الفعل الحركي النصّي (الشعريّ) وهو يمثل الثقل الشعري وذلك عن طريق العلاقات النصّية من جهة، ولغة الاختلاف والصور الشعريّة الحركيّة من جهة أخرى، وهي تمثل القوى المحوريّة في المنظور النصّي لدى الشاعر الخزعلي. إنّ العبارة المرنة – التوضيحية تشكّل النزول إلى عبقريّة التواصل وزرع المسافة بين الباث والمتلقي.

قطرةُ + الماءِ + في + سطحِ + الموجةِ + لا يعلوها الطوفان ...
في التفاصيلِ + لا يكمنُ الشيطانُ + يكمن ُ السّر ...
مهما + كانَ البحرُ واسعاً.. + الوردةُ لا تنتظرُ غيرَ الندى...

يتواصل الشاعر مع التقطيع النصّي، وهو الأسلوب التكويني لمقاطع نصّية تكوّن حالتها خارج الهندسة المرصودة، فتارة تكون الجمل مطرية وتارة متقطعة ويتمّ إكمال المعاني بانتهاء النصّ، أو رسم نقطة أو نقاط استرسالية؛ ويدخل التنغيم النصّي كثمرة جمالية لتغذية النصّ. (وقد عني نقاد الشعر بالصوت، من حيث كونه طاقة يمكن استثمارها جمالياً لصنع النغم الشعري وطاقاته الإيحائية الفاعلة والمؤثرة في نفسيات المتقبلين)[4].

يقودنا الشاعر من خلال الوظيفة التخييلية إلى دلالة القصد، وهو يضعنا تارة على

ظهر موجة، كي يوظف التشبيه، وتارة أخرى يدخلنا إلى ما يشبه الحكمة برصد عامل الشرّ والذي رمز له بالـ (الشيطان)؛ ولكن من خلال مقوّمات الطبيعة يميل إلى الوردة ويوازيها بالبحر، هذه المعاني التي رسمها ظهرت عن طريق دلالات توضيحية، فليست هناك بنية مختفية عبر تواصله النصّي.

عن طريق اللغة والتموضع الدلالي، سوف نبحر مع بعض العناوين التي تساعدنا على دراسة ما قدمه الشاعر الخزعلي من نصوص وأدوات نصّية أراد منها أن تكوّن عالماً خاصاً به:

الأثر اللغوي... الأنساق اللغوية وظهور الدلالة

متعلقات الوحدات الدلالية...

الأثر اللغوي:

يقول الشاعر والناقد الإنكليزي ت. س. إليوت: (إنّ الشاعر لا يملك " شخصية " ليعبّر عنها، ولكنّه يملك واسطة معينة و" يقصد اللغة "). فهناك اللغة على طبيعتها، وهي التي نتعامل بها بشكل يومي، ولكن هناك الأثر اللغوي، وهو الذي نسعى أن نكون تحت ظلّ تأثيراته وأنواعه المتواصلة، فاللغة الرمزية مثلاً، تعانق اللغة السريالية، بينما اللغة الوصفية تختلف عنهما، ومن بهذا الأداء، في التشكيل اللغوي للنصّ، نلاحظ أنّ للبناء اللغوي للنصّ الشعري أثره في التمكين والإمكانية النصّية، وينطلق من العلاقات السياقية والروابط النصّية، ونؤكد على أهم علاقة تظهر في النصّ هما دلالتا المعنى واللغة.

إنّ التحضير اللغوي، هو التحضير النصّي عندما تكون الذات الحقيقية قد استقرّت في أبعاد الأحلام المختلفة، وفي الوقت نفسه تجذب معها الجسر المهمّ في التخييل النصّي، حيث أن لغة الأحلام تؤدي إلى لغة الخيال والتي هي الأثر الفعّال في الخلق النصّي.

للتاريخ/ مهارةٌ في تعطيلِ الحاضر ...!

*

تاريخُ الماء

تاريخُ الله ...

*

رأسُ المالِ تاريخُ رأسِ ماركس...

*

الذوبانُ تاريخُ روحِ الصوفي...

من قصيدة: مكاشفات في التاريخ – ص 16 – كتاب (النزهات).

إنّ المعطيات الإدراكية تستجيب للتصوّرات الخيالية، وتكون اللغة في هذه الحالة ذات تداخلات حيّة، استجابة لما تعلّق بالذات الحقيقة، ومن هنا يكون دور اللغة الخيالي هو المتعاطف مع المعطى الحسّي الداخلي؛ لذلك تتكوّن واجبات للغة ومنها إعادة التصوير الداخلي وظهوره عند الخلق النصّي، ولكن لن تتوقف اللغة هنا، بل تعمل على تصوّرات مستقبليّة وتتجانس مع الفعل الجديد.

للتاريخِ + مهارةٌ في تعطيلِ الحاضر ...!

تاريخُ + الماءِ + تاريخُ الله ...

رأسُ المالِ + تاريخُ رأسِ ماركس...

الذوبانُ + تاريخُ روحِ الصوفي...

اشتغالات في الذات الحقيقة وهي تأتي بقدرتها ما بين الواقع الآني والتذكّر الماضوي، ومن خلال هذين النوعين من الاستدراج الكتابي، نلاحظ أنّ الشاعر يميل

إلى شبه الحكمة، متّكئاً على أحداث حقيقيّة، لكنّها معطيات تقودنا إلى التجدّد؛ فعندما يكون التاريخ مهارة في تعطيل الحاضر، فهذا يعني إنّ الخزعلي ومن خلال تجربة إدراكية يكون قد وضع الماضي (التاريخ) على الحاضر، فقد جعل المكان على الزمان والمكان، فالحاضر له مكانه الآني؛ وأما تاريخ الماء، فهو تاريخ الحياة.

وبهذه التقديرات الخيالية والتصوّرات فقد أرجع رأس المال إلى الذهنية التي اشتغلت عليه، أي أنّه جعل الأسس التواجدية نزعة للتبادل بين الحقيقة (المادة المنظورة) والصورة التي رافقت القول الشعري؛ ب هذه الدلائل نقيس الدلالة القصدية التي لجأ إليها الشاعر، بداية من خصخصة الموضوع وانتهاءً بالطبيعة المرنة العامّة.

السياق اللغوي وظهور الدلالة:

في السياق اللغوي وظهور الدلالة، هناك تظهر الدلالة اللغوية وكذلك دلالة المعنى، أمّا أثر السياق في توجيه النصّ، فهو أثر شموليّ، لا يقتصر على الكلمة أو الجملة أو العبارة، بل يشمل النصّ بأكمله، وإذا أشرنا إلى الوظيفة السياقية، فعندها نكون في المنطقة التداولية (ويأخذ مصطلح السياق مساراً أكثر بعداً مع الدراسات التداولية " Pargmatique " والتي عمّق أصحابها مسألة السياق اعتماداً على تجاوز الإطار اللغوي المحض إلى السياق الاجتماعي والنفسي والثقافي، حيث أنّ التداولية كما حدّدها "رودلف كارناب " هي قاعدة اللسانيات)[5].

لا تظهر الدلالة إلا عن طريق السياق اللغوي، وهي تتبع خصوصيّة تركيب الجملة من جهة، والمعاني الجديدة التي نحصل عليها من جهة أخرى.

وإذا رجعنا إلى المعنى المعجمي (المرجعي) فسنلاحظ أن الفرق يعدّ كبيراً، ولكن في الوقت نفسه يسقط النص في حالة من التقريريّة وهذا ما تستبعده الشعرية، لأنه يخرج عن الثقل الشعري، ولا يعطي المساحة الكافية لتوليد سياقات جديدة متكئة على حركة التخييل النصّي والحركة الرمزيّة التي تصاحب النصّ والذي يكون ذا طراز جديد.

رفيفُ الثوبِ منهُ العشبُ ينخطفُ وهذي
الريحُ لم يهتزْ لها السعفُ أُبادلُ حيرتي
صمتاً وأغنيةً وفي الحالينِ ملتفتاً فلا
أمشي ولا أقفُ

من قصيدة: مكاشفة في التعارضات – ص 18 – كتاب (النزهات).

لا بدّ أن تكون دلالة المعنى جزءاً من نظام العلاقات اللغوية، بهذه العلاقات من الممكن توظيف المفردات الدالة، وقد يكون (حسب السياق) للمفردة أكثر من معنى أو أكثر من تأويل، حسب موقعها التركيبي، لذلك قد يكون للدال أكثر من مدلول؛ ومن خلال النصّ الشعري، يتعلق المعنى الدلالي إمّا بالإيحاء أو يختفي خلف رموز وإشارات تؤدي إلى الدلالة النصّية.

رفيفُ + الثوبِ + منهُ العشبُ ينخطفُ +
وهذي الريحُ لم يهتزْ لها السعفُ + أُبادلُ
+ حيرتي صمتاً وأغنيةً + وفي الحالينِ
ملتفتاً فلا أمشي ولا أقفُ

يساعدنا المنطوق على الكتابة النصّية، وذلك التواجد التنغيمي أوّلا، ولفظة القافية ثانياً، وما ظهور الإيقاع إلا عامل مساعد يؤدّي إلى سهولة اللفظ والتأثر به، وهذا

يعني أنّ فعل الإثارة له عدّة اتجاهات، وهو الفعل الدال الذي يختفي خلف النصّية وظهوره في السياق المكتوب.
لقد اعتمد الخزعلي على لغة الاختلاف والتي تولد لنا الدلالة الأصلية غير الواضحة، من الدلالة الأصلية نلاحظ ثمّة توضيحات دلاليّة تتعلق بالزمن اللغوي، وهي المعاني التي تكون بدلالة غير لفظية.
لنأخذ الأفعال التي وظفها الشاعر، فهناك أربعة أفعال متفرّقة، ومنها شكّلت قافية، ينخطف، يهتزّ، أمشي وأقف... بعضها كان حركياً مثل الفعل ينخطف، وبعضها تموضعياً، وقد شكّلت هذه الأفعال؛ دلالة الحال، أي أنّ الأفعال أفعال آنية.

متعلقات الوحدات الدلالية:

في الذات الحقيقية هناك متعلقات دلاليّة بعضها مسموعة وبعضها مرئية، وتعد الوحدة الدلالية القاسم الرئيسي في توجيه وتعدّد المعاني، فتشكّل الجزء القولي للقول الشعري.
(معظم الوحدات الدلاليّة تقع في مجاورة وحدات أخرى، وإنّ معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها)[6].
يكون امتداد المعاني عن طريق المجاورات الدلاليّة وذلك لأن النصّ الشعري يتوقف على أنساقه، فالمكتوب أمامنا هو الذي يظهر كخصائص بنائيّة تؤدي إلى التوازن النصّي، وتشكّل الخصائص ماهيّة النصّ في حالة خلقه.
وعندما نكون أمام المفردات والتي تأتي بشكل لا شعوري ضمن المنظور الخيالي، نلاحظ أن الشطر الشعري لدى الشاعر يأخذ حالة التركيب المباشر، أي ليست هناك تخطيطات أو تفكير تفصيلي يدعم عمل الذات الشاعرة والتي تتحوّل بحكم تجربة الشاعر وكيفية الخوض في هذا المجال.
(5)
الزوالُ عادةُ المرايا وأنتَ تُكثرُ الوقوفَ في عمقها ...
(6)
المسافةُ حجرٌ بينَ نقطتينِ في الزمان والأرضُ مفتونةٌ بهذه الكروية ...
(7)
الغيمةُ تاريخُها الماءُ وهذي السماءُ تشطبهُ...
من قصيدة: مراجعات الصحو – ص 35 – كتاب (النزهات).
على الرغم من أنّ التراكيب اللغوية للكلمات تتكئ على التوحيد (التركيب الموحّد)، إلا أنّنا نلاحظ بأنّ الجمل المركبة في النصّ الشعري الحديث تعتمد الامتداد، أي يكون السابق مع اللاحق، ومن هنا يكون للمعنى امتداده أيضاً، وتعدّده ضمن الوحدة التركيبية، وبهذه العملية تظهر الوحدات الدلالية التي تعتمد المعاني من جهة، والدلالات اللغوية والتي تكون ضمن التأسيس النصّي من جهة أخرى.
الزوالُ + عادةُ المرايا + وأنتَ تُكثرُ الوقوفَ في عمقها ...
المسافةُ + حجرٌ بينَ نقطتينِ في الزمان + والأرضُ مفتونةٌ بهذه الكروية ...
الغيمةُ + تاريخُها الماءُ + وهذي السماءُ تشطبهُ...
وفي النصوص الثلاثة نتبين أن هناك دلالة توحيدية، وتختلف بالمعاني طبعاً؛ الزوال، المسافة والغيمة، جميعها كلمات دالة وتحمل

معنى انفراديّاً، ولكن عند التركيب، تختلف معانيها، فتكون الجملة امتدادية، وفي الوقت نفسه نلاحظ؛ غياب الأفعال الحركية، ففي هذه الحالة تكون الوحدات الدلالية غير مرتبطة بالفعل الحركيّ، ونعد هذه المفردات أصغر وحدات لغوية تجانست مع النصوص، فمفردة زوال اشتقت من الفعل زال والذي يكون (مورفيماً)[7] مصغّراً من الممكن أن نشتق منه عدة كلمات تعتمد التركيب.

ونقيس بقية الكلمات بالاتجاه نفسه، حيث أنّ التعبير الحسّي الدلالي كان قد سيطر على اتجاهات النصّ، فظهور المعاني متعلقة بالوحدات الدلاليّة من جهةٍ، وبالإشارات من جهةٍ أخرى، فتكون العلاقة بين الرمزية والنص، علاقة وعي وديمومة، وبالاستدلال نكون في منطقة منتجة للمعاني وهي قصديّة الشاعر (الباث) عندما يكون متسللاً عبر الذات الحقيقية الدالة وعبر تعدد الدوال.

المصادر

(1) يذهب الكثير من العلماء والمفكرين إلى اعتبار العلاقة بين الدال والمدلول علاقة تتحكم فيها الضرورة، وأنها علاقة تطابق بين الشيء وبين ما يدل عليه في العالم الخارجي انطلاقا من محاكاة الإنسان لأصوات الطبيعة، هذا ما أكد عليه أفلاطون (347-427ق.م) قديما في محاورة كراتيل (كراطليوس) عندما اعتبر ان العلاقة بين الكلمات ومعانيها هي علاقة مادية تحاكي فيه الكلمات أصواتا طبيعية، حيث يكفي سماع الكلمات لمعرفة دلالتها، كخرير المياه، نقيق الضفادع، زقزقة العصافير.... إلخ.

(2) تفسير ما بعد الطبيعة، تحقيق: عبد موريس بوينج، المجلد الثالث، كتاب اللام، ص:14،16.

(3) النقد والإبداع الأدبي، محمد العيد، دار الفكر للدراسات القاهرة، ط1 لسنة 1989. نقلا من كتاب: أدوات النصّ، دراسة، تأليف: محمد التحريشي، من مشورات اتحاد الكتاب العرب لسنة 2000م. دمشق، ص 61.

(4) الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي، الدكتور عدنان حسين قاسم، ط1 لسنة 2001م، الدار العربية للنشر والتوزيع، ص169.

(5) السياق والنصّ الشّعري، علي آيت أوشان، ط1 لسنة 2000م، دار الثقافة، مطبعة النجاح الجديدة.. الدار البيضاء، المغرب، ص 16.

(6) علم الدلالة، الدكتور أحمد مختار، عالم الكتب، ط2 لسنة 1988م، ص 68 69-.

(7) المورفيم: وقد سبق تعريفنا للمورفيم بأنه أصغر وحدة ذات معنى، وربما كان من الممكن كذلك، أن يوصف بأنه سلسلة من الفونيمات ذات المعنى التي لا يمكن تقسيمها بدون تضييع المعنى أو تغييره، إذا نحن أخذنا تتابعًا مثل posta نجد من الممكن تقسيمه إلى مورفيمين هما: post+s؛ "s هنا تؤدي معنى الجمعية الإضافي". نقلا عن: أسس علم اللغة، تأليف: ماريو باي – ترجمة: الدكتور أحمد مختار عمر، ط8 لسنة 1998م، عالم الكتب، القاهرة، ص 101.

أحزانهُ صادحةٌ ونثرهُ يستغيثْ

حسن النواب

منشغلاً بجراحي،
والشظايا ما فتئتْ تطعنُ خوذتي،
وأسمالي؛
فكيف أقتنصُ الرؤى؟
أنا الذي لفظتني دوَّامة الحربِ فجأةً،
ربَّما سهواً من حجابات الجحيم،
ثُمَّ قالت:
هذه أرضٌ تسيَّدها الأسى، لو تعتقها؛
قلتُ: فتهرَّب المعنى من الكلام،
ثانيةً قلتُ: فتدفَّقَ الرمادُ من فمي؛
ثالثةً قلتُ ومضيتُ أقول حتى تلاشيتُ في العدم.
انحنيتُ..
نعم انحنيتُ..
على جُثَّةٍ تشظَّى فكرها على الطريق؛
لكنَّ أصابعي خذلتني؛
وراحتْ تتلمَّسُ دموعَ الأمهات على بابِ المزارات؛
والدمُ المتوهِّج في دياجير الملاجئ؛
تلفَّتُّ..
ليس هناك سوى حطامٍ يحاصرني؛
حرَّكتُ بوصلة الروح للنشور،
فتكسَّرتْ أجنحة الأثير.
كانت الحربُ..

تقفُ على دكَّةٍ من جثثِ الجنود؛
وتنحرُ الرؤوس بسيفٍ مثلوم؛
ونجيع الدم يجري في مدن البلاد،
ويخضِّبُ قميصَ جنديٍّ خرجَ سهواً،
من دوحةِ النارِ؛
وغدى من دونَ أهلٍ أو صديق،
هائماً في الطرقاتِ يهتفُ:
لا لغةً عندي؛
لا حيلةَ، لا خديعةَ، لا دسائسَ،
لا نفائسَ، لا غنائمَ، لا طعامْ.
لكني أمتلكُ نثراً يربكُ أقلامهم،
ويفسدُ زعافهم،
ويفضحُ مجون العُتاة؛
الأقبية لي.. والسلالم لغيري،
جسدي الطبيعةُ، والأرض خُفايَّ، رأسي البريَّةُ،
وقبعتي السماء؛
هي ذي صفرتهم بوجه البلاد.. نسغ قلبي،
وسندس روحي تدوسهُ شِياه الرعاة؛
هل اسأل إبليس؟ ما جدواه؛ اللعنة زادهُ،
ما جدواي الجوع زادي؛
هم مملكة الحيوان.. هل أعدُّ؟
وأنا مملكة المهابة، المهانة،
هل أوضحُّ الإنسان؟
الغابُ معهم؛
فدلوُّني على أرضٍ لا شجرَ فيها ولا حيوان؛
لكي أعرف جدواي وجدوى السؤال،
دميةٌ صوتي وهم الأصابع والخيوط،

أضعنا قُبلاتنا، أضاعوا القِبلة مني،
وأشتمُ الطير لو قال إنَّ السماء مُلكَ جناحي؛
وأبارِكُ هذي البلاد؛
لو قالت: إنَّ عبرات المعدمين تاجي؛
استغفرُ بالنخلِ وبيوت الطينِ؛
وقصب الأهوار ومسبحة جدي،
ودخان التنانير،
وأعوذُ من غلواء النثرِ وغوايته؛
وأصلّي لربَّةٍ أو تربةٍ بلا فسادٍ؛
وألعنُ شظيةً تصطلي في رأسي؛
أمَنْ يجيب الشاعر إذا دعا البلاد؛
وتكشفُ عن رؤاهُ ونجواهُ؛
لا لغةً عندي، لا حيلة؛
لا قدرةَ لي أنْ أشيَّد المنائر،
وأقدامي في الوحلِ تغوصُ؛
أيها النثرُ لماذا أنتَ متخاذلٌ ومرتبكٌ؟
لكنكَّ عنيد؛
هذي بلادٌ مسبيَّة توزّعُ نكبتها على الشعراء؛
فيقتسمونَ عفَّتها بشهوةِ خديعتهم؛
على أسرَّةِ قصائدهم؛
حتى ترجمهم الخيانة بنشَّاب النحيب؛
تلك الرايات عَباء الأمهات،
قمصان الشهداء،
ثياب الطفولة؛
والأهازيج تباريح في الصدور؛
والقصائد؛
لا أقول غير إرثٍ لجوف الطبول،

أي كفٍّ تصفعُ وجه البلاد ستزول،
أي إبليس؛ أين أنت الآن تـلهو؟
ما أحوجنا لملاك لم ينحن؛
أيها المُحتل ارفعْ حربتكَ عنْ عنقي،
لنْ أدعْ قلبك الهجين؛
يتسلَّى بصراخي ونزف دمي،
ولأنَّ الشوارع عبراتي،
والأرصفة مناديلي،
صارت حنجرتي تسابيح وصلاة؛
ولأنَّ الهباب الذي أشمُّهُ لم يستعمر سوى رئتي؛
أبقي وحدي أختنق؛
وسهواً هبطتْ بلادٌ مسبيَّةٌ من فردوس الشاعر؛
إلى أرضٍ صار إرثها الرماد؛
هبط معها الشعرُ، النثر، الدرُّ، التِبرُ، الطيرُ، والأثيرْ،
تنبَّهَ الشاعر وحشَّدَ ملائكة الغيب وصاح:
لا تتاجروا بدمها؛
وابعدوها عن أنيابِ الغزاة؛
قبلَ أنْ تستباحَ عُذريتها؛
فهزيم الرعد قادمٌ؛
وسيهتزُّ خصر الأرض من دم الجوع طرباً؛
البلاد المسبيَّة تقف أمام القصور وتذكّر ساكنيها؛
اخشوشنوا فإنَّ الترف يزيل النعم،
وتعودُ تقتسمُ الحرمان والغبار والنحيب؛
في أرضٍ منكوبةٍ اسمها نحنُ؛
قصر الولاية يعضُّ أثداء جواريه حنقاً عليها،
دخلتْ أوَّلَ سجنٍ للولاية؛
انتحرَ آخرُ سجَّانٍ فيه،

وقفتْ في سوقِ النخاسةِ،
ركعَ آخرُ مرابٍ فيهِ وتابْ؛
الغيبُ والملائكةُ تبحثُ عن خطاها؛
والغزاة يتنكَّرونَ بزي الفقراء،
هلعاً من مقدمها؛
وبلا تباريح، بلا تباريح؛
يدخلُ رجلُ البلاغة والشجاعة يتوضأُ بدمعِ الحنقِ،
ويصلّي معها في محراب الغيبِ؛
ويتبعهُ سيد الظمأ يودعها كوز الصبر،
ويمضي،
والجندي المكلوم في تنور وحشتها يُلقي عوسج النثر؛
ويفتحُ نافذةً بسعةِ الجرحِ،
فتطلُّ البلادُ بحسامٍ مجبول بجراح الأنبياء؛
وملائكة تتبعها،
والأسماء الحُسنى تسوّرها؛
تهتفُ: أيها البرقُ لا تتبختر أنَّ وميضكَ مني؛
ترتقي هضاب طهارتها،
لترقب من ثقبٍ في خيمتها؛
بساتين تستحمُّ بالنار ومواكب سبايا؛
تباريح، تباريح.. تهبطُ تباعاً من السماء،
تستغيثُ:
أيها الشعراء،
احتفظوا بحرف الراء من اسم البلاد،
فإذا سقطَ من اسم العراق،
نصبحُ عِهناً في الوهاد؛
واسم البلاد يصبح العاقْ؛
فانتبهوا أيها الشعراء.

كأرض يباب

محمد العزوي - المغرب

كأرض يباب

كل شيء فيها

تجمد

أو تصحر

الأمر سيان

الأحلام

لم تعد تجري

كما كانت في الماضي

لأن النهر الذي كانت تعول على جريانه

ليأخذها

بعيدا

في نفسها

شاخ قبل أن ينطلق

من رأس الجبل

ولم يعد يستطع

أن يدحرج نفسه إلى الحياة

والجبل الذي كانت تعول عليه

أن يرفعها بعيدا

لا يعرف أين أضاع رأسه

بعد ضربة شمس أصابته

وأصابته بالعمى

فلم يعد يستطع أن يفجر

غيمة مرت أمام عينيه

ليكون بإمكانه

أن يغسل وجهه

من الغبار

ويروي بكرم عطش

النهر

ليكون بإمكان النهر

النهوض

من شيخوخته

ليرمي عصاه

بعيدا في السماء

لتفجر غيمة مثقلة

ويعود إلى الحياة

خريف 2022

نباحٌ ليسَ منَ الكلاَب

عبد الرحيم التوراني / بيروت

1

لما تقدم العمر بالحاج مسعود بن حمَّاد السْبَيْطي وكَبُر في السّن، ضعفت قدراته وأصابه الوهن والخرف، ولم يعد بإمكانه التعرف على أولاده وأحفاده.

فجأة، أدركت العائلة أن ذاكرة الجد تتدهور وتسوء بشكل ملحوظ، صار وضعه مزعجا أكثر، خاصة عند تكراره أسئلة وعبارات كان لا يتعب من رميها في وجه من يقترب منه:

- ''من أنت.. من أنت...؟''...

ينطقها أحياناً بصيغة الجمع، مثل دكتاتور مذعور من زوال هيبته وحلول نهايته.

اختلطت على الحاج ساعات الصباح والمساء، غالبا ما كان يستفهم عن مكان تواجده. أصبح يعتقد أنه ما يزال مقيما بالقرية التي ولد وترعرع بها، هو الذي غادرها صغيرا برفقة والديه والبلاد تنوء تحت رزح الاستعمار الفرنسي، ولم يعد لزيارتها منذ سنوات خلت.

مع مرور الوقت اكتشف الحفيد هو الآخر، أن الجد مسعود ينسى الأسماء والوجوه والوقائع والمحادثات الأخيرة. وانتبه لماذا يخشى أفراد العائلة وهم يشددون التنبيه بألا يتكرر ضياع الجد إذا ترك يتخطى عتبة البيت لحاله.

لكن في غمرة كل هذا الخلط والخرف لم ينس العجوز صديقه، ظل يناديه باسمه الصريح، فيأتيه سريعا ودودا طيعا، راكضا. ولم يكن غير ''أميغو''... الكلب.

قبل الزهايمر، كان الجد يهتم بكل ما يتصل بـأمر ''أميغو''. بل يبالغ أحيانا كثيرة في الانشغال بشؤون الكلب اليومية، من أكل وشرب وفسحة وتنظيف:

- هل ناولتم ''أميغو'' أكله؟.. هل سقيتموه الماء؟ هل غسلتم فراء ''أميغو'' ونظفتموه من الطفيليات؟ لا تنسوا أن تختبروا الماء أولاً.. تأكدوا من أن الماء فاتر...

بالمقابل، ظل ''أميغو'' يتجاوب مع الجد، تماماً كما كان الجد قبل إصابته بالخرف. ''أميغو'' هو الكائن الوحيد الذي لم يصدق بأن صاحبه يعاني من عطب في الذاكرة، وأنه فقد الكثير منها.

أعترف الآن أن الغيرة أدركتني في لحظة ما، نعم.. من ''أميغو''، وربما تمنيتُ حينها

لو كنت أنا هو ذاك الحيوان المدلل، ليقيني التام بأن جدي أصبح يفضله ويحبه أكثر من حبه لنا جميعا، وبالأخص لي، أنا حفيده الأقرب إليه، من فتح عينيه على محبته وعلى حنانه الغامر.

***

عندما وصل "أميغو" إلى بيتنا، كنت أنا من جاء به أول مرة. ما أن شاهدني والدي متلبسا باحتضان جرو صغير داخل علبة كرتون صغيرة، حتى نهرني بقوة، آمرا بإخلاء سبيل الجرو وإبعاده فورا من البيت. لكن الجد تدخل ونهى أبي عن التمادي في تعامله الفظ مع الطفل الصغير.

ذكر له الوالد مضمون حديث نبوي يقول "إن الكلاب تمنع الملائكة من دخول المنازل". لم يهتم الجد بما سمع، بل ابتسم نصف ابتسامة، وانحنى كراكع، مطلقا من بين شفتيه صفيرا خافتا، نادى به الجرو. ما أن اقترب منه الحيوان حتى أغلق العجوز ثقبتي أنفه، وأردف بصوت مرتفع:

- أبعده عني يا خنزير.. أبعده ولا تأتيني به قبل تحميمه وتنظيفه جيدا بالماء والصابون.

في المساء، سألني الجد عن الاسم الذي سأختاره للجرو، فأجبته من دون تفكير:

- لقد سميته "بيل"...

كنت أحب هذا الاسم، وهو لكلب سلسلة رسوم متحركة سبق لي مشاهدتها على شاشة التلفزيون باللونين الأسود والأبيض.

تفرس الجد في وجهي قليلا، قبل أن يقول:

- ما رأيك يا ولدي العزيز؟ عندي لك أحسن من هذا الاسم لجروك الجميل، لا أشك أنه سيعجبك...

وبصوت عالٍ، ومثل قروي وسط البراري البعيدة يصدح بأغنية غجرية، أخذ الجد ينادي:

- "أميغو... أميغو.. أميييغووووو...."...

ويا مرحبا بـ "أميغو" في بيتنا...

لم تمض أسابيع، حتى بدأ الجد يأخذ مني "أميغو" بالتدريج، إلى أن سرقه مني سرقة موصوفة، صار ملكه لوحده، هو صاحبه ومروضه، وهو مولاه. وما كان مني سوى الاستسلام. وهذا ما حصل.

"أميغو" لم يعد لي، بل أصبح كلب الجد. وخسارتي صارت خسارتين، خسارة "أميغو"، وخسارة الحاج مسعود بن حمَّاد. إن الجد لم يعد يمنحني الاهتمام نفسه والمودة ذاتها التي كانت... إلى أن لحقه آلزهايمر وسرق منه ذاكرته، فأنكرني ونسي اسمي مع بقية الأسماء، إلا اسما واحدا: "أميغو". عندما لم يعد الجد يتذكرني كنت أقترب من أذنه، وقد ثقل سمعه:

- أنا الطبيب البيطري يا حاج...

إذ كان الحاج في السابق يحثني على النجاح في دراستي حتى أتخرج طبيبا بيطريا متخصصا في علاج الكلاب، والكلاب فقط.

***

بعد إحالته على التقاعد، كعامل في الميناء، تَعَوَّدْتُ على مشاهدة الجد الحاج مسعود بن حمّاَد وأنا عائد من المدرسة، جالسا على سطيحة المقهى المجاور للبيت. كنت أراه ممسكا بسيجارة "كازا سْبُورْ" المفضلة لديه من أيام الشباب، كان يزرع السيجارة ذات التبغ الأسود تحت شاربه الكث الأبيض، ثم يشرع في إفنائها ببطء فيتناثر رمادها الداكن ويعلو فوق رأسه، مشكلا عمامة نسجت خيوطها من ثاني أوكسيد الكربون، لتغطي لمعان صلعة اشتغلت عليها عوامل التعرية لتفقدها آخر الشعيرات.

يحتضن الحاج بلطف الحيوانَ الأليف، ممررا يداً معروقةً فوق فرائه الأصفر والأسود. مبتهجا بميزات كلبية نادرة. إنه لا ينسى التغزل في جمال "أميغو" وذكائه وتناسق عضلاته. متحدثا بإسهاب عن التفوق "الدماغي" للكلاب على بني البشر. كما لو أن كلامه يخص كائنا بشريا واعيا، أو كمن يتحدث عن رفيق محبوب. وفعلا تحول "أميغو" بسرعة إلى رفيق أنيس محبوب لدى كل العائلة. وهذا هو الصحيح، لقد أصبح "أميغو" واحدا منَّا.

في غمرة الحديث الاحتفالي بـ"أميغو"، غالبا ما تمضي اللحظات سريعة، فيتوقف الجد عن الكلام حول "أميغو" ومديح شكله وسلوكه وقيمته، لينخرط في حالة من حالات قلقه الحاد والمبهم.

يرفع الحاج رأسه إلى الأعلى، إلى السقف أو إلى السماء وهي تملأ النافذة المفتوحة. يغمض عينيه، ويسترسل في الهذيان. يسأل عما سيفعله "أميغو" بعد أن يغيب عنه، ويتركه ويسافر بعيدا إلى العالم الآخر.

يتكلم بصوت أجش أتلف إدمان النيكوتين والكحول أوتاره، إلا أنه صوت لا يخلو من أنَّة حزن:

- ماذا ستفعل يا ولدي "أميغو" بعدي.. كيف سيكون حالك من دوني؟

ماذا ستعمل يا حبيبي "أميغو" بعد أن أختفي وأغيب عنك إلى الأبد...؟

هل ستبكي... وتدمع عيناك الجميلتين؟

هل ستحزن قليلا... أم سيعتريك حزن أكبر من كل أحزان هذا العالم الصاخب؟

هل ستذكرني.. وتنبح نباحك المحبب إلي...؟

أتدري يا "أميغو" أن نباحك الطويل بعدي هو عزاء...؟

أم أنك ستقرر الرحيل معي...

وتختار حفرة صغيرة تنام فيها بجانب حفرتي العميقة...

وبعد أن يمسح بكم القميص عينيه وأنفه يواصل:

- لكنك يا "أميغو" بريء، والكلاب لا تقترف الذنوب، لذلك فإنها كالملائكة لا تستحق الموت مثلنا نحن البشر...

ساعتها يا رفيقي يا "أميغو"، وأنت ترقد بهدوء جنبي، ستكون لدي أوقات بسعة كل الأزمان الغابرة والآتية، لأحكي لك كل ما تحبه من قصص وحكايات حدثت ولم تحدث بعد في هذه الدنيا الفانية...

ساعتها يا رفيقي "أميغو" سنغني معا، ومن شدة فرحتنا سنرقص ونرقص حتى يتمايل الجيران من أهل المقابر النائمين الكسالى...

يصمت العجوز المحطم، قبل أن يكمل الهذيان، مخاطبا كلبه المحبوب، مكررا العبارات ذاتها. عبارات ليست في حقيقة الأمر سوى مرثية لذاته المقهورة.

وبعد أن يحس "أميغو" بأن صاحبه هدأ وصمت، يرفع وجهه الطويل، تضيء عيناه الداكنتان بشكلهما اللوزي، تنغرسان في العينين الضيقتين للعجوز.

كأن "أميغو" لحظتها يفكر باحثا عن إجابة ما لأسئلة وتساؤلات صاحبه.

يقف على قائمتيه الخلفيتين، لاهثا، محركا ذيله وأذنيه. يبدأ في لعق الوجه المتعب والمنكمش والقديم، يمسح دموعا تسللت من عين فشل صاحبها في كتم مائها..

عندها تصدر آهة غائرة من صدر الجد، فيضحك ملء شدقيه، ثم يمد ذراعين نحيلتين لاحتضان "أميغو"، ويكون عناق حبٍّ جارفٍ...

يتبع ذلك تملص ”أميغو“ من بين أحضان الجد. فيركض إلى خارج البيت. ليطلب العجوز من الجميع أن يصمتوا.
- أتسمعون ما أسمعه؟
- ...
- إني أسمع أصواتا غريبة، مختلطة، ما بين النباح والعواء، والزمجرة والغمغمة، وما بين الصراخ والصهيل.
يتابع الجد:
- آه.. نسيت أن أخبركم أن لـ ”أميغو“ أكثر من سبعة أرواح لمخلوقات متعددة، منها أرواح الذئب والسبع والنمر والخيل والبشر...
يكتم بعضنا ضحكة هزء وسخرية من أوهام رجل عجوز. ونتبادل نظرات الاستغراب...
- ما هذا المخلوق المتعدد الأصوات الذي اسمه ”أميغو“؟
ثم لا نعرف كيف يغافلنا الجد لينخرط في نومته العميقة مثل طفل رضيع. كائن تتحول ثقبتا أنفه وفمه المدور إلى آلة لا تتوقف عن إطلاق أصوات مختلطة من الشخير الموزون والمقفى.
***
”لا يوجد علاج يشفي من داء آلزهايمر“. لخص الطبيب كلامه لوالدي. لكنه حذر من مخاطر تسريع تدهور الحالة وزيادتها، إذا لم نواظب على مجالسة الجد والإكثار من الكلام والثرثرة معه. كما أوصى بألا يقلق أفراد العائلة، إذا لاحظوا أن الحاج يواجه صعوبات في إيجاد الكلمات الملائمة للتعبير ومشاركتنا في الكلام.
عوضنا متابعة برامج التلفزيون المسائية، بالتحلق حول الجد بعد العشاء.
يلتفت الجد إلينا:
- ”أميغو“ هو الوحيد الذي يفهمني.. أنظروا إلى علاقتنا النقية، والنقية جدا، صداقة مثالية لا يشوبها طمع أو حاجة.. ولا من يحزنون...
ولما يعمد أحدنا إلى تغيير دفة الكلام، يقاطعه العجوز بغضب:
- ألا تفهمون الكلام؟ ألا تستوعبون القصد؟
ينتفض في كل من حواليه:
- ما هذه الغباوة التي بلا حد... ما هذه الغشاوة التي تعمي القلوب والأبصار... لن تفهموا أبداً... يكفيني أني أفهم ”أميغو“ و”أميغو“ يفهمني... والباقون إلى الجحيم... اغربوا عن وجهي، اتركوني.. أريد أن أبقى وحيداً...
لاحقا، بعد سنوات، سأفهم لماذا اقتبس القرويون من لفظ ”الجحيم“ اسما موازيا للكلب، فأطلقوا عليه وصف ”المَجْحُومْ“.
الجحيم مرة واحدة!
أكيد أنها ليست إرادة الجد، بل كان قرار ”الحاج آلزهايمر“، الذي ألقى بنا، نحن أفراد عائلة الحاج بن حمَّاد السبيطي إلى الجحيم، وألبسنا عباءة وفراء ”المجحومية“..

2

يقول أبي، متحدثا عن والده، عن جدي، الحاج مسعود بن حمَّاد السْبَيْطي، أن وشائج متينة ربطته مبكرا منذ يفاعته بالكلاب.
يحكي لنا عن زمن ماضٍ روته له صبيا الجدة، الحاجة غنُّو بنت الحاج بلخير بن سلّام، عن عواصف رعدية صاعقة، مصحوبة بهطول أمطار غزيرة ورياح قوية. عن فيضان نهر قديم كان اسمه وادي ”فَرْطْباوْ“، كان يمر بقرية الجد. وتسببت سيول الفيضان في جرف المواشي وتدمير

الأفدنة وإتلاف المحاصيل الزراعية، وفي تشريد عدد من أهل القرية والقرى المجاورة التي يخترقها النهر، قبل أن يجف "فَرْطباوْ" ويختفي ويبتلعه باطن الأرض السحيق.
لا يتذكر الجد شيئا من هول تلك الفاجعة الطبيعية، إذ كان طفلا صغيرا، سوى نوبة الغضب الشديدة التي انتابت أبوه. حتى أنه لم ينس العقاب الذي ناله منه ضربا مبرحا بعصا طويلة قُدَّتْ من شجرة كرمة مزروعة في فناء البيت. ضربه بعدما لم ينفع معه نهي ولا أمر بالتوقف عن البكاء وعن النحيب، بكاء لا مبرر له على الإطلاق، حسب رأي والده (جدي). ولم يكن صغيره البكر يبكي غير رفيقه "أميغو"، الذي كان ضمن ضحايا فاجعة "فَرْطباوْ".
يلتفت الحاج مسعود إلى زوجته غنُّو، يأمرها أن تتكلف بإسكات جروها المسعور، وإلا سيقوم هو بذلك، مشيرا إلى مكان خزانة يحتفظ بداخلها بسلاح موروث، سوطٌ فُتِلَ من جلد قضيب ثور هائج...
لا شك أن حالة من الحيرة والاستغراب الكامل انتابت الحاج مسعود بن حمَّاد. كيف لا يكون الولد كغيره من الناس، يبكي حزنا على ضياع المحصول الزراعي؟ وكيف لم يؤلمه نفوق قطيعهم الصغير من الماعز والأغنام؟ بدل ذلك يبكي حيوانا وسخا يلبسه الجرب ويسكنه القُراد...!
- لا ردَّه الله.. ولا ردَّك معه أيها الملعون...
يصرخ الحاج حنقا متحسرا على خسارته التي تسبب بها فيضان "فَرْطباوْ". ولا شك أنه كان يشكو في الوقت ذاته من صدمته الناتجة عن حماقة بئيس من نسله وصلبه...
- ما هذا القدر يا أله... ماذا ارتكبته من معاصٍ ومن ذنوب في ملكك ياأله...
لما استنجد المراهق الصغير بأمه، نهرته بفزع، ولم توفر هي الأخرى الكثير من اللوم لصغيرها، وأكالت له الاتهام ذاته الذي رماه به أبوه قبل لحظة:
- ليس هذا سوى حصيلة سوء تربيتك لهذا المَجْحُومْ.. أنت من أغْرَقْتِه في "الفْشُوشْ" بلا حد... كيف تنتظرين وأنتظر معك يا امرأة خيرا من مثل هذا العاق المعفون...
شُوفي كيف صار وجهه منفوخا بالأكل الزائد، شُوفي كيف حمَّم الزغب شاربه معلنا عن مقدم لحية تيس، لا أشك في أنه سيكون له شارب أكبر من "موسطاشي"... لكنه شارب ولحية بلا رجولة.. بلا معنى...
يمسح الحاج مسعود بن حمَّاد زبد الغضب العالق فوق شفتيه، ويجلس في الركن منشغلا بلف سيجارة جديدة، متحسرا متنهدا:
- الله يلعن بو الوقت.. الله يلعن بو الزمان...!!
أليست هذه يا ربي من علامات الساعة والقيامة الآتية لا ريب فيها؟!!
وهو يهم بالخروج... لا يتردد الحاج في ركل ابنه المراهق التعيس، آمرا أن يزيغ عن طريقه.. فلا نفع يرجى من بشر يشبهه...
- أعوذ بالله من هذا الجيل الضال الممسوخ... تْفُو...
ظل الصغير مسعود يحلم بكلب جديد. ولم يجر تعويض "أميغو" بآخر..
- لم تعد لدينا الحاجة بأي مجْحُومْ غيره...
أجابت الأم غنُّو بنت الحاج بلخير بن سلّام. وعين الصواب ما نطقت به المرأة، ما دام لم يتم تعويض قطيع الماعز والأغنام المفقود في كارثة فيضان نهر "فَرْطباوْ".. والكلاب لا تصلح إلا للرعي...
ثم لاح أفق الجوع، بعدما برزت أنياب الجفاف المحدق. هكذا انطلق موسم الزحف

القروي نحو المدن الساحلية القريبة، وانتظم هروب جماعي للناس، بغير قليل من الأسى والألم والغضب.

في المدينة فتش الولد عن جرو صغير فلم يجد. لكنه سيندهش لحملات منظمة، أين منها هيجان الوديان والرعود الصاعقة وفيضان الأنهار، حملات لتنظيف المدينة من الكلاب الموصوفة بالضالة، هكذا شاهد عن كثب كلابا تطاردها عربات خاصة من البلدية. مشاهد لم تنفع أي كلمات في التخفيف من وقعها العنيف على الولد. حاول معلم المدرسة أن يفهم تلميذه الصغير، بأنها مطاردات بدافع من مخاوف انتشار داء السعار وبراغيث الكلاب.

رجال مسلحون بسياط جلدية وبشِباكٍ من الخيش مثبتة على صناديق خشبية طويلة. إنهم زمرة صائدي الكلاب.

- هم المجرمون... قتلة الكلاب...

هكذا اهتز الصدى المريع داخل كيان الولد المفجوع. سيطر عليه القلق والأرق، وخاصمته السكينة. وفي ظلمة الليل صارت تأخذه نوبات بكاء حارة، وفي سره كان يتساءل ببراءة الصغار:

- كيف يسعى هؤلاء البشر إلى محاربة مخلوقات بريئة، بلا ورع وبلا خوف من الله؟!

لم يتمكن الولد من الإفصاح والتعبير عن فكرة أن كلاب الشوارع تواجه أزمة لا شك فيها، ولماذا توصف بـ"الضالة"؟!.. كيف يمارس القتل بشكل دوري مفضوح ومتكرر في نهارات المدينة؟! ولماذا بدل إنقاذ تلك الكلاب وإطعامها وتعقيمها.. يتم قتلها وتجري إبادتها بشراسة همجية تحت طائلة القانون؟!

سيهدأ الولد قليلا عندما أخبره زميله، ابن الجيران، عن انتصارات تسجلها الكلاب، وكيف صارت تفلت ببراعة متناهية من صائدي البلدية. يؤكد ابن الجيران أيضا أنه لا يجب أن ننسى أن الكلاب تتمتع بذكاء خارق، وأنه من الصعب الإمساك بها اليوم بسهولة عند تجوالها في الشوارع، وأنها دربت نفسها بفطرية على التمييز بين العربات العادية والعربات المرسلة من البلدية للإيقاع بها، وأصبحت تميز بين الأشخاص العاديين المسالمين وبين القتلة المبعوثين من مصلحة البلدية.

لكن النتيجة آلت لغير صالح الولد مسعود وأمنيته الدفينة، لم يمض وقت طويل حتى تم تنظيف شوارع المدينة من الكلاب الضالة.

3

ينسى الجد سيجارته بين شفتيه، كمسمار صدئ في ثقب جدار رطب، حتى يحس بلهيب نارها يحرقه، حينها يستيقظ مذعورا يصيح. وأول ما يفعله هو البحث في أركان المكان، مفتشا عن صاحبه "أميغو":

- تعالى يا حبيبي.. اقترب يا "أميغو".. أينك؟ ابتعد عن نار المدفأة كي لا تحترق... "لا تمسكوا به، لا تمسكوا به! أتركوه... إنه ليس كلبا ضالا... إنه كلبي المحبوب، كلب ابن بيت وابن عائلة، أفضل منكم يا حيوانات.. كلب لطيف، له أهل وله أصحاب.. تمهلوا يا أوغاد...".

هكذا يتوسل الرجل لعمال البلدية وهم يطاردون "أميغو" ويلقون به في شباكهم... وما أن تنطلق عربة البلدية مسرعة حتى يصحو أهل البيت من نومهم، ويصرخ العجوز في وجوهنا بشتائم نابية مطالبا

باستعادة "أميغو". كان يظننا عمال البلدية المكلفين باصطياد كلاب الشوارع.
ثم يدخل "أميغو" غرفة نوم الحاج، فيسارع إلى احتضانه.
- ليس هناك من ضالين وغارقين في الضلالة غيركم. اغربوا عن وجهي وإلى الجحيم يا قتلة!
***
زادت حيرتنا وخشيتنا على مصير الجد، بعد أن أخبرت العائلة بمضمون مقال طالعته بالصدفة في مجلة فرنسية متخصصة وموجهة لمربي الكلاب، أرسلتها لي من غرونوبل صديقة فرنسية.
تشرح مجلة الكلاب "كيف يمكنك المساهمة في تحسين صحة كلبك. وأن الحياة الصحية لرفيقك لا تقتصر على الزيارة السنوية للطبيب البيطري. بفضل مجلتنا، تعلم كيفية اكتشاف أعراض الأمراض الأكثر شيوعا لدى الكلاب".
على صفحات هذه المجلة سأقرأ أن الكلاب هي أيضا تصاب بآلزهايمر. وأنها لما تتقدم في السن تصبح قلقة ومشوشة ومتباطئة، وتصاب بما يشبه ويعادل داء الخرف لدى البشر. غير أن الأطباء البيطريون يجدون صعوبة في تشخيص أعراض وحالة آلزهايمر الكلبي.
لكننا سنفهم متأخرين أن كلبنا قد كبر في السن، وأن الأصوات المختلطة التي كان يسمعها الجد هي أنين حقيقي صادر عن "أميغو"، الذي لم يعد يستجيب لأي نداء حتى لو أتى من صاحبه الحميم، الجد.
يختم محرر مجلة الكلاب أن الطب البيطري عجز عن إيجاد علاج للكلاب التي يصيبها مرض الزهايمر، تماما كما قال لنا في السابق طبيب الجد، نافيا أي فرصة للعلاج منه.
في غفلة منا خرج ذات يوم "أميغو" ولم يعد، تاه في دروب المدينة الكبيرة.
بحثنا عن "أميغو".. ألصقنا على الجدران صورته في إعلان "بحث عن كلب مفقود"، مع مكافأة مالية مُغرية لمن يعيده إلى أصحابه، وبعد أن تعبنا اقتنينا كلبا يشبهه، وقدمناه إلى الحاج على أساس أنه "أميغو". فطرده الرجل العجوز بمجرد ما أن وقعت عيناه عليه.
- من أخبركم أني أحب الحيوانات الملعونة، وهل كنتم تظنون "أميغو" كلبا من الكلاب؟
"أميغو" لم يمنع مطلقا دخول الملائكة إلى منزلنا، بل كان هو الملاك، وقد سافر ليهيء لنا معا ملاذنا الأخير، حيث سنقضي معا بقية أوقاتنا. إن العيش هنا لم يعد ممكنا...
لم يمض وقت طويل حتى نام الجد نومته الأخيرة ولم يفق بعدها. والجميع اتفق أن موته جاء حزنا وكمدا على غياب رفيقه "أميغو".
حتى لا يتكرر مع أفراد العائلة ما حدث مع الجد و"أميغو"، قررنا النأي عن تربية الكلاب. لكن صورة بحجم كبير جمعت كل أفراد العائلة، وطبعا ضمنهم "أميغو"، جالسا تحت ركبتي الجد، كانت تتوسط صالون البيت.
كلما أحيينا ذكرى الجد الحاج مسعود بن حماد السبيطي، لا بد أن نتذكر رفيقه "أميغو". وإخلاصا لذكراه اشتركت في مجلة فرنسية تحمل اسم: "لكل الكلاب"، أصبحت أتوصل بأعدادها الشهرية بانتظام بواسطة البريد العادي.
أذكر أني راسلت المجلة، وكتبت لهم بأن

يراجعوا لو أمكن شعارهم الترويجي لمجلتهم التي تستهدف مربي الكلاب. كتبت لهم إني وجدت ذاك الشعار غير صحيح، بل ومجانبا للحقيقة، شعار يقول إن "مجلة "لكل الكلاب".. "المجلة التي لا يخلو منها بيت يعيش به كلب".

وبما أني لا أملك كلبا، ولم يعد يعيش في بيتنا كلب، فإنني واحد من قراء "لكل الكلاب" المخلصين، وبيتنا لا يخلو من "لكل الكلاب"، والفضل يعود لـ"أميغو".

لم يتأخر رد رئيس التحرير، الذي طلب مني أن أحكي لهم عمن يكون "أميغو"؟

فكانت هذه القصة التي قرأتم.

تقول والدتي إنه لم يعد لديها شك في أن روح "أميغو" ما زالت ترفرف في المكان". وقد صارت كل ليلة تراه في منامها.

طمأنها فقيه يفسر الأحلام أن رؤية الكلب في المنام ترمز إلى الحماية والأمان والصداقة والوفاء.

أما أنا، فبعد توقف النشر الورقي لمجلة "لكل الكلاب"، توقفت عن متابعة صيغتها الإلكترونية، إلا أن إحساسا خفيا ظل معي، لم أجرؤ على إخبار أحد به، أصبحت أراني "أميغو"، وأنا أتجول في الشارع..

وغالبا ما أفتقد الأمان، أحس برعب وبتوجس خانق، يخيل لي أن كل المارة هم من بوليس الكلاب. فأهرع لاهثا إلى بيتي. أدخل مباشرة إلى الحمام، وأنا تحت "الدوش" أشرع في الغناء، فيرتد لي نباح "أميغو" صدى ناعما، وأسمع ضحكات جدي الحنونة، وبدغدغة خفيفة تسري بكامل جسدي كرغوة صابون.

قراءة استشراقية وتحليلية في كتاب:
"الفوضى واشتغالاتها في أداء الممثل المسرحي العراقي"

عباس لطيف*

يثير مصطلح الفوضى ودلالته في الفكر الحداثي وما بعد الحداثي الكثير من الأسئلة والانتباهات في الآداب والفنون والمعرفة بمختلف اشكالها وحقولها. فهو يحيل الى مفهوم معرفي شامل يجسد فكرة الجدل المفتوح القائم على التناقض والتضاد وصراع الانساق وفق مدلول تعالقي قائم على حقيقة ان أي منطق يحيل الى ضده، وان التضاد والتنوع هو الذي يخلق نوعاً من التناغم والانساق الداخلي ويكشف الخطاب التحليلي لظواهر الطبيعة والوجود والكينونة التاريخية والمعرفية والوجودية والسايكولوجية والسوسيوثقافية عن وجود المسرح الجدلي والديالكتيكي الذي يكشف عن وجود ثنائية النظام والفوضى بوصفها مظهراً من مظاهر التأسيس الماهوي للوجود بمختلف ميادينه وتجلياته.

والفوضى والنظام كثنائية قارة تغرب في عراقة مثولها في الارهاصات الأولى وفي بواكير الميثولوجيا والفلسفة والعلوم والفنون وظواهر الحياة والطبيعة ووفق هذا المعنى فان هذه الثنائية تشكل حجر الزاوية واحدى الميكانزمات او الاستراتيجيات التي من خلالها يتم الكشف والاستدلال على المنطق الجدلي التي تستند اليه حركية الظواهر المختلفة والمنتجة، وبالتالي

للمعنى وجميع انساق الفكر والاستنتاج من خلال خلق الدلالات وقصديتها والكشف عن الحقائق كنتيجة معرفية لصراع القيم المتضادة وقوانين التضاد المنتج وديناميكية الفوضى والنظام قائمة على قوانين الإحالة من الشيء لنقيضه ووفق المنطق الهيغلي في وحدة الاضداد او نفي النفي.

فالتعالق والتنافذ بين الفوضى والنظام هو الذي ينتج الوضع والحالة الثالثة فهو من البداهة لا ينتج البعد الأحادي أي ان الفوضى لا تنتج الفوضى المطلقة كما ان النظام لا ينتج نظاماً مطلقاً. وهذا التداخل هو جوهر الكينونة المنتجة لصراع هذه الثنائية المتأصلة في الطبيعة وقوانينها مثل الثنائيات المتناظرة والموازية لها مثل ثنائية الظلام والنور والموت والحياة والليل

والنهار والخفوت والانبثاق وغيرها من الثنائيات.

وجدت ضرورة موضوعية لهذا الاستهلال كنوع من الاستدلال على قيمة الكتاب الموسوم "تمثلات الفوضى واشتغالاتها في أداء الممثل المسرحي العراقي" للدكتورة الباحثة هندي صلاح عزت وجهدها المعرفي المتميز في تناول هذه الظاهرة وتقديم مقاربة اركيولوجية والكشف عن جذورها وتجلياتها وشراتها الجمالية ودورها في تعميق المعنى الكلي للعروض المسرحية، وهي دراسة تسد فراغاً كبيراً وتمثل سعياً رياديا في تناولها وذلك لأهمية هذا التمثل لها وانعكاساتها على دور الممثل في تعزيز مدلولات وانساق العرض المسرحي، وان كانت ثنائية الفوضى والنظام كما اسلفنا متجذرة في تاريخ الفكر والعلوم والفلسفة ولكن مفهوم الفوضى اخذا طابعاً اكثر عمقاً ودلالة وتوظيفاً في كشوفات ومنجزات ومقاربات فكر الحداثة وما بعد الحداثة وقد اثبتت التجارب الفنية والمسرحية تحديداً قيمة واهمية وثراء التوظيف لظاهرة الفوضى في تجسيد مدلولات وقصديات الأثر المسرحي واضفاء الطابع الجمالي والذهني على مرتكزاته ما يخلق استراتيجية استقطابية على مستوى الإنتاج والارسال والتلقي معاً.

ويحسب للباحثة المجتهدة في التقاط هذه الموضوعة كونها موضوعة منتجة ومهمة في الكشف عن المسكوت عنه والمضمر وتحقيق نوع من التجسيد والتمثل لمأزومية الواقع الإنساني المعاصر الذي يتسم بعدة تناقضات والصراعات والتجاذبات الراديكالية على مستوى الفكر والسياسة والمجتمع والنسق السوسيولوجي والوجودي والتاريخي والسيكولوجي، مما يستدعي وفق منطق الرصد والاستقصاء توافر دراسة علمية تحليلية شاملة وموضوعية لهذه الظاهرة وقد كشفت جهود الباحثة العلمية الرصينة عن هذا المعنى من خلال اعتمادها على منهجية علمية اكاديمية في دراسة مورفولوجيا هذا التوجه والبحث في جذور الظاهرة واستقصاء تجلياتها في الوسائط والميادين المختلفة في الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس والفكر الجمالي.

لا سيما وانها طبقت مظاهر وتجليات وتمثلات قانون الفوضى على مفصل شديد التأثير في الخلق والتعبير وتكوين الخطاب المسرحي فهو ميدان التمثيل والأداء الجدي والصوتي الممثل بوصفه العلامة المركزية المنتجة لكل تنويعات ودلالات العرض المسرحي.

وتشير الباحثة الى ضرورة الاهتمام بهذه الظاهرة وانعكاساتها واصبح من التوجهات الحتمية لدراستها بعمق علمي وموضوعي تتطلبه طبيعة العروض المعاصرة وارتباطها بالفكر والكشوفات المعرفية والجمالية.

(وبذلك صار لزاماً على المسرح ان يفسر تناقضاته هذه بأساليب وصيغ جديدة ومبتكرة في الماضي والحاضر والمستقبل، لأن الحياة في حالة نظام وفوضى مستمرة لا تنتهي طالما كان الانسان متعطشاً للمعرفة التي بدورها تعمل على الاستمرارية والتجدد وهذا يحيل الى هدم وبناء والمسرح مختبر للتجديد والتجريب والتطور للانساق والعناصر الفنية والأساليب المختلفة".

وتصبح ظاهرة الفوضى والنظام المعادل

الموضوعي لثنائية التراجيديا والكوميديا، والواقعي والخيالي والمنطقي وغير المنطقي، بل نجد مذاهب وتيارات مسرحية توظف مفهوم الفوضى لتعميق المعنى الكلي للعرض مثل مسرح اللامعقول والمسرح الذي يوظف النسق الغرائبي والميثولوجي او المسرح الواقعي النقدي الذي يسلط الضوء على تناقضات الواقع.

ومما يضفي على الكتاب هالة من السطوع المعرفي والأكاديمي الجينالوجي لهذه الظاهرة وتاريخيتها وتمثلاتها في الميادين والحقول الأخرى. فتقدم دراسة وافية لمفهوم الفوضى والنظام في الخطاب الفلسفي وتبدأ بتتبع هذا المفهوم في تاريخ الوعي البشري منذ الميثولوجيات القديمة وحتى كشوفات الفكر الفلسفي المعاصر. تدرس معالم الدلالات لهذا المفهوم في فلسفة افلاطون وارسطو وغيرهم من رواد الفكر الفلسفي.

كما تتطرق بشكل عميق الى فلسفة هيجل اساساً على منطق التناقض والتضاد وصراع الاضداد، وتكشف عن فلسفة نيتشه التي تعبر عن ان الفوضى هي احياء للروح والفكر وتتناول فلسفة هنري بيرجسون والتركيز على قانون التوازن بين المتناقضات وصولاً الى فهم فلسفي كلي، كما تبين علاقة هذا المفهوم بالفكر الفلسفي لميشيل فوكو ودورها في إيجاد نوع من السلطة والرصد والمراقبة منعاً للفوضى الهدامة المطلقة وتكشف عن أهمية ودلالة الفوضى في الفكر الفلسفي عموماً (كونها منظومة تفكيك وبناء في الوقت نفسه يقابلها النظام كمنظومة بناء وتفكيك، هذا الترابط هو الذي أسس لمحور بنائي متكامل).

وتناول في الفصل الثاني من الكتاب:

السلوك الفوضوي في الخطاب النفسي والاجتماعي بوصفه ظاهرة مهينة وقارّة، فظاهرة الفوضى ترتبط بداهة بالتكوين السوسيولوجي والسايكولوجي بشكل جلي ومؤثر كما تؤشر وجود الفوضى في المنحى الطقوسي والانظمة الاجتماعية والقوانين والتضاديد والمظاهر وتتناول الأنماط الفوضوية في الواقع والفكر الاجتماعي تاريخياً.

وتكشف عن العلاقة بين هذا المفهوم وظاهرة او قانون (الهابيتوس) لبورديو، والذي يقصد به العادات والقيم المكتسبة التي يمتلكها الفرد داخل المجتمع منذ التنشئة والتي تكون بمثابة الاستعدادات الفكرية والجسدية للفرد من اجل التغيير بحسب البيئة والثقافة، ان كان يمتلك (الهابيتوس) وهو استعداد الفرد للتحول الامر الذي يجعل منه فاعلاً اجتماعياً).

وتتطرق الى النظام والفوضى في العصور

الوسطى وتناقضات الواقع السياسي والقانوني والوجودي مما يضفي نظرة موضوعية لوجود كل اشكال لصراع الطبقي والسياسي والقيمي. كما تدرس وجود هذه الظاهرة وتمظهراتها في فكر فرويد ويونغ وغيرهما من رموز التحليل السيكولوجي.

وتقدم في الفصل الثالث دراسة مستفيضة جمالياً وفكرياً تكشف فيها عن علامات الفوضى والنظام في أداء الممثل المسرحي وتستهل الفصل بمقدمة ثرية لدراسة هذه الظاهرة اجتماعياً وتاريخياً وفنياً وتدرس ظاهرة الرقص والطقوس والموسيقى ودورها في خلق النسق الجمالي ودور فكرة المقدس والمدنس بوصفها ظاهرة للكشف عن صراع الثنائيات لتكوين وتعزيز الرؤية الفلسفية للعرض المسرحي، وتؤكد على ان (فن الممثل بحد ذاته نظاماً تمت بلورته منذ بدايات المسرح ويسير بخطى متعرجة فهو يولد من فوضى ليدخل في نظام أدائي يرسم له بحسب مقتضيات الزمان والمكان والوعي المجتمعي.

ومن ثم يدخل في فوضى أخرى يراد منها توضيح مدى تأثر أداء الممثل بصيغ الحياة المختلفة وبتغير المزاج الاجتماعي وتغير السلطة الدينية والمدنية وليكون التأثير واقعاً على الممثل داخل نظامه، الامر الذي يؤدي الى اختراق النظام الى الفوضى، وفن الممثل هو نظام داخل فوضى مجتمعية في تناوب مستمر للتطورات المعرفية لنظام الممثل والمجتمع.

ويعيد وجود الفوضى والنظام في النسق الجمالي والفكري للعرض المسرحي ضرورة في خلق التنوع وكسر إيقاع التواتر التعبيري والتخلص من البعد الأحادي الذي يثير الرتابة والانغلاق على فكرة مكررة: (ان الخروج عن الأنظمة التقليدية يحيل الى التنوع في الشخصيات وفي الموضوعات المدمجة من خلال المزج بين المتضادات (المأساة والملهاة) لأن جوهر العملية هو تغيير الإيقاع في الشكل والمحتوى، لاستنفاد النظام قدرته على التواصل مع معطيات الحياة الجديدة بفعل الملل فضلا عن عدم قدرة أي نظام على الاكتمال، كون الانسان لا يعيش على نظام واحد لأن إيقاع الحياة متلون ومتغير).

وبهذا تكشف الباحثة ان العرض المسرحي وطبيعة الأداء التجسيدي للممثل ينبغي ان ترتكز على التنوع والتضاد والتناقض بغية كسر الإيقاع المتواتر والابتعاد عن الرؤية النمطية وعدم هيمنة الملل والرتابة والسكونية لوجود البعد الواحد للعرض.

ولا يمكن تقديم دال ومدلول ومنظومة فكرية في عرض لا يقوم على ثنائية الفوضى والنظام والمنطقي واللا منطقي والحقيقي والمزاجي، فهذه التناقضات هي التي تتحول لفضاء يعمق مفهوم الصراع ويعمق الرؤية الكلية للعرض على المستوى الجمالي والفكري ويخلق معالم المتعة بكل اشكالها.

تسلط الباحثة الضوء على تجارب المخرجين والمفكرين المسرحيين ودور الفوضى في تقديم نتاج مسرحي دال وعميق مثل تجارب ستانسلافسكي ورابنهارت وتمثلات الفوضى ودلالات في المسرح الطبيعي والواقعي وأسلوب مايرخولد في الخروج عن النظام وكسر القواعد. كما تدرس بدقة الفوضى والنظام في المسرح التعبيري وفي الرمزية والدادائية والليبرالية

ومسرح اللامعقول بالإضافة الى دراسة هذا المفهوم في الكرنفالات الشعبية ومظاهرة الجلبة والدالة في المسرح الحديث ومعالم هذه الثنائية في مسرح القوة لانطوان ارتو وارتكازه على توظيف الطقوس والأداءات الجسدية. كما قدم مقاربة وافية لظاهرة الفوضى والنظام في المسرح الملحمي وتجارب بريخت وتوظيفه لقوانين التناقض لتقديم رؤية فكرية للكشف عن تناقضات الانسان والمجتمع والتاريخ.

وبعد هذه المعطيات والإفاضة العميقة والشاملة تقدم في القسم الثاني من الكتاب عينات ونماذج من العروض المسرحية التي تنضوي على ثنائية الفوضى والنظام وتوظيف هذا المفهوم في تقديم رؤية مسرحية تهم في تعميق وتجسيد المعنى الكلي او الفلسفة او المنظور المتعدد الذي يرتكز عليه العرض المسرحي وتقدم الحقيقة من خلال صراع الأضداد وتوظيف التناقض.

ومن هذه العروض تمت دراسة العروض الآتية: دائرة العشق البغدادي إخراج عواطف نعيم وبروفة في جهنم اخراج هادي المهدي. وأحلام كارتون اخراج كاظم النصار، وعرض اهريمان اخراج على دعيم وهو عرض يرتكز على جذر ميثولوجي وكذلك عرض بوابة رقم 7 اخراج سنان العزاوي. وقدمت الباحثة تحليل ودراسة انساق العروض، وتحليل متنها الحكائي ودلالاتها الجمالية والفكرية، واستخلاص النتائج والمدلولات ومنظومة القيم الجمالية والفكرية والبؤر المنتجة في كل عرض مسرحي في هذه العروض.

ووفق هذه المعطيات فان هذا الكتاب بعمقه وخصائصه واشتغالاته وجدة الثيمة والمعنى وأساليب التحليل وتطبيق المنهج التحليلي والتوصيفي وتقديم بانوراما جمالية وفلسفية لدراسة انساق ظاهرة الفوضى والنظام.

ومن الملاحظات التي لا تقلل من قيمة وجمالية ومنهجية الكتاب ما يتعلق بالعنوان، فكان الأفضل من حيث السياق والدلالة ان يكون (في العراق) بدل (الممثل العراقي) للإحالة الى المكان وليس للصفة. وكان من الاجدى والضروري تناول مفهوم الفوضى والنظام في فن الغروتك بوصفه الأقرب الى هذه الظاهرة بسبب ارتكازه على مفهوم التقويض والبناء.

وكذلك دراسة هذا المفهوم في المسرح الغرائبي او عروض الفانتازيا وتناول تأثيرات وتمظهرات الفوضى والنظام في اشكال وتوجهات الكوميديا بكل انماطها والمسرح الاحتفالي والفرجة.

هذا الكتاب بخصائصه ومعطياته علامة فارقة وتجربة وجهد يستحق الاحتفاء والاشادة.

* تمثلات الفوضى واشتغالاتها في أداء الممثل العراقي، د. هنادي صلاح عزت، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد- 2024.

* ما بين القوسين مأخوذ من متن الكتاب.

*** عباس لطيف: روائي وكاتب وناقد مسرحي**

خمسون عاماً من الرحيل بين المنافي: كيف نقرأ كاظم السماوي مفكراً وإنساناً

أوس حسن*

لا يمكن ان نعد الشاعر والمناضل الأممي العراقي كاظم السماوي ضمن السلسلة التاريخية في المشهد الثقافي والسياسي العراقي، فهو وإن كان ينتمي إلى العراق بيئة وتاريخا ومكاناً، لكنه يبقى ظاهرة متعالية على الحدث وسرديته الثقافية والسياسية في المشهد العراقي، ظاهرة تستوجب دراستها وتسليط الضوء عليها من ناحية الفكر أولاً، والوعي المبكر الذي نشأ عند الشاعر، والذي جعله ينطلق من المحلية إلى العالمية والكونية، من دون أن تفقد طروحاته الفكرية وقصائده الخصائص والمقومات التاريخية والاجتماعية.

كان الهم الإنساني هو المحرك الوحيد والأوحد في أفكار السماوي وقصائده ومقالاته، فهو وإن شاهد بأم عينيه معاناة شعبه في العهد الملكي من اضطهاد وفقر وبؤس اجتماعي وهيمنة إقطاعية، إلا أن وعيه بدأ يأخذه في تطواف روحي ورحيل حول العالم، تطواف بدأ بقراءاته المعمقة واطلاعه الموسوعي الشامل ومن ثم هجرته بين مشارق الأرض ومغاربها والتي امتدت لخمسين عاماً، ليرى مأساة الإنسان والشعوب المقهورة التي ترزح تحت وطأة الاستعمار والإمبريالية، فالفكر الإمبريالي والاستعماري هو نمط كامن في الحضارة الغربية تغذيه بعض النظريات العرقية والأفكار الداروينية المشوهة.

لقب كاظم السماوي بـ" شيخ المنفيين" والمنفى، فالمنفى لا يعني بالضرورة الاغتراب المكاني والجسدي، بل يرتبط بالاغتراب الروحي والنفسي، والسماوي كان منفي الفكر في وطنه، وغريب الروح قبل كل شيء، فالعراق على حد تعبيره وعلى امتداد عصوره المظلمة وسلاطينه الطغاة كان مقبرة للمفكرين والعلماء والمبدعين، فمن لم يمت قتلاً أو سجناً أو تشريداً مات هماً وكمداً.

عاش السماوي في مرحلة زمنية تجسد فيها الفكر الماركسي، واقعاً فعلياً وعملياً في العمل الثوري، والسياسي، وفي الاقتصاد والفن، إنها حقاً المرحلة التي بدأت فيها الفلسفة تمشي على قدميها وتتنقل بين الناس. لقد بدأ هذا التجسيد للواقع الصلب من ثورة 17 اكتوبر التي قادها لينين ضد روسيا

القيصيرية وأعلن قيام الاتحاد السوفياتي على الأسس والقواعد الإشتراكية التي تبناها ماركس لقيام الدول وصولاً إلى اليوتوبيا الشيوعية في نهاية المطاف.

لقد كان الحلم الشيوعي حلماً ثورياً رومانسياً اجتاح دول أوروبا الشرقية وأسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، حلم راود الكثير من الأدباء والفنانين والفلاسفة والسياسيين في تلك الفترة.

بعد قراءات معمقة وتأملات في الواقع العراقي الهش والمريض والقابع تحت أغلال العبودية، وقد وجد السماوي الحل في الفكر الاشتراكي العلمي، بل وجده أيضاً خلاصاً للمأزق الإنساني في عالم يسير نحو الهاوية وينحدر فيه الإنسان إلى أدنى المراتب.

أخذ السماوي على عاتقه مهمة كبيرة، وهي الشروع بتأسيس منظومة اشتراكية فكرية منسجمة مع إيقاع المجتمع العراقي والعربي، وتحمل سماته وخصائصه التاريخية، لذا بدأ بالتفكر من أعماق تاريخه وتراثه العربي، توغل فيه حفراً وتنقيباً، هدماً وبناء، ليصل إلى صيغة ثورية شاملة تحمل إبداعا مفهوميا جديداً، ومنطلقات إنسانية تدمج الماضي بالحاضر ضمن رؤية أممية لا تنفصل عن الحداثة وعن الاشتراكية العلمية.

يقول السماوي في مذكراته: "التاريخ هو الإنسان، فهو خالقه ومبدعه منذ كان للتاريخ فجره، ومنذ مسيرته الأولى".

وعليه فإن المتأمل العميق لأشعار السماوي سيرى أن قصائده حافلة بالرموز الثورية والتي تتجلى بأحداث تاريخية وبأسماء شخصيات انتفضت ضد الظلم والسلطة الحاكمة من أجل رغيف الخبز أو من أجل العدالة والمساوة. وهذا يعطينا لمحة عن الصراع الطبقي في التاريخ العربي، وعن الواقع الاقتصادي الذي يفسر الواقع السياسي؛ فنرى أسماء وأحداثا: مثل عروة بن الورد.. وأبو ذر الغفاري وعلي بن أبي طالب والإمام موسى الكاظم وثورة الزنج ودولة القرامطة، وفي الوقت نفسه لم تخلُ قصائده من الرموز الثورية العالمية المعاصرة مثل: تشي غيفارا، فيديل كاسترو، نهرو، غاندي، حسن السريع، خالد أحمد زكي، ماجد أبو شرار.

وقصائد السماوي تخلو من عادة المدح المبتلى بها في الشعر العربي، لكنها ترثي الأبطال الذين ظلوا صامدين ومتمسكين بمبادئهم ومواقفهم حتى لحظاتهم الأخيرة في الحياة. والرثاء هنا ليس حالة ضعف واستسلام، بل عاصفة هادرة تؤكد على حرية الإنسان وعلى قوة الإرادة لديه، على الرغم من الظروف القاهرة وحتمية الأقدار. على امتداد التاريخ وصفحاته الملطخة بالدم.

كان السماوي نصيراً للشعوب المضطهدة والمظلومة، فمنطق الحق ليس منطق القوة كما يعتقد البعض؛ لأن القوة مجرد صفة بيولوجية أو مكتسبة وهبتها الطبيعة أو الظروف المحيطة للقوي، لذا يجب أن تكون القوة مبعثاً للعدالة وللحقوق التشاركية بين البشر، وليس مبعثاً للطغيان وسفك الدماء، فالبطش والطغيان يأتيان من الضعف والنقص لا من القوة؛ لأن القوة الحقيقة لا يعتريها النقص أو الانحراف، وهي وحدها القادرة على تحقيق المساواة بين البشر الذين تجمعهم الأخوة ووحدة المصير الإنساني. والحلم الثوري الشيوعي يتوهج في أعماق السماوي كقوة لا يعتريها النقص ولا الانحلال، ولا تكون إلا بيد فرسان قادرين على تحقيق السلام بعد الثورة في عالم ما زال يطفو على بحار من الجثث

والدماء. يقول السماوي في مذكراته: "طغاة الأمس يتناسلون اليوم، وما زال الدم المسفوك يغطي أديم الأرض، ومواكب الإنسانية تحمل صلبانها وتشق طريقها الطويل.. الطويل، وتتناهى أصداؤها من الأعماق السحيقة، من أعماق القتيل في هيروشيما، وناغازاكي، وحلبجة، والأنفال، وقصب الأهوار، وقصر النهاية، وغابات فيتنام، والأدغال الإفريقية، ولم تزل الأرض تغسل أدرانها.

السماوي والبساطة الساحرة:

جمعت السماوي صداقات وعلاقات وطيدة مع قادة سياسيين وثوار مناضلين ومع فنانين وأدباء من جميع أنجاء العالم مثل : عبد الكريم قاسم ـ قائد ثورة 14 تموز، وكامل الجادرجي ـ وزير الاقتصاد والمواصلات في العهد الملكي، وسلام عادل ـ سكرتير الحزب الشيوعي العراقي، وغيرهم من الشخصيات. وعالميا: ماوتسي تونغ ـ الثوري الشيوعي ومؤسس جمهورية الصين الشعبية، والشاعر الصيني كوموجو، والشاعر التركي ناظم حكمت، والكاتب السوفياتي إيليا إهرنبورغ، وأنور خوجة ـ زعيم ألبانيا الشيوعي بعد الحرب العالمية الثانية، وريموندیا ـ بطلة الكفاح المسلح الفرنسية ضد طغاة بلادها الفاشيين، واتو غروتوفول ـ رئيس الوزراء الألماني الديمقراطي، فضلاً عن ذلك فقد مثل السماوي العراق في ثلاثة مؤتمرات للسلم في بكين وبودابست وفينا.

كان السماوي ينفر من بعض النخب السياسية والثقافية والمؤتمرات؛ فقد كان الأقرب إلى الناس في الشارع إلى واقعهم اليومي، إلى آلامهم وهمومهم، إلى بساطتهم ومعاناتهم الدائمة. فقد كان يحب المشي والتجوال لعدة ساعات، يرتاد فيها المقاهي والأسواق الشعبية، والأزقة، يتفرس وجوه الناس يغوص في أعماقهم وقهرهم المكبوت. كان يريد لأفكاره ولمعرفته النظرية أن تكون مقرونة بالتجربة والعمل، وعلى تماس دائم مع الإنسان ومشاكله الاجتماعية. وقد ذكر السماوي أن الكثير من معرفته جاء من السفر والتجربة، ومشاهدة الواقع العيني والملموس للبلاد التي يهاجر إليها، فقد كانت عينه الفاحصة تتوغل في عمق المجتمعات كناقد اجتماعي فذ، وكان وعيه يستنبط الأفكار ويحللها كمفكر حصيف، خبر دهاليز الفلسفة وأوكارها.

لقد عشق السماوي الفطرة الثورية البسيطة لدى الفلاحين والفقراء والكادحين، وكان يفضلها على ثورية النخب البرجوازية والمثقفة التي لم تخرج عن نطاق اللغو المفرط والثرثرة في المقاهي.

وفي هذا الصدد يقول السماوي عن أهل مدينته السماوة عندما استقبلوه بعد ثورة 14 تموز عام 1959:" لقد ظللت رجلاً أمام هذه الجماهير الوفية، وأنا الذي نشأت بينهم، فهم الأصدق الأعمق مما تقوله الكتب المركونة على الرفوف".

الإنسان والواقعية الرومانسية:

يعد السماوي قارئاً نهماً ومثقفاً موسوعياً، وقد قرأ الكثير من التراث العالمي بعدة لغات كالمجرية والألمانية والإنجليزية، الى جانب قراءاته الأساسية الأولى في التراث والأدب العربي والتاريخ، هذا الأساس الذي أكسبه ثراء المفردات اللغوية، وجزالة اللفظ، وفرادة الأسلوب في النثر والشعر والمقال. كما أن قصائده ترجمت على يد شعراء وكتاب

عالميين إلى المجرية والروسية والصينية، ومن ضمنها ديوانه الساري الذي صدر باللغة المجرية شعراً، وملحمة الحرب والسلم التي صدرت باللغة الروسية وترجمها الشاعر الروسي فلاديميرلوكوفسكي، وكذلك كتاب "الفجر الأحمر فوق هنغاريا" الذي ترجم إلى اللغة المجرية، والذي تضمن معايشة الشاعر ليوميات الحرب الهنغارية وتفاصيلها.

يرى السماوي أن الإنسان على تماس دائم مع واقعه ومع مشكلاته الاجتماعية والاقتصادية، فمعاناة الإنسان وهمومه وأسئلته الوجودية ليست عبارة عن أفكار وعن تجريد يبحث عوالم ميتافيزيقية لامرئية، بل ترتبط المعاناة ارتباطاً وثيقاً بالحركة والفعل، وبالزمان والمكان في العالم. ومن هنا يعد السماوي .. الفن المغرق بالذاتية والأنانية والمغلف بالمشاعر الجوانية وضبابية الكلمات هو فن مأزوم ومريض وغير قادر على المواجهة. والفنان الذي لا يستشعر الآخر في أعماقه ويتوحد مع آلامه يبقى فنه ناقصاً ومحصوراً بالتهويمات والضلالات اللغوية والشكلية. إلا أن الواقعية لا تعني التصوير الفوتوغرافي المباشر للواقع، بل لا بد للوضوح أن يعتريه شيء من الغموض، ولا بد لسحر المخيلة أن يخلق واقعاً موازياً للواقع الأصلي، لا يشبهه تماماً، لكن في الوقت نفسه لا يستطيع الانفصال أو التجرد من الأصل.

كان السماوي يعد الحرية سابقة على الحب، وعلى الترف الفكري والفلسفي في الفن والشعر، لذلك ظل السماوي ملتزماً بالقضية الإنسانية من ناحية ارتباطها بالواقع الاجتماعي والسياسي، فهو لم يكتب الشعر من أجل الشعر، ولم يهتم بالتجديد الشكلي والأسلوبي ولا بالمفارقة والدهشة أو بولوج مناطق أخرى لهذا الفن، بقدر اهتمامه بالمضمون والفكرة، وعليه ظل الشعر عنده مقيداً بالإنسان وقضاياه المصيرية المعاشة على أرض الوقع والحدث. إلا إن قصائده مليئة باللمسات الجمالية والفنية وبالأسلوب الصوري المبهر، وثراء الجملة وبلاغتها. وقصائده بحد ذاتها مدرسة متفردة بعالمها الإنساني والثوري.

وعندما التقى السماوي ناظم حكمت في مؤتمر السلم العالمي في بكين عام 1954 وأثناء تجوالهما فوق جدار الصين وجده يتطلع الى الجبال البعيدة المتشحة بضبابية شفافة، عندها قال حكمت للسماوي:.. أترى تلك الحبال كم هي رائعة ..! ساحرة من بعيد، فكلما ابتعدت بك أخذتك إلى آفاق لم تكتشف بعد، لا تقترب.. فهي الأروع والأجمل طالما ظلت بعيدة".

في مذكرات كاظم السماوي التي كان عنوانها "خمسون عاماً من الرحيل بين المنافي"، تتجلى مقدرته الإبداعية الفذة في الوصف والسرد الدقيق للأحداث، إلى جانب عمقه المعرفي وشعريته الساحرة والمؤثرة.

في النثر والسرد يقترب السماوي أكثر من العوالم الداخلية للإنسان؛ فهو يقول في أحد مذكراته التي تصف شعوره الممزوج بحزن شفيف أثناء ترحاله وتنقله بين منافي الأرض: "كان التطواف قدري بين قاعات الفاتيكان وباحات الحجر الأسود، بين رحاب الجامع الأموي وأجراس كنيسة نوتردام، بين الأديرة البوذية الصفراء ومآذن الجامع الأزهر، ومعابد السيخ الهندية، وما زال البخور الإلهي يطرد شياطينها، والمحبوب يذوب ويتلاشى في الحبيب.

فوق جدار الصين تراءت أمام عيني الصحراء

المنغولية، وتناهت حمحمات خيولهم القصيرة القوائم الراكضة شرقاً وغرباً.
بين ردهات الرايشتاغ وقاعات الكرملين يقف التاريخ في شقيه المتوهج والمظلم، وقفت أتملى الوهج والانطفاء فوق شرفة ماري انطوانيت في قصر فرساي في باريس تناهت إليَّ صرخات الجياع. وكان الخبز يومذاك ملح السياسة. خبز الأبجدية الثورية الأولى، وحجر الفلسفة.
بين أطلال بابل وتهجد الأهرامات في الصحراء، وقفت أتملى الصمت في الزمن العتيق.
خمسون عاماً من الرحيل بين المنافي عبر المدن والغابات الخضراء والصحراء الرملية المجدبة.
خمسون عاماً وما كان لي وطن، وطن مستقر أؤوب إليه، لا أدري كم فندقاً ضمتني جدرانه الموحشة، وكم شارعاً سارني أو سرته في مدن الغرب والشرق.
خمسون عاماً ورفيقاي حقيبتي وجواز سفري. وما زالا الرفيقين في وشالة العمر. وفي كل منفى كان لي جواز سفر، لكل الأسماء انتميت إلا اسمي هو الآخر كان منفيا. اغتربنا معاً.. تشردنا معاً تحت كل سماء، وفي كل منحن من جنبات الأرض.
من فجوات السنين العارية، من فجيعة الأحلام وخيبة الآمال. من التشرد والسجون والزنازين وليالي المنافي وحنايا المقاهي، وحمامات الدم والخيانات.
ها أنت تقتلع قدميك اقتلاعاً، فلا تشدك الأرض، ولكنك وقامتك الشاهقة تشق الأعاصير ولا تنحني".

***اوس حسن/ شاعر وكاتب يعنى بالفلسفة والعلوم – يقيم في السليمانية**

هذا طراز جديد من القصة القصيرة جدا، التي انتشرت كتابتها، نقدمها بوصفها أنموذجا من القصص الموجزة والموحية والمختلفة عن كل ما هو متداول

محرر أدب وفن

قصصٌ قصيرةٌ جداً

تأليف: لورون برتيوم
ترجمة وتقديم: سيدي محمد بن مالك/ الجزائر*

تقديم:

يُعَدُّ لورون برتيوم عضوًا بارزًا في جماعة (Les oxymorons) الكَنَديَّة التي أوْقَفَت جهدها، أو كادت، على كتابة القصّة القصيرة جدًّا؛ فقد أنْجَز، بمعيَّة أعضائها، مُصنَّفًا مُشترَكًا في هذا النّوع السّردي، بعنوان "مائة وإحدى عشرة ميكروقصّة". كما عُرِف بإشْرافه على ورشات للكتابة عامّةً، وكتابة القصّة القصيرة جدًّا على نحوٍ أخصّ، فضلًا عن اضطلاعه بمهمّة التّحرير في بعض أعداد مجلة "Brèves littéraires"، بوصفه مُتخصِّصًا في هذا الضّرب من الإبداع السّردي. ولأنّ الكاتبَ باحثٌ في علم الأحياء الدّقيقة (La microbiologie)، فقد أبدى ولَعه الشّديد بالنّصوص الموجَزة؛ إذ عَمد إلى ابتكار مصطلح الميكروقصّة (La micronouvelle)، وبرَع في تأليف نصوص قصصيَّة في هذا الشّكل، ثمّ تحوَّل، بتأثيرٍ من العلم الذي كان يُمارِسه، إلى كتابة شكلٍ

آخر من القصّة أكثر قِصَرًا من الميكروقصّة نفسها، أسماه النانوقصّة (La nanonouvelle)، حيث نشر بعضًا من القصص الشّديدة الإيجاز في مجلة "Brèves littéraires". وقد انتقيْنا منها مجموعةً تتكوَّن من أحد عشر نصًّا، تحمل عنوانًا واحدًا، هو "Elle" (هِيَ)، تمّ نشرُها، على التّوالي، في الأعداد (83، عام 2011) و(84، عام

2012) و(86، عام 2013)، ومجموعةً أخرى تضمّ ثلاثة نصوص تحمل عناوين مختلفة، نُشِر النّص الأوّل منها والموسوم "Hubert" (هيوبرت) في العدد (81، عام 2010)، بينما نُشِر النّصان الآخران الموسومان "Rémi" (ريمي) و"Météo" (حالةُ طقْسٍ) في العدد (82، عام 2011).

النصوص:

هِيَ:

1 – كانت تحوم حول الكلمة... لا تعرف كيف تكتبها.

2 – غالبًا ما كانت تكتب بأوجاع القلب.

3 – كانت تمشي ببُطْء. ببُطْء شديد. ببُطْء شديد للغاية... لن تصِل أبدًا.

4 – كانت تسبح عكس تيّار النّهر. مُتْعَبَةً جدًّا. نامت في سريرها.

5 – طالما كانت تُخطِّط لكلّ شيء مُسبقًا. في اليوم الذي ضُبِطَتْ فيه وهي تأكل جذور الهِنْدِباء، لم تُطرَح عليها أيّ أسئلة.

6 – شاعِرةٌ في أوقات فراغها، كانت تَحِيكُ أبياتًا لتُحافِظ على روحها دافِئَةً.

7 – أُصيبَت بمرض لا شِفاء منه، لم تتقدَّم في السنّ. ماتت في ريْعان شبابها.

8 – كانت تذهب، كلّ صباحٍ، إلى المقبَرة. ذات يوم، لم تعُدْ.

9 – لكيْ تُقدِّم حكايةٍ قصيرةٍ، رحلت دون أن تنبِس بكلمة.

10 – في نهاية رحلتها، ألْقَت الحِبْرَ، لكنّها احتفَظَت بريشتها للرّحلة الأخيرة.

11 – كاتِبةٌ عظيمةٌ، كانت كثيرًا ما تتطلَّع برأسها إلى السّماء... ولكنّ رجلَيْها، دائمًا، على الأرض.

هيوبرت:

لقضاء الوقت، كان يمضي أيّامه مُتجوِّلًا في الرّيف، بندقيَّته مشدودة إلى حزام كتفه. كان يعود، دائمًا، خاليَ الوِفاض.

ريمي:

في أواخر الثّمانينيات من عمره، اشترى موسيقارُنا لنفسِه أورغنًا إلكترونيًا. في المشروع: تأليف قدّاس لجنازته. تبيَّن أنّ العمل شاقّ... فأخذ وقته.

حالةُ طقْس:

كانت تُمْطِر بغزارةٍ. مُمزَّقةً تمامًا، لم تعُدْ مظلّته تنفعُه.

• **أستاذ النّقد المُعاصر بالمركز الجامعي مغنيَّة (الجزائر)**

الذات ومعضلة التعبير

أ.د أحمد يحيى علي

خلق الإنسان به قدرة على البيان، والبيان في اللغة يعني الكشف والإظهار والإيضاح، ولا شك في أن هذه القدرة الممنوحة تأخذنا إلى حزمة من الثنائيات التي تتقارب فيما بينها من حيث الدلالة (المجرد والمادي) أو (الكامن والظاهر) أو (المخبوء والمرئي)؛ ففي داخل هذا الإنسان بحكم صلته الحتمية بعالمه وما يحصل فيه تتكون مشاعر وأفكار لا مجال لإدراكها من قبل غيره إلا بهذه العملية؛ أي التعبير، وإذا توقفنا أمام الجذر اللغوي لكلمة (تعبير) ؛ ألا وهو المادة: عَبَرَ نجده يقف بنا من بين ما يقف أمام حالة رحلية تقوم على الحركة والانتقال، هنا تتبدى بجلاء ملامح هذه القدرة ؛ ألا وهي البيان؛ فإحالة المجرد الشعوري والذهني الذي يسكن قلب هذا الإنسان وعقله إلى ملموس بالجوارح يعني انتقالاً وتحولاً من حالة إلى حالة، هذا الانتقال يسترعي تأملاً استقرائيا واعيًا للهيئة التي يبدو بها هذا الملموس في فضاء الاستقبال؛ لذا نجدنا أمام صنفين أثيرين:

- تعبير باللغة
- تعبير بغير اللغة

وفي التعبير باللغة تصادفنا أنماط تنجزها يد الإنسان التي تختلف من حيث التوجه الفكري من جهة، ومن حيث الحال بالنظر إلى ثنائية (الحقيقة والمجاز) من جهة ثانية، أما عن التوجه الفكري فإنها مسألة تتصل بحقول المعرفة الإنسانية المختلفة، من فلسفة وتاريخ وعلم اجتماع وعلم نفس وغير ذلك، وأما مسألة الحال على مقياس طرفي ثنائية (الحقيقة والمجاز) فإن التعبير الإنساني ينفصل موزعًا إلى قسمين صارمين يعتمدان في النظر إليهما على الوقوف أمام الفن بكل ما تحمله هذه اللفظة من معانٍ قُتلت بحثًا، ويكون الخارج عن محتواها الدلالي آخذًا مكانه على الطرف المقابل منها.

والوقوف عند اللغة؛ بوصفها وعاءً حاملا لفكر الإنسان ولشعوره مجسدًا له واصلاً به بين الإنسان وعالمه ومن يشاركونه صفة الإنسانية فيه يدفع باتجاه محاولة استقراء هذه العملية الملازمة لها؛ ألا وهي (التأليف)؛ إن التأليف لفظة تنطوي في معناه على الجمع والربط بين الأجزاء

المتفرقة، هذا الربط من شأنه المقاربة من جهة بين عناصر كانت متباعدة في الأصل، ومن جهة ثانية إنشاء موجود لم يكن قائمًا قبل النهوض بتلك العملية؛ نحن إذًا بصدد إجراء يتأسس في حضوره على:

- جمع وتقريب
- وإنشاء لجديد

إن التعبير الإنساني (تأليف) وهذه الكلمة تأخذنا بالدرجة الأولى إلى الشق اللغوي في التعبير، وقد تحدث عالم اللغة السويسري فردينان دي سوسير في كتابه (محاضرات في علم اللغة العام) بمفاهيم ضبطها في شكل ثنائيات نُسبت إليه بوصفه رائدًا لها عن عملية التأليف وما تنطوي عليه من جمع وإنشاء ومن خلال هذه الثنائية (محور العلاقات الاستبدالية ومحور العلاقات السياقية).

إن الطرف الأول منها يشير إلى المتفرق المختلف الذي يتحرك المعبِّر بكسر الباء وتشديدها ناحيته منتقيًا وآخذًا منه ليقوم بعد هذه المرحلة؛ أي مرحلة الانتقاء بترتيب وصياغة من شأنها أن تنشئ ما كان متفرقًا إنشاء جديدًا يتجلى في الطرف الثاني من تلك الثنائية.

ومن الواضح أن هذه الثنائية عند دي سوسير وصلتها الوثيقة بالتأليف تسافر بنا حتمًا إلى الفيلسوف اليوناني أرسطو وكتابه (فن الشعر) الذي في ثناياه نتوقف أمام المحاكاة والوحدة العضوية والموضوعية؛ فاتصال الذات بعالمها ونقلها على طريقتها الخاصة وعلى وفق رؤيتها لما فيه نقلاً يأخذنا في مرحلة تالية إلى هيئة تعبيرية نجد فيها تتابعا وربطًا بين الأجزاء يعين ويشجع عليه وحدة الحالة الشعورية والذهنية ممثلةً في الفكرة الجامعة لأجزاء النص؛ فمن المعلوم أن أرسطو جعل تركيزه على فن الشعر وما يصطبغ به من صبغة قصصية تعتمد على السرد والتتابع.

إن وحدة الشعور ووحدة الفكرة إذًا تمثل مقومات وعوامل فاعلة في إحالة المتفرق إلى مؤتلف في نسيج تعبيري تتماهى فيه أجزاؤه في كل واحد جامع، هذا الكل هو عند أرسطو قصيدة الشعر، لكن الوسط الحضاري الإنساني على امتداده الزماني والمكاني توسع بهذه الحالة ولم يتوقف بها عند الشعر فحسب بل تجاوزها إلى موجودات تعبيرية أخرى غير الشعر وغير الفن بصفة عامة من دون أن ينسى أو ينفصل تمامًا عن أرسطو وتنظيره لها؛ بوصفه مؤثرًا وملهمًا.

لكن هذه الوحدة الموضوعية يقابلها مفهوم قام بمعالجته كاتب عربي حاول أن يُنظِّر لعملية التأليف العربي القديمة وما تحمله من سمات مميزة لها؛ فالطابع الموسوعي في الكتابة عند أهل التراث من المفكرين العرب في غالبية ما قدموا من مصنفات، الذي نلمحه في كتاباتهم التي تتشعب فيها الموضوعات والقضايا آخذةً بزمام القارئ في حقول معرفية شتى دفعت دكتور عبد الحميد إبراهيم في سلسلة أعدها في أجزاء عدة تحت عنوان: (الوسطية العربية): المفهوم والتطبيق مستعينًا بالأدب وبالتاريخ وبالقرآن الكريم إلى تناول هذه القضية التي جعلها عنوانًا لسلسلته.

وفي ضوء هذا المفهوم كما يرى عبد الحميد إبراهيم وما ينطوي عليه من حالة مرنة حاول أن يضع العربي وحضارته وكتاباته في إطار يميزها عن غيرها؛ إذا

ما نظرنا إلى تراث اليونان على سبيل المثال وحديث أرسطو عن الفضيلة كونها تقع متجمدة بين طرفين متناقضين، أما صاحب كتاب (الوسطية العربية) فيرى أن العربي وسطيته لا تعني سكونًا جامدًا بين طرفينن، لكن حركة مرنة نشطة فعالة بين المتغايرين والمتناقضين، هذه الحركة تأخذ من كل شيء بطرف، دون أن تقف منعزلة مستقلة نائية بنفسها بعيدًا؛ إن الوسطية ليست حالة مكانية لكنها حالة معرفية تجعل من الرؤية وما ينبثق عنها من معرفة عملية لا تعرف التطرف أو الانغلاق أو الانكفاء على وضعية فكرية رافضةً معاديةً لغيرها، ولا شك في أن الرؤية الإسلامية تؤكد ذلك الحال؛ فلا إقصاء للآخر المختلف في معتقده ولا انعزال؛ ففي الدين الإسلامي نجد:

ان (الوسطية) تعني إذًا في المفهوم الإسلامي الحضور مع المختلف ومجاورته والتعايش معه دون إقصاء أو تسلط أو استحواذ أو سعي لفرض رؤيتنا عليه جبرًا.

من هذه القناعة يمكن الوقوف على هذا المفهوم الذي نظر له عبد الحميد إبراهيم بناءً على الكائن في سياقنا الثقافي العربي التراثي؛ ألا وهو مفهوم الوحدة التركيبية، الذي يعني تجاور الأشياء وتمايزها، في نسيج تعبيري واحد جامع بينها جمعًا يقوم على الانتقاء والترتيب بما يتيح للمتلقي في اقترابه منها أن يكون في حالة نشاط رحلي ذهني وشعوري يتنقل ملتقطًا من نسق فكري إلى آخر، هذا المفهوم الذي يمثل سمة تقف عندها الشخصية الجمعية العربية من خلال الذوات الفردية المكونة لها وما قدمته أقلامها من أنساق معرفية تحمل في طياتها مصافحة لعلوم شتى من دون أن تقصر نفسها على علم بعينه، كما هو الشأن فيما تلى ذلك من أزمنة في ظل ما صار يُعرف بالتخصص؛ إذًا فإن الحالة الموسوعية العربية في التأليف يفسرها ذاك المصطلح الذي وضعه عبد الحميد إبراهيم في كتابه عن الوسطية العربية؛ ألا وهو مصطلح الوحدة التركيبية.

إن الكلمات المفتاحية إذًا لهذه الورقة المقالية تقوم على ملفوظات عدة: التعبير، التأليف، المحاكاة، الوحدة الموضوعية، الوسطية العربية، الوحدة التركيبية.

***أستاذ الأدب والنقد، كلية الألسن، جامعة عين شمس.**

وردة الصيف الأولى

هوارد فاست
ترجمة: جودت جالي

كنت في الرابعة عشرة من عمري حين جاءني الحب لأول مرة، وهو عمر أكبر مما يقع فيه البعض في الحب عادة.. وإن كان أصغر مما يقع فيه البعض الاخر. يمكنكم القول بأنه عمر مناسب ملائم للوقوع في الحب، صحيح أني كنت جاهلا بأشياء مثل الغدد الصماء وما شابه، غير أني عرفت تألق الحب الذي تغنى به الشعراء دائما.

في ذلك الوقت كان لدينا، أخي وأنا، عمل تسليم الجرائد الى المشتركين والذي يصفو لنا منه خمسة عشر دولارا في الأسابيع الجيدة، ونؤديه معا بعد الدوام المدرسي. قبل أن ننتهي من عملنا ذلك اليوم المميز عرف أخي أني لم أعد طفلا وأن لحزني العميق الشبيه بحزن القديسين الذي أحيط نفسي به توجد أسباب أخرى الى جانب الأسباب المادية.

سألني: "ما الذي يزعجك؟"، فأخبرته بوقوعي في الحب. كان اليوم لطيفا جميلا وقد أوصلنا جرائدنا الى معظم المشتركين في مبنى شقق من خمسة طوابق. كانت فكرة أخي بخصوص عدالة التوزيع فيما بيننا أن يكون عملي في الطوابق الثلاثة العليا فيما يتكفل هو بالطابقين السفليين، ولأنه أكبر مني بسنة ونصف وأثقل مني بستين باوندا استطاع فرض هذا المرسوم بخلاف المفهوم الأساس للعدالة وقد قاومته في كل مبنى. لكن مع ذلك، قبلته اليوم. كان يوجد طعم للمعاناة، وقلبي تملؤه الموسيقى.

قلت: "أنا واقع في الحب". -" ماذا؟".

قلت:" واقع في الحب. واقع في الحب مع امرأة". -" هل أنت جاد؟". قلت بوقار أوقعه تحت تأثيره :" أجل. أنا غارق في الحب". رافقَ فضولَه المتسم بالاحترام اهتمامٌ ولمسةُ إعجاب وهو يسألني :" متى حدث هذا؟". -" اليوم". -" هكذا دون مقدمات؟". قلت :" أجل. رأيتها في صفي لدرس اللغة الإنكليزية وعرفت أني أعشقها". -" كيف استطعت أن تعرف؟". -" بالطريقة التي أشعر بها". سأل أخي آملا بموافقتي :" تعني مثل التكفل بالتوزيع في الطوابق الثلاثة العليا؟". -" ذلك هو مجرد جزء من المسألة. لم تعد لمعاناتي أهمية

لأني الآن أركز على شيء أكبر مني". أومأ أخي برأسه وراقبني بتركيز وسأل :" كيف تشعر؟". -" أشعر بالنبل". -" ألست مريضا؟" -" ليس مرضا جسديا. إنه ليس شيئا يمكنني تفسيره لك". وافق قائلا :" لا أظن أنه بإمكانك ذلك. ما اسمها؟". -" تيلما نيل". -" تيلما؟". كررت :" تيلما"، وأنا أستمتع بنكهة الإسم، وبهجته، وانعطافات لفظه. -" هل أنت متأكد؟". -" بالطبع أنا متأكد". قال أخي :" ذلك اسم غريب. ألا تلثغ في كلامها أو شيء من هذا القبيل؟". -" لديها صوت كالموسيقى". -" أوه. هل تعرف هي أنك تحبها؟".

قلت :" بالطبع لا"، وأنا أكاد أن أكون نادما لأني أطلعته على سري أصلا. على كل حال كان الأمر ضروريا، فالوقوع في الحب كان سيعقد حياتي، وهو ما أدركته من البداية بالضبط، وما كنت لأستطيع أن أذهب الى فريق لأتدرب كي أصبح عدّاء سباق الضاحية من أجل أن أعجبها من دون أن يعرف أخي ما الدافع وراء هذا التدرب. في ذلك الوقت كنا نداوم كلانا في مدرسة جورج واشنطن العالية التي كانت في الطرف الأعلى لجزيرة منهاتن. انتهى دوام المدرسة في الثالثة وأنهينا التسليم في السادسة، ومن ثم، لأننا ليس لدينا أم، حضرنا العشاء وأكلناه مع أبينا الذي يعود الى البيت من العمل في السابعة، وأنجزنا واجبنا البيتي وأوينا الى الفراش. الحب وحده ألقى أعباء جديدة على طاقتي، بالإضافة الى ركض الضاحية، وهو التكريس المقدس الوحيد المسموح لي بممارسته.

كان أخي بانتظاري عندما خرجت من صف اللغة الإنكليزية في اليوم التالي. -" أيهن؟". أراد أن يعرفها فأشرت له عليها. -" الطويلة؟". -" هي ليست غاية في الطول". -" إنها تبلغ خمسة أقدام وتسعة إنجات". -" أوه، كلا، كلا، أبدا، على كل حال أنا نفسي أبلغ خمسة أقدام وثمانية إنجات". قال أخي ببرود :" خمسة أقدام وستة إنجات". -" مستحيل. على كل حال تختلف نسبة الكبر باختلاف الأشخاص. أنا أباشر بنموي للتو فيما هي قد اكتملت، أقصد اكتمل طولها". -" كيف تعرف؟". -" حسن. كم يمكن للفتاة أن تبلغ من الطول؟". -" ما دامت تستطيع الاستمرار في النمو فهي تستطيع كذلك. ذلك منطقي".

سيطرت على رعشة الخوف التي اعتصرت قلبي. لقد كنت أتفهم قسوته، ولم أحمل له ضغينة. كنت أحمل في داخلي بعض الصفاء وتركت بعضه يتجلى على رد فعلي. قال أخي :" يبدو عليك أنك مريض. أتمنى أن تكون بخير. هي لم تنظر اليك حتى". -" هي لا تعرفني". -" حسن. لماذا لا تعرفها بنفسك". -" لا يمكنني ذلك الى أن يكون لدي إنجاز أضعه عند قدميها. لا أملك ما يجعلني شخصا في نظرها. هل لاحظت كم هي جميلة؟ لجمالها هذا سيكون أي شخص واقعا في حبها. ذلك طبيعي". قال أخي :" أنا لست واقعا في حبها". -" على كل حال...". سأل أخي :" ما الذي تعنيه بوضع إنجاز عند قدميها؟ هل ستشتري شيئا لها؟". مشيت مبتعدا. لم يكن مفيدا التحدث معه في الأمر، لم يكن مفيدا التحدث مع أي شخص. كان شيئا علي أن أكتمه في داخلي الى أن أنتصر في كفاحي لأجعل من نفسي ذا قيمة. لقد تفكرت أسبوعا. كان قد مضى على موسم مباريات كرة القدم زمن بعيد،

وأنا في الرابعة عشرة فقط، وكرة القدم مشروع طويل الأمد ويحتاج الى الكثير من المهارات. إن الحب الذي كنت قد بدأت أكتشفه لم يكن شيئا ساكنا، بل قوة ديناميكية تحرك الشخص نحو الفعل المباشر، وعندما انتهى الأسبوع، تحولت نحو رياضة ساحة الميدان، فبعد كل شيء كم لاعبا من لاعبي كرة القدم يقيمون ألعابا أولمبية؟

أخبرني المدرب قائلا :'' قدمك كبيرة جدا''. سألته :'' كبيرة بالنسبة لأية لعبة؟''، فقد كنت قد تدبرت أمري بهما جيدا حتى ذلك الوقت. أجابني :'' بالنسبة الى العدو السريع''. -'' لا أفترض أن قدمي ستكبران أكثر، وأنا أهيئ نفسي''. -'' لا يمكننا الانتظار''. رجوته :'' ألا تريد اختباري؟''. قال المدرب بصبر:'' لا فائدة من الاختبار. لن تستطيع العدو سريعا بقدمين كهاتين''. -'' ألا يوجد شيء لا يتوجب عليك فيه العدو؟''. -'' قدماك ضدك. فلو أنك قفزت ستكون النتيجة نفسها. كذلك أنت صغير وخفيف، وهذا سيء بالنسبة الى رمي الكرة الحديدية أو القرص المعدني. إذا أردت المحاولة بالنسبة الى سباق الضاحية، يمكنك''. -'' سباق الضاحية؟''. -''أجل. تقضي سنة في التدريب، وبعدها ربما سيعالج باقي جسمك مشكلة قدميك. إنه تدريب جيد، إذا كان قلبك سليما''.

كان قلبي سليما، وفي الثالثة كنت بملابسي الداخلية أرتجف في متنزه فان كارتلاندت. كان اليوم كله باردا هاب الريح، ومئات من الأولاد الآخرين يرتجفون معي. ثم بدأنا، وللنصف الساعة التالية، عبر تلة ووادٍ، ركضنا شوط ميلين ونصف. ربما كان ذلك التعليم، بسبر الطرق الفرعية للمعرفة، كان مؤديا الى شيء أكثر قساوة وبلاهة من ركض سباق الضاحية، وإن كان الأمر كذلك، فقد فاتني أن أعرف ما الذي جعل باقي المجموعة تصمد، ولكن بالنسبة لي فإن الحب حملني الى النهاية وأنا ألهث. أخذت دشا والتحقت بأخي في تسليم الجرائد، متأخرا ساعة ونصف. لم أستطع أن أوزع الجرائد في الطوابق الثلاثة وأخبرت أخي بالسبب. تساءل قائلا :'' هل تقصد بأنك ستستمر هناك وتركض ميلين ونصف كل عصر؟''. -'' أجل''. -'' ولكن لماذا؟'' -'' لأجلها''.-'' تقصد أنها طلبت منك أن تفعل هذا؟''.

-'' كيف أمكنها أن تطلب مني وأنا لم أتكلم معها أبدا؟''.

-'' من طلب منك إذاً؟''.

-'' لا أحد''.

قال أخي :'' أنت مجنون''، وهو ما توقعته، فعقله لا يستطيع الارتفاع أعلى من مستوى الأرض. كان هناك عدم ارتياح بيننا لباقي الأسبوع.

أحسست بشيء وإن كان بشكل غامض فقط لأن كل ما أدركه بوضوح قد عتمه ضباب قلق دائم. إن كان يوجد غرام رومانسي في تأريخ الغرب كله قد وصل الى نقطة انكسار، فهو هذا الحب، ويبدو لي بأنه ضحية حقيقية الى الهوى الرقيق الذي بقيت بعده أنا وإخلاصي متحدين فيه. على كل حال كان بقائي على إخلاصي هو من النوع المجازف وغير الواثق من النتيجة، وإن لم أكن قد مشيت في الظلام فقد مشيت بالتأكيد في ضباب رمادي، وقد كانت آثار ذلك في دراستي، إن لم تكن معبرة عن الحماقة بكل معنى الكلمة فهي على الأقل لا تحمل تحذيرا كافيا. أدركت أكثر من ذي قبل بأن علي أن

أكون أفضل عدّاء ضاحية أنتجته أميركا في تاريخها لأحسن صورتي كشاب مضطرب متعب مفكك في عيون المرأة التي أحببت.
انتهت على نحو ما أيام الأسبوع الخمسة ومن دون أن أخسر اللطف الورع الذي كان هو الظاهرة الأكثر جلاء في هواي. لم يخفف عني فضولُ اخي المتجهم ثقلَ صليبي الذي أحمله. لقد حقق بأسلوب حيادي كليا معاناتي مع تحملي الجديد، فقد أتيت الى العمل متأخرا، ولكني أنجزت حصتي منه بالتأكيد.
الجريدة التي أوصلناها كانت جريدة ما بعد الظهر، باستثناء يوم الأحد الذي تصدر فيه صباحا. لقد عنى هذا أننا يجب أن نغادر فراشينا في الثالثة صباحا، ونسير مترنحين الى غرفة التجميع، ونقابل جبالا من المطبوعات الخبرية، وعند السابعة أو السابعة والنصف صباحا نكون متجهين مع حمل التوصيل ونتمكن من الذهاب الى البيت ونحصل على إغفاءة. عادة ما أكون تعبانا بما يكفي، ولكن فريق الضاحية، ومن قد يكون العقل الشيطاني خلفه، قرر أن يقوم بركض تكييف في يوم السبت خمسة أميال بدلا من اثنين ونصف، وعندما يحل يوم الأحد يكون تعبي المتراكم شيئا ظاهرا. اكتسى احترام أخي بمسحة من الخشية الآن، وقد اقترح علي بنبرة لطف أن أذهب الى البيت وأقضي أغلب اليوم نائما.
قلت :" كلا، سيكون هذا شيئا لطيفا، ولكني لا أستطيع، أنا ذاهب الى بيتها". -" تعني أنك قابلتها، أنك تحدثت اليها؟ دعتك الى بيتها؟". -" ليس بالضبط". أومأ أخي بإعجاب :" تعني أنك ستذهب الى هناك وتقدم نفسك؟". -" وذلك ليس بالضبط أيضا. أنا ذاهب لمجرد الوقوف خارج بيتها". -" الى أن تخرج؟". وافقت قائلا :" أجل ... أجل، هو ذاك". اقترح أخي قائلا :" ألا ترى بأن عليك الحصول على قسط من النوم أولا؟". -" لا يمكنني أن أحصل على هذه الفرصة". -" أية فرصة؟".
لم أحاول الشرح لأنه توجد أشياء لا يمكنك شرحها. كان بيتها في بناية بأربعة عشر طابقا تقع في ريفرسايد درايف، وقد آذاني انعدام قدرتي على الشرح ودوخني فقد وسع الفجوة بيني وبينه. جعلني أفتش في ذاكرتي عن أي شاهد على أن أميركا بلد تم فيه تكريم عدّاء الضاحية ولو بالترشيح لأقنعه بصواب مسعاي، ومن جانب آخر، لكي يزداد وقوفي بالانتظار صعوبة كان للبيت مدخلان، واحد على شارع درايف والثاني على شارع جانبي. لم تكن توجد مسطبة خشبية أراقب منها المدخلين، فكان علي أن أقوم بمراقبتي في ملتقى الشارعين عرضة للريح، وأنا أتفكر بكآبة في حقيقة أني حتى ولو كبرت بما تبقى لي من النمو فإني لم أكن أعاملُ قدميّ، بوقوف كهذا، بأسلوب يضمن إما إبقاءهما بحجمهما الحالي أو أحافظ عليهما للركض. توجد أماكن باردة في الأرض، توجد أماكن كُتب عنها عمل أدبي كامل حول البرد المحيط بها، ولكنها لا تُقارن بزاوية شارع على ريفرسايد درايف في صباح غائم من شهر تشرين الثاني. ذلك كان بردا خصوصيا، لطيفا، رطبا، بردا ثاقبا يزداد ببطء مناسب لأن تهلك بأقل ألم. عند الثانية عشرة انتهيت من تكريس نفسي للحياة وكرستها للموت. كانت توجد حدة في إدراكي بأنه من الممكن أن أموت هكذا، على عتبة بابها، صحيح أنه باب لكل

ساكني البناية، ولكنه بابها أيضا، ويمكن أن لا تعرف بأني سأموت هنا. مع ذلك ألا يجدر بها أن تعرف؟ عندما تنظر الى وجهي الشاحب الأبيض، والثلج يكسو رموشي، ألن يخبرها هذا بشيء ما، فتندم لأنها أبدا لم تشر إلي بكلمة أو إشارة؟

في ذلك الوقت تقريبا ظهر أخي، وكان يحمل حقيبة بنية تحت ذراعه. قال :" جلبت لك غداء". دمدمت :" شكرا لك. لطف وطيبة منك أن تفكر فيّ، ولكن الطعام لا يهمني". -" ماذا؟". قلت بلطف :" لم أقصد جرح مشاعرك". هز أخي رأسه :" لا بأس"، كان قد بدأ يدرك بأن المرء يشعر بالحب بطريقه بذهن منفتح". -"جرب سندويجا، أرى أن نذهب الى مسطبة ونجلس". -" كلا... لا يمكننا". -" لِمَ لا". -" يجب أن أراقب كلا المدخلين، إذا أردت أن تراقبهما عليك أن تقف هنا لتراهما". -" ألن تبحث عنك حين تخرج؟". هززت رأسي بالنفي قائلا :" إنها لا تعرف أني هنا". -" ماذا؟". -" أنت تواصل القول ماذا. أظنك لا تفهم ماذا يعني هذا لي". -" كلا، أظن أني لا أفهم". سألت أخي :" كيف تعرف أني هنا وأنا لم أتكلم معها؟". -" إذن ما الذي تنتظره هنا؟". أجبت ببساطة وأنا آكل السندويش :" أنتظرها لتخرج". -" ثم ماذا؟". -" أراها". -" ولكنك تراها كل يوم أليس كذلك؟". -" أجل". نظر إلي أخي مدققا وقال :" أوه". -" ما الذي تعنيه بقولك أوه؟". -" لا شيء، ولكن ما العمل في حال لم تخرج؟". -" لا بد من أن تخرج عاجلا أم آجلا". سأل أخي عارضا أمامي التصور البارد للمنطق :" لماذا؟ إنها في يوم كهذا تكون في غاية الذكاء لتقرر البقاء في البيت. يمكنها البقاء في البيت وتقرأ مجلات التسلية، وربما أيضا هي تقيم حفلة هناك ويأتي أناس من كل صنف لزيارتها". -" توقف عن كلامك هذا!". قال أخي :" أنا أحاول أن أكون منطقيا لا أكثر". -" أنت لا تعرف كم تؤذيني، ولو عرفت لما تكلمت هكذا".

غادرني قاصدا أني إذا كنت أولي نصيحته القليل من الاهتمام فيمكنني الاستمرار بمراقبتي وحدي، وتركني لتأملاتي وللتركيب غير المعقول للريح الرطبة التي تهب علي من جهتين في الوقت نفسه. لم يكن أعلاي سيئا جدا فقد كنت أعتمر قلنسوة صوفية ومعطفا قصيرا اعتدنا على أن نسميه ماكينو. لكن قدميّ لاقتا معاناة. كان أمرا ساخرا أن أرى أني قد لن أكون عدّاء بسببها، وحتى مسألة المشي السهل والبسيط أخذت تثير الشكوك في عقلي.

غربت الشمس خلف الأسيجة والشرطي المتمشي أخذ ينظر إلي بريبة عندما ظهر أخي مرة أخرى. قال :" ألم تخرج بعد؟" -" أنا أسمى من أي شيء تستطيع قوله". -" حسن. لكن أبي يرى أنك يجب أن تأتي الى البيت". -" هل أخبرته؟". -" ليس بالضبط". -" كيف سمحت لنفسك". طمأنني أخي قائلا :" الأمر من ناحية أبينا على ما يرام". -" كيف يمكن أن يكون على ما يرام؟ كيف يمكن لرجل بعمر أبي أن يعرف بما أنا أمر به؟ حتى أنت لا يمكنك أن تفهم". قال أخي :" أحاول، لا تفكر بأني لا أريدك أن تصبح عدّاء ضاحية عظيما، لأن تفكيرك هذا لن يكون صحيحا". -" أنت لا تفهم حتى بأن اهتمامي الوحيد في ركض الضاحية اللعين هذا هو لأني أريد أن أضع شيئا عند قدميها". -" أنا أشعر بأنه يتوجب

عليك تقديم نفسك، وعندها إذا خرجت فيما أنت واقف هنا تكون تعرفك. عليك أن تقر بأن هذا سيكون ميزة لصالحك".

كان كلامه صحيحا. علي تقديم نفسي، وفكرت فيه مليا حتى يوم الأربعاء من الأسبوع التالي، ولأنه بدا أن أقوم بما يتوجب علي في الجو الممطر في متنزه فان كورتلنت، حملت قلبي على يدي وأوقفت تيلما نيل عندما دق جرس الانصراف، وفيما أنا أرفع نظري اليها رأيتها إلهة اغريقية أكثر من أي وقت مضى. سألتها كيف تذهب الى البيت فأجابت: "بالحافلة". -" هل تذهبين وحدك؟" قالت: "أحيانا". -" هل تحبين الجلوس في الطابق العلوي المكشوف؟". قالت: "أحيانا". تدبرت أمري قائلا :" هل أستطيع العودة الى البيت معك اليوم؟". قالت :" إن كنت تريد؟".

مشيت طائرا في الهواء وقلبي يدق مثل مطرقة كهربائية، حتى أن يدها لامست مرة يدي للحظة. كانت في الخارج ريح شمالية شرقية تهب، ووجدت حافلة بطابق علوي مكشوف. قالت عندما جلسنا في أعلى الحافلة :" إن الجو بارد هنا". لقد امتلكنا الطابق العلوي، لوحدنا ولا أحد معنا، وكل العالم تحتنا". -" ستعتادين عليه". قالت :" وأظنها ستمطر". -"ربما لن تمطر، وعلى أية حال هذا من حسن حظي لأنه لا يوجد تدريب على ركض الضاحية". قالت :"أوه". قلت :" أنا شكلت الفريق". -" نعم؟ ألا تظن بأننا يجب أن ننزل الى الطابق السفلي؟". -" ستعتادين عليه بلمح البصر. يوجد سبعون رجلا في الفريق، ولكنها من الرياضات الممتازة". قالت :" أوه" وقلبت ياقة معطفها الى الأعلى وأحكمت لفه حولها وحدقت أمامها مباشرة. تحدثت حديثا قصيرا بأفضل ما يمكنني، ولكنها لم تسترخ، إلا لترتجف بين الحين والآخر، حتى أني انعطفت في حديثي مرة أو مرتين للتعبير عن مشاعري، ولم تبد هي تجاوبا. ثم بدأ قطر مختلط ببعض البَرَد، ليس شديدا أول مرة، والحقيقة أنه لم يكن بالنسبة لي ملحوظا. قالت :" أعتقد بأنه يجب أن ننزل الى الأسفل". -" أوه، كلا. كلا. إن الجو لطيف هنا، ففي الأعلى هنا يمكنك أن تري كل شيء". -" حسن، أنت دفعت الأجرة". -" ذلك لا يهم. أنا دائما أدفع الأجرة حين آخذ أحدا بالحافلة". أرادت أن تعرف متسائلة :" ألست شاعرا بالبرد؟". -" كلا، كلا....".

ازداد البَرَد، ثم أخذت تمطر. جلست مستندة الى الحاجز للحظة أو لحظتين، ثم قامت ومشت الى آخر الحافلة ثم نزلت الى الطابق السفلي. تبعتها، ولكني لم أستطع التفكير بأي شيء آخر الى أن وصلنا الى بيتها. قالت :" لقد نقعت، نقعت بكل ملابسي، وكله خطأك". -" مجرد بلل خفيف". -" كلا. نقعت. أنا بخير وناقعة. شكرا لك لأخذي الى البيت". أخبرت فيما بعد أخي بما جرى وعلق قائلا :" ها أنت. لا تستطيع أن تقول". قلت :" أنا أعشقها أكثر من أي وقت مضى". -" حسن....". -" ما الذي تعنيه بقولك حسن؟". -" لا شيء. فقط أن الفتيات الطويلات لا يعجبهن الرجال قصار القامة، وذلك أمر يستدعي التفكير فيه أيضا". -" أعتقد بأن السبب غالبا كان هو المطر. أظن أنها رقيقة". -" إن كبرها لا يناسبه أن تكون رقيقة". قلت :" ولكنها حساسة. لن تفهم أنت ذلك".

لم تكن في المدرسة في اليوم التالي ودخلت

أنا كل عذابات من كتب الله عليه العذاب.
قال أخي :'' اتصل بها''. -'' أتصل بها؟''. -'' بالتأكيد. هاتفها. أنت تعرف عنوانها. ابحث عن رقمها في دليل الهاتف واتصل بها. سترى هي هذا منك اهتماما كبيرا بها''.
فعلت كما قال فرد علي صوت سيدة قائلا ببرود :'' تيلما مريضة''. -'' هل يمكنني التحدث معها؟''. أجاب الصوت :'' كلا لا يمكنك''، وأغلقت الهاتف.
لم أكن أتمنى أن يتعذب أي شخص بالطريقة التي تعذبت بها في الأيام القليلة التالية. كل ما استطعت التفكير فيه هو أن ما يحصل لي هو كفارة ذنوب. لقد قرأت كيف أن أناسا قضوا حياة بكاملها يكفِّرون عن خطأ شنيع اقترفوه. تخيلت نفسي أسير في جنازتها. لا أحد يعرفني، ولكن لا حزن كحزني. لأن معنى كل ما قلته ونفذته هو أني ذبحتها، أنا وليس غيري. إن حياة بكاملها لن تكون كافية للتكفير عن هذا الفِعْل مني. قررت أن علي فعل أفعال الخير.
حبي لن يتغير أبدا، ولن يضعف. سيراني الناس كقديس، وهم لا يعرفون بأن الحقيقة الوحيدة هي أني قاتل، وحتى ركضي الضاحية قد عانى، وبدلا من تحسن سرعتي تخلفت. استدعاني المدرب لهذا السبب، ولكن ما الذي يعنيه لي ركض الضاحية الآن؟
وجاء يوم الاثنين، وظهرت في المدرسة، وأخذ قلبي يغني من جديد. كانت أكثر شحوبا، ذلك صحيح، ولكن الشحوب أضاف الى جمالها جمالا. ذهبت اليها وقلت :'' كنت مريضة، وأنا آسف. كانت تلك غلطتي....''. لقد فكرتُ في كلامي مليا قبل أن أقوله ولكنها لم تدعني أكمله، وبدلا من ذلك انفجرت قائلة '' أنت ولد صغير مرعب مقرف. رجاء لا تتكلم معي مرة أخرى''.
فوَّت ركض الضاحية ذلك اليوم. توجهت الى العمل في الثالثة وهز أخي رأسه بكآبة عندما رأى وجهي. سألني :'' ماذا حدث؟''.
-'' العالم ينتهي، وأنت تريد أن تعرف ماذا حدث؟''.
-'' ستبقى تأخذ الطوابق الثلاثة العليا، أليس كذلك؟''
قلت بحزن :'' أجل، لا يهم. لازلت أعشقها. سأبقى دائما أعشقها، أظن ذلك''.
عندها رأيتني في المستقبل رجلا قاسيا متجهما أدار وجهه عن جميع النساء. لن يعلمن ولا هي ستعلم.

Howard Fast reader, 1960

*** هوارد فاست 1914-2003 روائي وكاتب سينمائي وتلفزيوني أميركي، طبع له من الروايات ما يزيد على 70 رواية وعشرات القصص والمسرحيات وغيرها باسمه هذا وبأسماء مستعارة. صدرت له أول رواية (الواديان) سنة 1933 وهو في الثامنة عشرة من عمره. قرأنا له مترجما من كتبه التي تحولت الى أفلام (سبارتاكوس) و(طريق الحرية) الذي مثل فيه محمد علي كلاي و(توم بين) و(عذاب ساكو وفانزيتي) وغيرها. تعرض فاست للمضايقة والتحقيق لميوله الفكرية اليسارية وقد سُجن وتم منعه من العمل في الأدب والسينما لسنوات.**

مطبوعات وصلتنا

(1) طلال حسن، بروق في سماء غائمة (قصص قصيرة جداً)، بغداد، اتحاد الأدباء والكتاب في العراق 2024.
(2) عواد علي، تؤام البحر (رواية)، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 2024.
(3) آمال إبراهيم، أوراق الطفل الوقح، عرزا باوند قارئاً جيمس جويس (ترجمة)، بغداد، اتحاد الأدباء والكتاب في العراق، 2024
(4) عبد المطلب محمود ولطفية العاصمي، تينهينان – ساليسا، محادثات تواصلية، بغداد، دار الحداثة 2024.
(5) مالك المطلبي، ذاكرة الكتابة - حفريات في اللاوعي المهمل، بغداد، اتحاد الأدباء والكتاب في العراق، 2024.
(6) هوبير حداد، فلسطين، ترجمة: المصطفى صباني، بغداد، دار سطور، 2024.
(7) سعدون هليل، عبد اللطيف عبد الرحمن الراوي، الفكر الاشتراكي في الأدب العراقي 1918-1958 (إعداد وتقديم)، بغداد، دار سطور، 2024.
(8) محمد رضا نصر الله، أصوات في الأدب والفكر الاجتماعي، بغداد، دار سطور، 2024
(9) لؤي فاشو سيكان، بابلو نيرودا، الغرفة 406 ترجمة: كامل العامري، بغداد، دار سطور 2024.